ملتقى مجالس الطبعة الأولى 2023

عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري

تجميع بحوث الملتقى السنوي
لمبادرة مجالس الثقافية

نور الإسلام بن عباس — جمال الدين بومحمد — نبيـــــل دردار
عبد المجيد الشيخ بالحاج — كمال الدين هادوي — هـــــاجر نوري
زين العابدين لبيوض — شمس الدين حميود — منـــــال بوخزنة

العنوان: عزوف الشباب الجزائري
عن الشأن الفكري
تأليف: مؤلف جماعي
رقم الإيداع: 978 - 9969 - 543 - 39 - 1
تصميم وإخراج: ساخر أحمد

© الحقوق محفوظة للمؤلف 2024

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

© All Rights Reserved 2024

No part of this book may be reproduced, stored, in a retrieval system, or by any means without the prior written permission of the publisher.

الديباجة

المتأمل في فلسفة التاريخ، يجد أن الإيقاع المتناوب للثبات والديناميكية، للحركة والسكون، مظهر أساسي ملازم لطبيعة الكون، وفي هذا نشطت أقلام جهابذة البشرية في محاول تفسير وتحليل هذا البعد التكويني للوجود البشري، وضمن إطار المقاربة الحضارية نجد أرنولد توينبي، والذي ومن خلال نظريته النسقية، والمستندة إلى التأويل الفلسفي للواقع التاريخي، والمتضمنة في فكرة التحدي والاستجابة، استنتج أن الوثبة الحضارية إنما تنتج عن التحديات التي يواجهها الإنسان في واقعه، لتستفزه بعدها وتدفعه إلى الفعل، أي إلى أن يستجيب لها، ويحولها إلى «فرصة» يمكنه الاستفادة منها، بشرط توافقها مع قدرات الفعل التي يمتلكها في راهنه الزمكاني، وإن كان توينبي يركز في نظريته على القلة المبدعة، القادرة على تحريك الجمهور بما تملكه من شرعية رمزية، نتجت عن نجاحها القيادي، فإن الكثير من النقاد يرون أن «الوثبة الحضارية» لا يمكنها التحقق إلا إذا تحولت أسبابها لتتجسد في مجموعة من الأفكار والنظم والمؤسسات، أي إلى حالة عامة، أومزاج كلي، يحكم حركة مجمل الأمة، ويحدد مسارها، وينظم توجهها، ويمنعها من الانحراف والزيغ

وإن كان التحدي هومبعث الفعل الحضاري، فإن تمظهراته تتغير على حسب الحالة السياقية التي يعيش فيها الفرد، وعلى حسب الممكن المعرفي لعصره، ثم على موقعه من موازين القوة في عالمه، فإن المعرفة واكتسابها، ورصيد كل أمة منها، هي نقطة التحدي الأساسية التي تميز لحظتنا الحضارية، ونقصد بالمعرفة هنا، المعرفة المجلّية للواقع، والساعية لتشخيص مشاكله، وتقديم الحلول لها.

وفي سبيل تحقيق التمكين والريادة، وفرض النموذج الحضاري الخاص، وتحييد احتمالات الفناء الوجودي، استثمرت الدول الغربية في مجال المعرفة الأداتية، ونتج عن هذا مانسميه بـ « مراكز الفكر» ؛ حيث

تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية حاليا متربعة على عرشه بامتلاكها ما يزيد عن 1800 مركز من مراكز الفكر، وتحل الصين في الرتبة الثانية بامتلاكها ما يقارب 500 مركز فكر، ولنا أن نتأمل الفرق الشاسع بينها وبين سابقتها، ثم تأتي باقي الدول الأوربية تباعاً، وجدير بالذكر أيضاً أن أغلب الدول العربية لا تملك أي مركز للفكر؛ إن هذا المعطى كفيل بإعطائنا لمحة عن أسباب تفاوت دول العالم في هيمنتها ونفوذها وقدرتها الاستشرافية. ولكن في الوقت ذاته ينبغي ألا يغيب عن ذهننا أن تكديس المنتجات لا يصنع دولة ولا يشيد حضارة، وأن النُخب العضوية المشتبكة مع واقعها والمنحازة إلى أمتها لا تُصنع دائما وبالضرورة الحتمية بقرار سياسي فوقي، وإنما تكون نتاجاً لحراك مجتمعي وتراكم ثقافي يحقق الشروط الفردية والجماعية لانتخاب النخب.

ومما يحقق هذا التراكم المعرفي والحوار الثقافي على الأقل في الوسط الشبابي والجامعي؛ حلقات القراءة والتي –على ندرتها وقلة مرتادیها- تعتبر فضاءً نقاشياً ومعرفيا حراً تغيب فيه التراتبية يهدف إلى تنويع المطالعات وتكوين فكر نقدي يمكن من تجاوز الحس المشترك العام، من أجل فهم أدق للواقع. وعلاوة على هذا فإنها في حال استمرارها وثباتها كتقليد دوري، وتجاوزها لظواهر الفرجة الثقافية والدعاية الأيديولوجية والتضخم التنظيمي، تعتبر بالنسبة لمرتاديها المداومين عليها؛ مخبراً للملاحظة السوسيولوجية الدقيقة باعتبارها تمكنهم من معرفة اهتمامات الشباب عبر مختلف المراحل العمرية والدراسية وأنواع المطالعة الرائجة بينهم، إضافة إلى نوعية تلقيهم لمختلف الأفكار والتوجهات، كما أنها تتيح للملاحظ الحصيف استشفاف ملامح التغير الفكري الذي عادة ما يحدث بوتيرة بطيئة وهادئة، وكذا تتبع مختلف المدخلات المعرفية والنفسية التي ساهمت في ذلك. ومن بين الظواهر الملاحظة بهذا الصدد شيوع القراءة الترفيهية والوعظية المنفصلة عن الواقع، واستبطان مفاهيم مغلوطة

عن الثقافة باعتبارها تجميعاً للمعلومات، في مقابل عزوف شبه تام عن الشأن الفكري.

تتحدد إهتمامات الشباب بالأساس عبر التنشئة الاجتماعية بمختلف وسائطها بدءاً من الأسرة باعتبارها المسؤول الأول على صنع هوية الفرد وتحديد انتماءه، وعلى غرس القيم والأخلاق التي تصوغ معنى الحياة الذي سيشكل فيما بعد اهتمامات الفرد وأهدافه، ثم المدرسة التي هي حجر الأساس في المجتمع وعليها تعوّل الدولة الحديثة في تكوين المواطن الصالح الذي يُنتظر منه أن يؤدي واجباته قبل المطالبة بحقوقه ، وصولاً إلى وسائل الإعلام باعتبارها صانعة الرأي العام، ودليل الضمير الجمعي إلى القضايا المصيرية. وإلى مختلف الوسائط الأخرى كالمساجد والجمعيات والمنتجات الثقافية كالأدب والمسرح والسينما وغيرها.

ولكن هذه الوسائط ترتبط في علاقة جدلية مع الواقع المجتمعي في علاقة تأثير وتأثر؛ فالأسرة تعيش إكراهات الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وتتأثر بسلطة الثقافة الغالبة التي تفرضها العولمة، والمدرسة الجزائرية تعتبر نتاجاً لتراكم تاريخي طويل تمتد جذوره إلى الليل الاستعماري الطويل الذي رام مسخ هوية الشعب وتكريس تبعيته، وقد كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين النخب بعد الاستقلال وإلى اليوم جعلها تفقد معالمها، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي الوسائط في علاقتها مع الواقع بدرجات متفاوتة.

ويأتي عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري كنتيجة لهذه العلاقة الجدلية بين وسائط التنشئة الاجتماعية والواقع المحلي والدولي بمختلف تعقيداته، وللتجهيل المتعمد الرامي إلى تأبيد التبعية على مختلف الأصعدة، وإلى خلق تصورات سلبية تكرس للاغتراب والعدمية والتفاهة وبالتالي للاعتزال الطوعي للمسؤولية. وهذا في ظل غياب وعي بضرورة المرابطة على الثغور الفكرية، وانتشار أحكام مسبقة تعتبر التحليل النظري لمختلف الظواهر ترفاً فكرياً وتهوّن من جدوى الإصلاح الثقافي.

إن ظاهرة عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري تعتبر مؤشرا هامّا لاستشراف مستقبل النخبة في الجزائر، وهي تنبئ بخطر استمرار التفاوت المذكور أعلاه بخصوص مراكز الفكر باعتبار العامل البشري عنصراً مهما وحاسما في ذلك، دون إغفال تأثير استراتيجيات الدول والأنظمة السياسية في بعث هذه المراكز وتفاوتها في الإمكانيات والمؤسسات المؤهلة لذلك.

انطلاقًا مما تقدم وبناءً عليه، جاءت فكرة هذا الملتقى الفكري الذي نحاول فيه - كشباب مهتمين بسؤال النهضة الحضارية للأمة- فهم هذه الظاهرة وتحليل أسبابها ومآلاتها.

إشكالية الملتقى:

ماهي الأسباب التي تفسر ظاهرة عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري؟ يتفرع عنها الإشكاليات الجزئية التالية:

ماهي الصورة الواقعية الموصفة لعلاقة الشباب الجزائري بالشأن الفكري؟

ما علاقة ظاهرة العزوف عن الشأن الفكري بالمجال التكويني الأولي (الأسرة، المدرسة...) ؟

ما علاقتها بالبنية الخارجية (الدولة، الثقافة الغربية، الرأسمالية) ؟

ماهي أهم الحلول الواقعية التي يمكنها تغيير المعادلة الواقعية تصحيحها؟

أهداف الملتقى:

لفت الانتباه إلى الفضاءات الشبابية كمرصد لتشخيص الظواهر السوسيولوجية.

إلقاء الضوء على جزء من واقع المجتمع الجزائري، وتحديدا ضمن فئة الشباب.

بناء إطار تحليلي، عابر للتخصصات، يكون بمثابة لبنة أولى نحونظرية تفسيرية سوسيولوجية كلية.

إبراز أثر الفواعل الداخلية والخارجية في تشكيل الذات الجزائرية.

وضع حلول واستراتيجيات فعالة تساعد في تشكيل بنية داعمة للإصلاح الاجتماعي.

إيجاد فضاء للنقاش الجاد والحر حول القضايا الراهنة، ولتفعيل شبكة العلاقات الاجتماعية بين الشباب المهتم بالمجال الثقافي.

التدرب على الكتابة البحثية المنهجية كتكوين مكمل لرسالة حلقات القراءة.

المحاور:

الفرد والعزوف عن الشأن الفكري:

تندرج ضمنها المداخلات التالية:

النموذج الإصلاحي الحياتي: بين ضرورة الوجود وموانع التحقق.

المراهقة كمرحلة مهملة، محاولة لفهم الخصوصية وظاهرة التسرب.

الثقافة المجتمعية وبناء الحاجز الذهني:

تندرج ضمنها المداخلات التالية:

الاعتـزال الطوعـي للمسـؤولية عنـد الشـباب الجزائـري: مقاربـة حـول محفـزات المـزاج العبثـي ومشـاكل الواقـع الجزائـري.

ظاهرة المجتمعات الشفوية ودور الكتابة في الشأن الفكري.

الثقافة الإعلامية التواصلية وتنميط الذات:

تندرج ضمنه المداخلات التالية :

الإدمـان وتأثيراتـه علـى القـدرات الذهنيـة للفـرد: مواقع التواصـل الاجتماعي والإباحيـة نموذجا.

الاهتمـام بالشـأن الفكـري والصناعـة الإعلاميـة: مقاربـة حـول الإعـلام الرقمـي وهندسـة الجمهـور.

الإنسان الاقتصادي وتحجيم الاهتمام المتسامي:

تندرج ضمنه المداخلة التالية:

الإنسان الهامشي كمنتج للرأسمالية المعاصرة.

الجماعـة والشـأن الفكـري؛ جدليـة الحضـور والغيـاب: تنـدرج ضمنـه المداخـلات التاليـة:

عـزوف الشـباب عـن الشـأن الفكـري فـي ضـوء إشـكالية النخبـة في الجزائر.

الحـركات الإسـلامية والشـأن الفكـري، مقاربـة للجـدل القائـم بيـن منطـق العمـل ومنطـق الفكـرة: شـباب حمـس نمـوذج .

تنويـه: ينـدرج الملتقـى فـي إطـار مبـادرة «مجالـس» والتـي تهـدف إلـى أن تصبـح تقليـدا سـنوياً يمكـن شـباب حلقـات القـراءة مـن إيجـاد فضـاء للتـدرب علـى البحـث العلمـي الرصيـن وعلـى النقـاش الفكـري المثمـر حـول مختلـف قضايـا المجتمـع الجزائـري.

المحاضرة الإفتتاحية للطبعة الأولى من ملتقى مجالس

تقديم د.جمال الدين بومحمد

ضيوفنا الكرام، زملاءنا في حلقات المطالعة، الحضور الكريم، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

شعور غريب ينتاب المرء حين يرى فكرة كانت تراود الذهن تتجسد وتتمثل أمام عينيه وأمام حضوركم الكريم

بدأت فكرة مجالس انطلاقًا من جلسات القراءة، جلسات كنا نقيمها غير بعيد من هنا على مدرجات إسمنتية في كلية الطب، جلسات نقيمها من غير اعتماد ولا ترخيص، فالفعل الثقافي في رأينا لا يحتاج أن يحتج بأي مبررات بيروقراطية

لاحظنا جميعًا الآثار المعرفية لتلك الجلسات على الطالب الذي داوم على الحضور لهذا الفضاء الثقافي المفتوح كما نتصوره وكما نحاول تجسيده، فضاء يغيب فيه التراتبية ويحاول فيه الطلبة أن يقتربوا من فهم الواقع. إضافة إلى أثرها المعرفي الواضح، فلتلك الجلسات أثر سلوكي؛ فهي تعلم المرء الإنصات وتقبل الرأي الآخر وحسن الاستماع وحسن الإلقاء. إضافة إلى ذلك، يراكم فيها المرء تجارب وخبرات تنظيمية، وما هذا الملتقى إلا ثمرة من ثمرات تجارب تراكمت وعلاقات شُيدت

إلا أنه لابد للمرء أن يدرك حدود ما يفعله حتى لا تكون المبادرات تسقيفًا للطموح واستنزافًا للجهود. فعلى إيجابياتها التي ذكرنا، تبقى حلقات المطالعة كوسيلة تكوين فكري محدودة، فهي نقاش شفوي يحاول الدخول وامتلاك مفاتيح الولوج إلى المواضيع. ونحن نعلم أنه هنالك دوما حاجة إلى قراءة متفحصة أعمق وإلى جهد أكبر يُبذل في سبيل ذلك. ولكن السؤال الذي طرحناه هو: كيف السبيل إلى تلبية تلك الحاجة مع الحفاظ على روح تلك المبادرات الحرة التي نقيمها والتي نؤمن أنها مساحة للخطأ، ومساحة للتعلم، ومساحة نحاول أن تغيب فيها الصنمية التنظيمية والدعاية الأيديولوجية وظواهر مثل حب الظهور؟

مـن أجـل ذلـك، وباسـتقراء بسـيط، أدركنـا أن الوسـائل التقليديـة مثـل المحاضـرات والنشـاطات التربويـة علـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي لـم تحقـق تلـك النقلـة. فكانـت فكـرة «مجالـس»، وهـي فكـرة نحـاول مـن خلالهـا، بالإضافـة إلـى تضافـر جهـود زملاء لنـا مـن ولايـات أخـرى يقومـون بمـا نقـوم بـه، أي تشـكيل فضـاء حـر مـن أجـل القـراءة والتفاعـل. نحـاول مـن خلال هـذه المبـادرة أن تنتظـم الجهـود البحثيـة وأن يتعلـم المـرء ويتـدرب علـى الخطـاب المكتـوب الجـاد وعلـى القـراءة الفاحصـة المتأنيـة بغيـة تحقيـق نقلـة معرفيـة تمكنـه مـن إدراك أعمـق للواقـع. وكان التحـدي الثانـي فـي هـذا البـاب هـو اختيـار الموضـوع، خاصـة فـي الطبعـة الأولـى، ولأننـا نؤمـن أن الفكـرة والثقافـة لابـد أن يرتبطـا بالواقـع، فلـن تجـد أفضـل مـن الواقـع الـذي انطلقنـا منـه، أي مـن حلقـات القـراءة حتـى نبـدأ منهـا فـي محاولـة فهمـه وتفكيكـه

علاوة علـى ذلـك، تعتبـر حلقـات المطالعـة بالنسـبة لمـن يرتادهـا ويواظـب عليهـا مختبـرًا ومكانًـا للملاحظـة السوسـيولوجية الدقيقـة، إذ يتمكـن المـرء فيهـا مـن ملاحظـة المعرفـة بالتفصيـل؛ يعنـي مـا هـي القـراءة الرائجـة بيـن الشـباب؟ كيـف يتقبـل الشـباب هـذه القـراءات؟ كيـف يتـم التغييـر الفكـري الـذي يتـم عـادة بوتيـرة بطيئـة وبسـيطة؟

ومـن الظواهـر الملاحظـة شـيوع القـراءة الترفيهيـة واسـتبطان مفاهيـم مغلوطـة حـول الثقافـة باعتبارهـا مراكمـة للمعلومـة وتنميقًـا للمصطلحـات، مقابـل عـزوف نشـهده عنـد الشـباب الجزائـري عـن الشـأن الفكـري، والفـرق بيـن الشـأن الفكـري كنمـط عيـش يجـب أن يصاحـب المـرء تجاربـه الحياتيـة بقـراءة دقيقـة وباسـتصحاب تفكيـر نقـدي مـع تجاربـه الحياتيـة

فـكان لابـد مـن التفريـق بيـن الشـأن الفكـري كنمـط عيـش ورسـالة حيـاة وبيـن احترافيـة الثقافـة واتخاذهـا كوسـيلة للترقيـة الاجتماعيـة والهـوس بالنشـر الأكاديمـي وفـق طقـوس ومعاييـر شـكلية تجعـل كل غايتهـا ومنتهاهـا كلام منمـق بمصطلحـات غريبـة، وبيـن اعتبـار الـكلام فـي الأفـكار والفلسـفات تقليعة تمنـح صاحبهـا مظهـر المثقـف، وبيـن تصييـر الـكلام حـول الكتـب ومضامينهـا محتـوى يُتـداول لتحقيـق الفرجـة والتسـلية

ولا يمكن للقراءة في المجال الفكري أن تكون شرطًا كافيًا للاطلاع بالشأن الفكري. فبسبب ضخامة الإنتاج الفكري الإنساني تجد أنه إذا اعتمد المرء كليًا على قراءة التراث البحثي كأنه ليس عضوًا فيه، سواء كان ذلك عن طريق مطالعة الكتب والصحف أو المجلات العلمية أو البحث عبر الإنترنت وغير ذلك من الأساليب التي من شأنها أن توسع قنوات البحث بدلًا من تركيزها، فقد لا يجعله يصل إلى رأس المال الحقيقي

المطالعة الفكرية لابد لها من مهارات منهجية وتحليلية، والتي عادة ما تكون ضمنية غير رسمية ولا تنتقل إلا من خلال التواصل الشخصي المباشر. وهنا نستحضر مقولة «راندال كولينز» في كتاب «علم اجتماع الفلسفات»: «المرء يحتاج إلى ميزة أن يكون كائنًا اجتماعيًا مرتبطًا بالجوهر أو بالشبكة المركزية». وهو ما يحيلنا إلى أهمية شبكة العلاقات، بتعبير مالك بن نبي، في تحقيق الاهتمام بالشأن الفكري. فالعزوف بهذا المعنى يشمل الجانب القرائي من جهة، والجانب الاجتماعي والحواري من جهة أخرى

من أجل ذلك، كان التصور في مبادرة «مجالس» أن يرافق ذلك البحث أساتذتنا الأفاضل لنستفيد من خبرتهم ومن تعقيبهم ومن ملاحظاتهم في اجتهاداتنا البحثية المتواضعة. ولأن هذه الظاهرة كان لابد من تفكيكها وتقسيمها إلى محاور عديدة، اجتهد بعض الزملاء في تحرير مداخلات ومقالات، وهو ما سيعرض في هذا الملتقى بحول الله

وفي الأخير، لابد أن ننوه بأن هذه المبادرة في أصلها مبادرة تعليمية؛ أي أنها مساحة للخطأ وفضاء للتعلم قبل كل شيء. ولا نزعم أننا بصدد تقديم محتوى علمي دقيق ولا أننا نمتلك ناصية الفكر والحس النقدي بقدر ما نزعم بأننا نحاول التعلم والخوض في هذا المجال لإيماننا بأهميته ولفتح فضاءات جديدة تضاف إلى الفضاءات الحرة المتاحة

الأوراق البحثية

النموذج الإصلاحي الحياتي:
بين ضرورة الوجود وموانع التحقق

محمد نور الإسلام بن عباس

مقدمة

يرتبط موضوع الإصلاح في جانب أساسي منه بموضوع الفرد، ومن ثم التنشئة التي يولد ويعيش في إطارها، ثم المحيط الخارجي المحلي والدولي الذي يؤثر فيه بنسب متباينة، وفي إطار كل هذه العلائق وجب دراسة كيفية تشكل الهوية الذاتية، من الناحية الوصفية، ثم من الناحية التقويمية التعديلية، من خلال التفكير في سبل تكوين رواية قبلية تحدد للفرد المصلح مسارات حياته، وهو ما نحاول فعله، عبر صك مفهوم «النموذج الإصلاحي الحياتي»

على أن هدف الدراسة لايتجاوز في اللحظة الحالية مجرد تحديد المفهوم وأبعاده التكوينية، ثم دراسة البنيات المعاصرة، التي تكبح عملية البناء القبلي لمسار الحياة

وعليه، وانطلاقا مما سبق؛ حق لنا التساؤل : ماذا نقصد بالنموذج الإصلاحي الحياتي، وماهي أبعاده المفاهيمية، ثم كيف تحاول البنيات النفسية والاجتماعية والعولمية كبحه، ووأد عملية تكوين الذاتيات المتجاوزة لمجرد طلب الحياة القانعة؟

في المفهوم

نقصد بمفهوم «النموذج الغائي الحياتي» مجموعة التصورات المحددة لرؤية الإنسان للعالم، والتي تترجم في شكل « مسار للحياة»، بهذا المعنى فهوخطة متصورة، تخيلية (لاخيالية) لنمط الحياة بما يشمله ذلك من مجموعة متكاملة إلى حد ما من الممارسات التي يتبناها الفرد، ليس فقط لأن مثل هذه الممارسات تلبي الاحتياجات النفعية، ولكن لأنها تعطي شكلاً ماديًا (واقعي) متساميًا لسرد معين للهوية الذاتية، وبالتالي يضفي النموذج نوعًا من التماسك التي يمكن العثور عليه في سلوك الناس

وهذا التماسك ينتج من جهة أخرى عن نوع من البنية العقلية العامة، وهذا قريب من مفهوم «قطاع نمط الحياة» الذي تحدث عنه غيدينز، والذي يعرفه بكونه «شريحة من الفضاء الزمني للأنشطة العامة للفرد، والتي يتم فيها تبني وتنفيذ مجموعة متسقة ومنظمة بشكل معقول من الممارسات» [1]، فإذا أراد الشخص الحفاظ على مستوى معين من المصداقية، سواء بالنسبة له أو للآخرين، فسيصبح من الضروري وجود تماسك معين في نمط الحياة ومستوى معين من تكامل الإجراءات في جميع الممارسات المختلفة.

كما يحمل «النموذج الغائي الإصلاحي» أبعادًا مفهومية عدة، أساسها:

تحقيق التكاملية: نقصد هنا أن النموذج يسعى إلى التطابق مع تصور مسبق يحدده الشخص، بناء على سلم أولوياته، فقد يكون التطابق هنا مع مرجعية فلسفية معينة، يسعى الفرد إلى تشكيل مسار حياته بناءً على ضوابطها وقواعدها ووعودها وعبر مساحات المعنى التي توفرها

الغائية والتجاوزية: فوفق هذا النموذج لا يسعى الفرد إلى تحقيق غاياته البيولوجية الخاصة فقط، ولا يجعل من إشباع اللذات سقفا لطموحه، بل يسعى إلى انتاج مجموعة من الغايات المتجاوزة للذات، والمتجاوزة في الوقت عينه لحدود «الإنسانية القانعة» أي متطلبات الإنسان-الحيوان.

الإصلاحية: يسعى النموذج، وفي إطار العلاقة مع البعدين السابقين، ونتيجة لهما، إلى بناء شخصية إصلاحية، لا تحصر نفسها في حيز الذات، بل تسعى إلى تجاوز وتفكيك مقولات الفردنة، سعيًا نحوتمديد الفعل الإصلاحي وتوسيع دائرته، على حسب مجال اشتغال الفرد، وعلى حسب قدرته.

الرغبوية: أي أنه لا يصف نموذجًا موجودا في الواقع (وقد يوجد) ولكنه يسعى إلى بناء نموذج تربوي أخلاقي، يُسعى إلى تحقيقه، ويُسعى

1 . ينظر : Giddens، A. (1991) Modernity and self-identity: self and society in the late modern age، Cambridge: Polity Press

إلـى تشـكيل الـذوات علـى صورتـه

الالتـزام: بمفهومـه الفلسـفي، وبمـا يقتضيـه مـن الغيريـة، والإرتبـاط بالآخر، والإنتمـاء لمجتمـع مـا، بالمفهـوم المـزدوج للإنتمـاء: انتمـاء الثقافـة المشـتركة، وانتمـاء الهـم المشـترك، فالمصلـح هنـا هـو نقيـض : اللامنتمـي

التفكيـر النقـدي ومنطـق الفعـل: يعتبـر التفكيـر النقـدي شـرطًا ضروريـا لا غنـى عنـه لـكل مصلـح، إذ بدونـه يتحـول إلـى مجـرد شـعبوي ديماغوجـي يخـدع الجماهيـر بخطابـات عاطفيـة رنانـة، وإن كان التفكيـر النقـدي يحتـاج إلـى تكويـن معرفـي سـابق، فإنـه يحتـاج بعـد ذلـك إلـى اكتسـاب النقـد كملكـة تحصـل بالتدريـب والتعليـم الفعـال، علـى أن الكـم المعرفـي والعقـل النقـدي ليسـا الغايـة، فالغايـة مـن المعرفـة والتفكيـر فـي النهايـة هـي العمـل، أي الفعـل التغييري ذاته.

يسـعى النمـوذج إلـى دمـج التصـورات المعرفيـة والمسـتخلصة مـن المرجعيـات الثقافيـة والمعرفيـة مـع الممارسـات الاجتماعيـة لتشـكيل «القصـة» التـي تسـتبطنها الـذات عـن نفسـها.

وبالنظـر إلـى السـياقات الاقتصاديـة والاجتماعيـة المعاصـرة، فـإن مرحلـة الطفولـة المتأخـرة، ثـم مرحلـة البلـوغ الأولـى (المراهقـة)، هـي المرحلـة الأساسـية التـي يجـب أن يكـوّن فيهـا الفـرد روايتـه الخاصـة عـن حياتـه، أي نموذجـه الحياتـي الإصلاحـي (مـع إمكانيـة تعديلـه باسـتمرار علـى حسـب ظروفـه الخاصـة وعلـى حسـب قدرتـه علـى مقاومـة الحتميـات الخارجيـة)... وكمـا تشـير أدبيـات التحليـل النفسـي المتأخـرة (وإن كانـت بدايتهـا الأولـى مـع أدلـر) فـإن الأفـراد يقومـون بتطويـر نمـط حياتهـم، والـذي هوذاتـه أسـلوب الشـخصية فـي السـنوات الأولـى مـن الحيـاة، بحيـث ينتهـي بهـم الأمـر إلـى تحديـد نظـام حكـم يوجـه أفعالهـم طـوال حياتهـم بنـاء علـى التصـور الأولـي.

كمـا وتجمـع الكثيـر مـن الأبحـاث فـي مختلـف العلـوم الاجتماعيـة علـى أهميـة التقليـد ومركزيتـه فـي تشـكيل الهويـة ومتعلقاتهـا فـي مرحلـة الطفولـة

المتأخرة ومرحلة البلوغ الأولى (المراهقة) فالناس يتبنون «مخططات حياة محددة»، أي موجودة سابقًا، وتمتلك شرعية إجتماعية.[2]

عندما يدخل النموذج الحياتي الإصلاحي الواقع الفعلي، فإنه يصبح في صراع مع البنيات النفسية والاجتماعية والسياسية الموجودة بالفعل، والتي تعمل إما على تعضيده وتحويله من الوجود بالقوة إلى بالفعل، أوتعمل على وأده ومنعه من التحقق الفعلي.

ذلك أن الذات هي في المحصلة مزيج من الذات المتخيلة/المتصورة (الذات المثالية - الشخص الذي نود أن نكونه أونصبح عليه) والذات الاجتماعية (البنيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية...)، بحيث تتفاوض الصورة المثالية للذات مع الواقع الفعلي لتشكيل الذات الفعلية (حاصل ضرب الذات المثالية والأنا الاجتماعي مع فعالية الفرد في التوفيق بينهما أوتغليب أحدهما على الآخر) وتتعرض المعادلة للكثير من التغيرات على حسب المدخلات ونتائج التفاعلات الاجتماعية وتأثيراتها بحسب القوة والضعف.

في كتابهما الصادر عام 1991 بعنوان «الشخص والموقف»[3]، أوضح روس ونيسبت مبدأ « قوة الموقف» الذي يقدم مقاربة تفسيرية جيدة لعلاقة الذات بالسياق، فحسبهما غالبًا ما يُحدث متغير الموقف تأثيرا كبيرًا في عملية تشكيل الذات، بحيث يجعل المتغيرات الأخرى والمعلومات حول

2 . في كتابه عرض الذات في الحياة اليومية يركز غوفمان على أثر المجتمع في تشكيل الذات، إذ يعتبر الواجهة الاجتماعية وكأنها نص. تميل بعض النصوص الاجتماعية إلى أن تصبح مؤسسية من حيث التوقعات النمطية التي تحتويها. تحتوي بعض المواقف أوالسيناريوهات على نصوص اجتماعية تقترح كيف يجب أن يتصرف الفرد أويتفاعل في هذا الموقف. إذا تولى الفرد مهمة أودورًا جديدًا بالنسبة له، فقد يجد أن هناك بالفعل العديد من الجبهات الراسخة التي يجب عليه الاختيار من بينها. وفقًا لجوفمان، عندما يتم إعطاء مهمة ما واجهة أونص جديد، نادرًا ما نجد أن النص نفسه جديد تمامًا. يستخدم الأفراد عادةً نصوصًا مسبقة الإعداد لمتابعة المواقف الجديدة ، حتى لولم تكن مناسبة تمامًا أومرغوبة لهذا الموقف

3 . The Person and the Situation: Perspectives of Social Psychology
(2011 ،Pinter & Martin; 2nd edition (August 1 ،Lee Ross ،Richard E. Nisbett

السمات والاختلافات الفردية التي يعتقد البعض أنها مهمة غير ذات أهمية، وعلى الرغم من التطرف النسبي في هذا الموقف، وعلى الرغم من إنكاره للعديد من التجارب التاريخية التي تؤكد على قوة السمات الشخصية، فإن المتأمل في الواقع الاجتماعي، المحلي والعالمي يدرك قوة البنيات الإكراهية التي تتحكم في عملية تشكيل الذوات، أوإخراج نماذج محددة من السمات دون أخرى

ولعل دراسات الطاعة التي أجراها ميلجرام، والتي كشفت أن الضغط الظرفي يمكن أن يدفع الناس العاديين إلى ممارسة السلوكيات الوحشية ؛ ودراسة سجن ستانفورد، التي أجراها زيمباردووالتي أظهرت أنه يمكن بناء بيئة عمل فنية من شأنها أن تحفز طلاب الجامعات على التصرف مثل السجناء والحراس المجسمين، تثبت قدرة السمات على التلاعب بسمات ظرفية مختلفة بطرق مختلفة، وتوضح قوة المواقف في إنتاج تغييرات جذرية في السلوك.

كانت السمتان الرئيسيتان لحالة ميلجرام القياسية هما هالة الشرعية العلمية التي تم إجراء البحث فيها، ومطالب المجرب التي لا تلين في أن يستمر المشارك في تقديم صدمات خطيرة بشكل متزايد. هذا الموقف يمنح المشارك خيارين سلوكيين على الأقل: الانصياع أوالمقاومة

نتائج التجربة (بغض النظر عن الانتقادات التي وجهت للدراسة) تقدم مقاربة متوازنة لدراسة العلاقة بين الموقف/البنية وبين الفاعلية الذاتية الشخصية، حيث ونتيجة لضغط البنية انصاع 60% من المشاركين للأوامر، فيما رفض 40% من المشاركين الاستمرار فيها (لا بد من استحضار واقعة الألم ودورها في رفض الانصياع للسلطة، وما مايجعل احتمال انخفاض النسبة في ظل عدم وجود واقعة الألم ممكنًا) وبالتالي فإن تفاعل المشارك مع سلطة مهيمنة ينشط بعض الدوافع والأهداف المرتبطة بالفعل (على سبيل المثال، لإرضاء المجرب، لتجنب إلحاق الأذى بالمتعلم، أوأداء دوره كمشارك تجريبي)، أومنحه فرصة للاختيار بين الخيارين

السلوكيين للطاعة أوالمقاومة. تساهم كل من عوامل الموقف والشخص في هذا التحليل السببي

وكنتيجة مؤقتة يمكننا أن نقول بأن تأثير البنية/الموقف قوي، لكن قوته نسبية، فيمكن للسمات/الفاعلية الذاتية مقاومته، ولكن هنالك حدود معينة لتلك المقاومة، فالموقف يتيح للفرد الاختيار ضمن عدد محدود من الاختيارات الممكنة ضمن حدود الموقف،ويترتب على هذا المنطق أن المواقف لا تسمح إلا بإمكانيات معينة، والبعض الآخر مستحيل

كما أن مشاركة الفرد وانخراطه في مجموعات معينة من المراسيم الثقافية يشكل لديه مجموعة مترابطة من الميول المتبقية بحيث تبدوالتصرفات «الشخصية» بدلاً من ذلك شكلاً من أشكال السياق الشخصي، أي آثار تفاعل الشخص مع الهياكل البيئية للعقل التي تعيد باستمرار تشكيل طرق الشخص المعتادة في النظر إلى العالم والتفاعل معه، ولتوسيع فكرة التأويل الذاتي، يشير الجانب الآخر من علاقة الموقف إلى التكوين النفسي للعوالم الثقافية، فلا توجد العوالم الثقافية بمعزل عن عمل الإنسان، بدلاً من ذلك، عندما يتصرف الناس بناءً على تفسيرات ذاتية، فإن سلوكهم يترك آثارًا تتجلى في حقائق موضوعية (الطبعنة) لإنشاء شكل من أشكال الذاتيات ضمن السياق: التركيبات اليومية للواقع التي تتحمل تأثير النشاط الشخصي/الذاتي

الاختلاف المعياري إذن بين الذات والموقف ليس نتاجًا للتلقين الواعي في أنظمة القيم المختلفة بقدر ما ينشأ بطريقة تصاعدية حيث يشارك الناس بشكل متكرر في الواقع اليومي - (الأفعال التي تثير أوتشكل عادات نفسية / العادة)، والتي تشير إلى النقش المباشر لمراسيم الثقافة على الأنماط الاعتيادية للعاطفة، والإدراك، والدافع، والوجود في العالم. توفر هذه الفكرة بديلاً مفيدًا للفهم السائد للتأثيرات الاجتماعية والثقافية على الذات.

توسع فكرة الهابيتوس عند بورديوهذا التحرك المفاهيمي إلى ما وراء

المعرفة الواعية نسبيًا، للتأكيد على العمليات غير الواعية للتنظيم عبر المطبوعات الضمنية المضمنة في بنية العالم الثقافي اليومي، من هذا المنظور، فإن الميول التي ربطها علماء النفس النفسيون بأنواع مختلفة من التأويل الذاتي ليست سمات أساسية للذات المستقلة أوالمترابطة، ولكنها بدلاً من ذلك تعكس الانخراط الروتيني مع الطرق الذاتية المنقوشة اجتماعيا، والتي تعيد تشكيل تلك الميول باستمرار

ومجددا لا ينكر هذا وجود مزاجات أونزعات وراثية أوسمات خاصة تختلف باختلاف الأفراد، لكنه تمامًا كما تتطلب القدرات الموروثة وراثيًا مدخلات تكميلية من المدخلات الثقافية لإنتاج مهارات نمطية لكائنات بشرية ثقافية يمكن التعرف عليها، فإن محتوى قصص الهوية من بين أهم التجليات الثقافية والتي هي موارد قصص الحياة التي تشكل الهوية الشخصية.

ما يهم للتضمين في قصة هوية الفرد (الهويات القبلية مثل الجنس، والعرق، والنسب، والطبقة، والفئة العمرية، أوهويات الدور مثل الأخ، والوالد، والطفل... تعتمد على العالم الثقافي الذي يسكنه المرء

تختلف النطاقات الثقافية ليس فقط في حضور هذه الهويات ومحتواها، ولكن أيضًا في مدى عملها كروابط رئيسية: الهياكل التي تنظم التجربة الذاتية عبر مجموعة واسعة من المواقف. على سبيل المثال : أحد أهم الاختلافات في تخيل مسار الحياة يتعلق «بمغادرة المنزل». في كثير من النطاقات الثقافية (الغربية خاصة) فإن التوقع هوأن يغادر الشخص منزل الأسرة لبدء حياة مستقلة في مكان جديد بعد فترة وجيزة من بلوغ سن الرشد، لكن هذا المسار/المسلك الذي يقدم بوصفه المسار الطبيعي الممكن الوحيد للحياة الاجتماعية الصحية يمكن أن يتناقض مع الوضع في العديد من المجتمعات غير الغربية، حيث يكون التوقع هواستمرار العلاقة الرابطة بين الفرد وعائلته زمانيا ومكانيا (في الكثير من الأحيان يقضي

الفرد العمر في نفس المسكن أوبالقرب منه).

تؤثر البيئات الثقافية المختلفة أيضًا على عملية تنظيم قوائم الهوية، تتمثل إحدى أهم وظائف قصص الهوية في دمج أوتجريد تجربة التماثل أوالجوهر الوحدوي من العروض المختلفة للفرد أوالعروض التقديمية للذات عبر الزمن

تجربة الهوية الشخصية ليست الكشف والتعبير عن بعض الجوهر الأصيل الأساسي، ولكنها بدلاً من ذلك بناء اجتماعي ثقافي، أي نتاج المراسيم الثقافية التي تسمح بالتجريد والتكامل للهوية عبر المواقف، وهوما يسمح بسد الفجوة المفاهيمية بين التصرفات الشخصية المجسدة والبنى الثقافية البيئية التي تعمل باستمرار على ضبط تلك التصرفات.

من هذا المنظور، فإن الهياكل البيئية لا تعمل فقط على تعديل اتجاه التصرفات الموجودة مسبقًا؛ بل إن تاريخ المشاركة مع هياكل سياقية معينة يعيد تشكيل ضوابط التأثير والتحفيز والإدراك باستمرار، وبدلاً من التركيز على السمات الأساسية المتجسدة بعمق، نحاول هنا تسليط الضوء على المدى الذي تكون فيه للتصرفات الشخصية آثارًا مجسدة بشكل خفيف في مانسميه ب «السياق الشخصي»: أي تجلي مكتسب ناتج عن تاريخ من الانخراط في المراسيم السياقية، في شكل خبرة مضمنة في هيكل العوالم الذاتية الثقافية الخاصة

الانفصال بين النضج والمسؤولية

يشكل الناس حياتهم وفقًا لتصوراتهم الخاصة، والتي تتأثر بالثقافة ونظام المعتقدات وعملية التنشئة الاجتماعية التي مروا بها منذ الطفولة، كما وتعكس اللغة قيم وقواعد المجتمع الذي نعيش فيه، والتي تختلف بين المجتمعات في جميع أنحاء العالم، وكما يرى التفاعليون، فإن التفاعلات الرمزية تؤثر في المجتمع على مستوى نطاقات وأشكال بناء الواقع، وإذا

عرفنا الذات على أنها الهوية المميزة التي تفصل الناس عن بعضهم البعض، مما يجعل كل شخص فريدًا، فإن الذات تتغير باستمرار وفقًا للتجارب التي يمر بها المرء طوال حياته، على حسب الدور المنوط به

في عام 1966، وفي كتابهما «البناء الاجتماعي للواقع[4]، جادل كل من بيتر بيرجر وتوماس لوكمان بأن المجتمع يتم إنشاؤه من قبل البشر وبواسطة التفاعل البشري، وعبر فكرة (التعود)»، يصف التعود كيف «أن أي إجراء يتكرر بشكل مستمر متشكلا في نمط يمكن بعد ذلك القيام به مرة أخرى في المستقبل بنفس الطريقة وبنفس الجهد الاقتصادي»، فنحن حسبهما لا نقوم فقط ببناء مجتمعنا الخاص (ونتحدث هنا عن المجتمع الثقافي) ولكننا نقبله كما هو لأن الآخرين قد خلقوه قبلنا، المجتمع في الواقع لا يزيد عن «العادة»

على سبيل المثال، توجد مدرستك كمدرسة وليس كمبنى فقط لأنك أنت والآخرين تتفقون على أنها مدرسة، إذا كانت مدرستك أقدم منك، فقد تم إنشاؤها بموافقة الآخرين من قبلك، بمعنى ما، إنها موجودة بتوافق الآراء، سابقًا وحاليًا، وهذا مثال على عملية إضفاء الطابع المؤسسي على البنى، وهذا لا ينفي وجودها الواقعي، حيث أن المؤسسة، على الرغم من بنائها الاجتماعي، لا تزال حقيقية تمامًا، أي لها وجود واقعي ملموس، لكن ذلك الوجود بارد/مجوف/مادي منزوع المعنى، أما المعنى فهو عملية لاحقة يضفيها الفرد/المجتمع على الواقع

وسع توماس ويليامز الفكرة أكثر عندما أكد أن المعنى يمكنه تحويل تلك الموجودات المادية إلى ذوات تدرك نفسها المشكّلة بوصفها متماثلة مع التصور المبني، خاصة عندما يتم طبعنتها بواسطة الثقافة والعادة، عندها يمكن تحديد سلوك الناس من خلال البناء الذاتي للواقع بدلاً من الواقع الموضوعي، على سبيل المثال، الشاب الذي يتم منحه مرارًا وتكرارًا

4. The Social Construction of Reality: A Treatise in the Sociology of Knowledge (1967)، Thomas Luckmann، Peter L. Berger

مجموعة من الصفات المحددة (كالتفوق مثلا) فإنه يحتمل أن يصبح متفوقًا نتيجة هذا البناء حتى لو لم يكن كذلك قبله

وهنا يتفق ويليامز مع بيرجر ولوكمان في قولهما بأن قواعدنا الأخلاقية وأعرافنا الاجتماعية يتم إنشاؤها من خلال «التعريفات المتتالية للموقف». يمضي ميرتون أكثر في هذا المنحى من خلال فكرته حول «النبوءة التي تحقق ذاتها»، والذي يقصد بها أنه حتى الفكرة الخاطئة يمكن أن تصبح صحيحة إذا تم التصرف بناءً على صحتها، أحد الأمثلة التي يقدمها هومثال « إدارة البنك». لنفترض لسبب ما أن عددًا من الأشخاص يخشون خطأً أن بنكهم على وشك الإفلاس قريبًا، بسبب هذه الفكرة الخاطئة، يهرع الناس إلى بنكهم ويطلبون كل نقودهم دفعة واحدة. نظرًا لأن البنوك نادرًا ما يكون لديها هذا القدر الكبير من المال في متناول اليد، فإن أموال البنك تنفذ بالفعل، مما يحقق نبوءة العملاء هنا، يتم بناء الواقع من خلال فكرة

يعتبر مفهوم المراهقة[5]نموذجًا جيدًا يمكننا من فهم فكرة البناء الاجتماعي للواقع، وفهم خطرها في وأد أي إمكانية لظهور « النموذج الإصلاحي الحياتي»

ظهر مصطلح «adolescence» لأول مرة في اللغة الفرنسية في القرن الخامس عشر ككلمة مشتقة من المصطلح اللاتيني «Teenager» والذي يعني «الشخص الذي ينمو»، وفي القرن الثامن عشر لم تكن هناك فكرة عما نسميه المراهقة اليوم، وسوف يستغرق تشكيل هذه الفكرة وقتًا طويلاً، ابتداءً مع ظهور علم النفس المراهقة التجريبي عندما نشر ستانلي هول في عام 1904 دراسته المعنونة ب «المراهقة وعلم النفس»، حيث حاول تحليل هذه المرحلة التنموية الجديدة التي حدثت بسبب التغيرات

5 . هنالك خلاف علمي عابر للتخصصات في تحديد النطاق الزمني للمراهقة، لكنني اختار هنا التقسيم التالي: المراهقة المبكرة (من 10 إلى 12 عامًا) ، والمراهقة المتوسطة (من 13 إلى 15 عامًا) ، والمراهقة المتأخرة (من 16 إلى 18 عامًا) ، وصغار البالغين (من 19 إلى 25 نظرا لتوافقها مع تشكيل الذوات المعاصر للمراهق

الاجتماعيـة فـي مطلـع القـرن العشـرين، تحـت تأثيـر قوانيـن عمالـة الأطفـال والتعليـم الشـامل. كان الشـباب حسـبه قـد مـروا بأوقـات جديـدة فـي سـنوات المراهقـة عندمـا لـم تُفـرض عليهـم مسـؤوليات مرحلـة البلـوغ بالسـرعة التـي كانـت عليهـا فـي الماضـي.[6]

فـي عـام 1962، نشـر بيتـر بلـوس كتابًـا بعنوان«فـي سـن المراهقـة»، وصفـت نظرياتـه الصراعـات عنـد المراهقيـن بيـن الرغبـة فـي التحـرر مـن والديهـم والرغبـة فـي البقـاء تابعيـن فـي الوقـت عينـه

كمـا قـام بتعميـم فكـرة وجـود مرحلتيـن فـي النموالبشـري، الأولـى تحـدث عندمـا يكـون المـرء طـفلًا صغيـرًا، والثانيـة تحـدث عندمـا يكـون المراهـق قـادرًا فـي النهايـة علـى التخلـص مـن التبعيـة العائليـة

بمـا أن النضـج يعتمـد علـى تحقيـق درجـة مـن الاسـتقلالية، فإنـه خلال فتـرة المراهقـة تتطور«الـذات»، سـعيًا نحوالهـدف، وهـوأن يكـون الفـرد مسـتقلاً وأن يكتشـف السـمات الفريـدة للفـرد وتحتفـي بهـا بينمـا يطـور المـرء إمكاناته المميزة.

مـن المهـم أن نلاحـظ أنـه فـي العديـد مـن المجتمعـات الأخـرى (فـي مرحلـة ماقبـل العولمـة) لا يتـم الاعتـراف بالمراهقـة كمرحلـة مـن مراحـل الحيـاة، بـدلاً مـن ذلـك، هنـاك فـرق بيـن الطفولـة والبلـوغ، مـع وجـود طقـوس مهمـة حـول هـذا التحـول. قـد تكـون مـدة هـذه الطقـوس بضعـة أيـام فقـط، بينمـا فـي الولايـات المتحـدة، غالبًـا مـا تسـتمر فتـرة المراهقـة لأكثـر مـن عقـد. علـى الرغـم مـن وجـود تأكيـدات واحتفـالات حـول الحصـول علـى رخصـة القيـادة أوالتخـرج مـن المدرسـة الثانويـة، إلا أن المراهقيـن فـي الغـرب عمومـا (وكل

6 . ترجع المعلومات الواردة حول تاريخ فكرة المراهقة إلى المراجه التالية :

JOHN DEMOS AND VIRGINIA DEMOS - SPECIALSECTION:HISTORY OF THE FAMIL

Irving D . Harris ~ and Kenneth I. H o w a r d - Parental Criticism and the Adolescent Experience

Joseph F. Kett- Reflections on the history of adolescence in America

العالم بعد العولمة) غالبًا ما يفتقرون إلى علامات الطريق الرسمية في طريقهم إلى سن الرشد

أدت رؤية عوامل الخطر هذه من بين العديد من العوامل الأخرى إلى تغذية الاعتقاد السائد في المجتمع الغربي بأن المراهقين «محطمون» بسبب عجز كبير ويحتاجون إلى«إصلاح» لكي يصبحوا مكتفين ذاتيًا ومستقلين. أدت السبعينيات أيضًا إلى زيادة التركيز على السياق الثقافي والاختلافات بين الجنسين وفهمهما. شكلت المقاربات الجديدة تعريفات أوسع لما يعنيه تطوير الهوية والشعور بالذات في مرحلة المراهقة (يمكننا هنا الإشارة إلى أطروحات فرويد ومدرسته وروجرز ومدرسته) تتبنى جميع النظريات، بدرجات متفاوتة، فكرة أن الوصول إلى مرحلة البلوغ يمر بالضرورة بفترة أزمة تتسم بالاضطرابات والمواجهات، ومع ذلك، ابتداءً من السبعينيات، ظهرت مجموعة من الدراسات النقدية لهذه الرؤية للمراهقة

في نهاية دراسة طولية استمرت سبع سنوات في السبعينات بدأت أولى التشكيكات في وجود أزمة حتمية خلال فترة المراهقة، حيث وجد الباحثون أن الشباب الذين مروا بمرحلة المراهقة قد أحسوا بتغيرات كبيرة وأعربوا عن مخاوف جديدة بالتأكيد، لكن هذه التجربة نادراً ما كانت مصحوبة باضطرابات أومشاكل عاطفية كبيرة أوقيود أوإعاقات، تمكن معظم المراهقين من التكيف مع التغييرات التي تميز هذه الفترة وانتقلوا إلى مرحلة لاحقة من التطور بسلاسة، كما وجدوا أن واحدًا فقط من كل خمسة مراهقين ينخرط في نوع «النموالمضطرب» الذي وصفته آنا فرويد بأنه المسار الطبيعي، ومع ذلك، فقد واجه هذا النوع الأخير بالفعل صعوبات كبيرة أثناء الطفولة، وخاصة صعوبات العلاقة مع الوالدين والأقران.

ساهم العمل البحثي الذي قام به روتر ومعاونوه 1976 بين جميع الأطفال والمراهقين في جزيرة رايت بإنجلترا في التشكيك في فكرة أزمة المراهقة الحتمية. يلاحظ روتر، في نهاية الدراسة، أن مفهوم الأزمة

العاطفيـة للمراهقـة هـو خيـال أكثـر منـه حقيقـة

لكـن مـا معنـى أن تكـون مرحلـة عمريـة كاملـة مجـرد مرحلـة مخترعـة لا وجـود لهـا؟

فـي الواقـع لا نقصـد مـن نفـي وجـود المراهقـة نفـي وجـود شـقها الطبيعـي البيولوجـي، أي مجمـوع التغيـرات التـي تظهـر خلال هـذه المرحلـة، ولا نعنـي عـدم وجودهـا علـى مسـتوى البنـاء الاجتماعـي، بـل نعنـي عـدم وجودهـا كجوهـر عابـر للتاريـخ

ولكـن نوضـح الفكـرة أيضًـا، لا بـد التأكيـد علـى مجموعـة مـن النقاط المهمة:

- كان مـن المعتقـد علـى نطـاق واسـع أن الدمـاغ يتوقـف عـن النموبعد فترة وجيـزة مـن سـن البلـوغ، لكننـا نعلـم الآن أنـه يسـتمر فـي النضـوج حتـى العشـرينات، حيـث لا يـزال الجهـاز الحوفـي (حيـث تنشـأ المشـاعر) والقشـرة (مـا يديـر تلـك المشـاعر) يتشـكلان... فالمناطـق الرئيسـية فـي الدمـاغ ودوائرهـا تسـتمر فـي النضـج مـن بدايـة سـن البلـوغ وحتـى منتصـف العشـرينات هـذا يحـدد المراهقـة باعتبارهـا فتـرة حساسـة مـن التطـور العصبـي التـي تتأثـر بشـكل خـاص بالبيئـة، بمـا فـي ذلـك العوامـل الماديـة مثـل التغذيـة والصدمـات والتعرضـات السـامة، وكذلـك العوامـل الاجتماعيـة مثـل تأثيـر الوالديـن ومقدمـي الرعايـة و الأقران والمعلمين.[7]
- تعتمـد كل مرحلـة مـن مراحـل الحيـاة علـى مـا حـدث قبلهـا، وبالتأكيـد لا يدخـل الشـباب مرحلـة المراهقـة «بلوحـة بيضـاء»، بـدلا مـن ذلـك، فـإن نمو المراهقيـن هوجزئيـا نتيجـة لتجـارب الحيـاة السـابقة، ومـع ذلك،

7 . https://pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/16887188/
https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3285464/

فـإن تجـارب الحيـاة المبكـرة هـذه ليسـت حاسـمة، وتميزهـا المرونـة التكيفيـة للمراهقـة كنافـذة لفرصـة التغييـر التـي مـن خلالهـا تكـون آليـات المرونـة والتعافـي والتنميـة ممكنـة.

- يختلـف توقيـت ومعـدل تطـور البلـوغ اختلافًـا كبيـرًا، يرجع العمـر الذي ينضـج فيـه الشـخص إلـى مجموعـة مـن التأثيـرات الجينيـة والبيئيـة، لقـد أثبتـت العديـد مـن الأبحـاث أن تجـارب الحيـاة المبكـرة، بمـا فـي ذلـك المخاطـر والعيـوب الاجتماعيـة، تعمـل علـى تسـريع وتيـرة البلـوغ وتقليـل عمـر توقيـت البلـوغ. علـى وجـه التحديـد، تـم ربـط وتيـرة البلـوغ المتسـارع وتوقيـت البلـوغ المبكـر بالضغـوط مثـل غيـاب الأب.

- عندمـا أصبـح التعليـم الثانـوي تجربـة جماعيـة، قـام علمـاء الاجتمـاع بشـكل روتينـي بمسـاواة المراهقـة بسـنوات التعليـم الثانـوي، وخلصـوا إلـى أن المراهقـة، كمرحلـة مـن مراحـل الحيـاة، تعتمـد علـى التطـورات الحديثـة إلـى حـد مـا التـي أزالـت المراهقيـن مـن سـوق العمـل وأطالـت تبعيتهـم الاجتماعيـة.

- فـي دراسـة حـول تاريـخ المراهقـة فـي الولايـات المتحـدة [8] ربـط بيـن ظهـور مرحلـة المراهقـة وبيـن تحديـث التعليـم العمومـي والرأسـمالية، فبينمـا كان التبايـن العمـري هوالسـائد، حيـث تجـد الطـلاب فـي فصـل دراسـي نموذجـي فـي جامعـة هارفـارد فـي منتصـف القرن الثامن عشـر مـن 12 أو13 إلـى أوائـل العشـرينات مـن العمـر. فإنـه مـع تصنيـف المـدارس الدنيـا، تقلـص النطـاق العمـري فـي مؤسسـات التعليـم الثانـوي والعالـي تدريجيًـا، أولاً مـع اسـتبعاد الطـلاب الأصغـر سـنًا (مـن 12 إلـى 14 عامًـا مـن الكليـات) وبعـد ذلـك مـع مغـادرة الأكبـر سـنًا (مـن 25 إلـى 30 عامًـا)

8. Joseph F. Kett- Reflections on the history of adolescence in America

- سيكون من الصعب التقليل من أهمية هذا الاهتمام المتزايد بالعمر الزمني كأساس لتصنيف الناس. في أواخر عام 1850، تميز التباين العمري بالعائلات وأماكن العمل بما لا يقل عن المؤسسات التعليمية والعمر.

- ظهرت المدارس الثانوية العامة في عشرينيات القرن التاسع عشر وبحلول منتصف القرن أصبحت شائعة في البلدات والمدن، واتجه انتشار الدرجات العمرية في المدارس الدنيا بعد منتصف القرن إلى زيادة سن دخول طلاب المدارس الثانوية إلى سنة أوسنتين، من 13 إلى 14 أو15 وفرض نظام أكاديمي شاق ربطته ستانلي هول بالنضوج المبكر.

- في الواقع، سعى معظم معلمي المدارس العامة، إلى تحقيق أقصى قدر من الكفاءة، والذي ربطوه بنقل أكبر قدر ممكن من المعرفة إلى الأوعية الصالحة (الأطفال الأذكياء)، وقد تزامن الانتقال إلى مدارس الصف العمري مع الاعتماد المتزايد للمعلمين على الامتحانات الكتابية لتنظيم الترقية من صف إلى آخر في جميع مستويات التعليم العام. كان من المتوقع أن تكون الآثار هي نزيف التلاميذ من الصف إلى الصف ومعدلات التسرب العالية.

- في عام 1878، بدأت غلبة الرأي بين اختصاصيي التربية العامة تتوجه نحوالتأكيد على ضرورة التخلي عن معيار الجدارة المتشدد، القائم على فلسفة البقاء للأصلح، من أجل التركيز بشكل أكبر على قيمة الاحتفاظ بالطلاب في المدرسة لأطول فترة ممكنة.

- عدة اعتبارات تفسر هذا التوجه، فأولا بدأت نسبة السكان الأمريكيين العاملين في الزراعة، حيث كان الطلب على عمالة الأحداث سريعًا وغير مثير للجدل، في الانخفاض حتى قبل الحرب الأهلية واستمرت في الانخفاض كل عقد بين 1870 و1930، وشملت العوامل الأخرى زيادة عرض اليد العاملة الجديدة، والقادمة نتيجة زحف المهاجرين البالغين، كما عزز التغير التكنولوجي الذي قلص

الطلب على عمالة الأحداث في بعض الصناعات ؛ والتغييرات القانونية نموالمدارس الثانوية.

- كان التغيير القانوني الأكثر أهمية بين عامي 1900 و1930 هوالتمديد التدريجي للتعليم الثانوي، أي جعل ال16 عامًا الحد الأدنى لسن الطفل الذي يمكن أن يترك المدرسة عنده.
- تعممت العملية بعد ذلك إلى أوربا، ومن ثم إلى مستعمراتها، ليبصح هذا التقنين العمري عابرا للقارات والثقافات.
- جعل المعلمون القيمة النقدية للمثابرة في المدرسة إحدى الحجج الرئيسية لتمديد الحد الأدنى لسن المدرسة، هذا تدعم بوجهة نظر الكثير من الآباء بأن تمديد البقاء في المدرسة يؤدي إلى تكوين أفضل يؤدي إلى أرباح أفضل.

نقصد من كل هذا أنه قبل القرن التاسع عشر، لم تكن المرحلة التنموية للمراهقة موجودة. عادة ما يكون الأطفال غير متعلمين مدرسيا؛ إذ من الشائع كونهم تعلموا كل شيء من أفراد أسرهم وذهبوا للعمل في مزرعة الأسرة بمجرد أن يكونوا قادرين جسديًا على المساهمة في العمل اليدوي.

بمجرد وصول هؤلاء الأطفال إلى سن البلوغ، تم اعتبارهم قد بلغوا سن الرشد. لذلك كان من المتوقع والشائع أن يبدأ الناس في تكوين أسر خلال سنوات المراهقة المبكرة

هذا الواقع أدى إلى «علة اجتماعية» بالغة الخطورة، فبناء مفهوم المراهقة اقتضى ربط المرحلة بمجموعة من الأدوار الاجتماعية الجديدة، والتي عززت من تمديد مرحلة الطفولة، ومن ثم بناء شخصيات مهزوزة، متقاعسة، وغير قادرة على تحمل المسؤوولية، وهي الظاهرة المعروفة في بعض دراسات علم النفس الاجتماعي ب «متلازمة بيتر بان»

الاسم الحالي لهذا النمط من السلوك، ظهر لأول مرة في كتاب دكتور دان كيلي لعام 1983، «متلازمة بيتر بان: الرجال الذين لم يكبروا أبدًا». بينما ركز كيلي على هذا السلوك عند الرجال الغربيين، فإنه يمكن أن تؤثر متلازمة بيتر بان على الأشخاص من أي جنس أوثقافة. ضع في اعتبارك أن هذه ليست حالة صحية عقلية معترف بها. ومع ذلك، يتفق العديد من الخبراء على أن هذا النمط من السلوك يمكن أن يكون له تأثير على علاقات الشخص ونوعية حياته. ما يبدوعليه من أي وقت مضى، يميل الأشخاص المصابون بمتلازمة بيتر بان إلى العيش بهذه الفلسفة كل يوم. نظرًا لأن متلازمة بيتر بان ليست تشخيصًا سريريًا، صاغ الدكتور دان كيلي المصطلح في كتابه:متلازمة بيتر بان: الرجال الذين لم يكبروا أبدًا. بعد ذلك بعام، الصعوبات التي تواجه الشباب في السياق المعاصر. قد يرفض الأشخاص الذين لديهم خصائص متلازمة بيتر بان تبني مسؤوليات الكبار، ويجدون صعوبة في الحفاظ على علاقات صحية، ولديهم حنين شديد إلى طفولتهم/مراهقتهم، وفي حين أن معظم الناس قد يتوقون إلى بساطة الطفولة من وقت لآخر، قد يواجه الأشخاص المصابون بمتلازمة بيتر بان صعوبة في عيش حياة البالغين النموذجية.[9]

ترى متلازمة بيتر بان الأشخاص الذين يجدون صعوبة في «النمو». قد يجدون صعوبة في إدارة المسؤوليات النموذجية للبالغين، مثل الاحتفاظ بوظيفة والحفاظ على علاقات صحية. وفقًا لكيلي، يتصرف الأشخاص المصابون بمتلازمة بيتر بان بشكل غير مسؤول وقد يظهرون سمات شخصية نرجسية. وهذا، كما يقول، يجعل من الصعب عليهم أن يكون لديهم علاقات وظيفية اجتماعية ومهنية وزوجية

9 . متلازمة بيتر بان ليست تشخيصًا رسميًا ولا تحظى بالاعتراف من قبل مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها (CDC) أوالدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية ، الطبعة الخامسة (DSM5-TR). بل هومصطلح غير رسمي يستخدمه بعض علماء النفس

ويذكـر أنـه نظـرًا لأن الأشـخاص المصابيـن بمتلازمـة بيتـر يرفضـون تحمـل المسؤولية، فإنهـم يميلـون إلـى إلقـاء اللـوم علـى الآخريـن فـي المشـكلات الحياتيـة، كمـا نجـد عندهـم صعوبـة فـي التعبيـر عـن مشـاعرهم، ممـا يعظـم مـن مشـكلتهم فـي الحفـاظ علـى العلاقـات

تشـمل بعـض تجليـات المتلازمـة فـي مواجهـة صعوبـات فـي المسـؤوليات والالتـزام بالقضايـا المتعلقـة بالعمـل واهتمامـات المهنـة بسـبب عبثيـة وأنانيـة أصحابهـا، مـع الخـوف مـن الشـعور بالوحـدة وصعوبـة فـي السـيطرة علـى السـلوك الاندفاعـي والاعتمـاد علـى الآخريـن ورفض/تجنـب النقـد

أدرج كيلـي علامـات رئيسـية أخـرى لمتلازمـة بيتـر بـان. مثـل اللامبـلاة، وتأجيـل المهـام، والتأخـر الكثيـر...

انفصال التعليم عن التفكير

يعـد الانفصـال الحـادث بيـن التعليـم والتفكيـر، أحـد أهـم المشـكلات المعيقـة علـى تجسـيد النمـوذج الحياتـي الإصلاحـي، مـن ناحيـة ضـرورة حضـور التفكيـر النقـدي النشـط مهمـا كان مجـال وشـكل الإصلاح، إذ أن يشـترط للمصلح معرفـة واقعـه، مـع ماتحتاجـه هـذه المعرفـة مـن جمـع بيـن المعرفـة الخالصـة، ومعرفـة الإطـار المرجعـي، ومـاينتـج عنهمـا مـن بنـاء خطـة تنزيـل النمـوذج النظـري فـي الواقـع العملـي

وفـي ظـل هيمنـة نمـاذج التعليـم التلقينيـة التـي تركـز علـى البعـد الخدَمِـي العملـي البحـت، فـإن المصلـح إنمـا يحتـاج إلـى شـكل مـن أشـكال التفكيـر المنخـرط والمتفاعـل مـع الواقـع فـي علاقـة تداخليـة وثيقـة، يتكـون فيـه التفكيـر مـن خلال المشـاركة، وهـذا قريـب ممـا كانـت تسـميه حنـة أرنـدت ب «التفكيـر النشـط»، والـذي يعنـي التفكيـر شـديد التفاعـل الـذي يُعـد الفـرد للتصـرف فـي العالـم الحقيقـي وأكثـر مـن ذلـك، فـإن التفكيـر النشـط فـي حـد ذاتـه هوعلـى الحقيقـة شـكل مـن أشـكال الفعـل، لأنـه فـي فعـل التفكيـر بهـذه الطريقـة، يـدرك

المـرء أن المـرء مشـارك مسـؤول فـي العالـم. علـى عكـس الرؤيـة السـائدة التـي تنظـر إلـى التفكيـر علـى أنـه شـكل مـن أشـكال التراجـع عـن العالـم، والابتعـاد عـن تدفـق الأحـداث والتحـول إلـى الاسـتبطان الصامـت، فـإن التفكيـر النشـط يشـبه الالتـزام بالتفكيـر بمسـؤولية، أي الابتعـاد عـن منظـور المتفـرج المرتـاح وذلـك لا يتحقـق إلا مـن خلال المشـاركة والتجـذر فـي الواقـع، الواقـع السياسـي، بالمفهـوم العـام الكلـي للسياسـي

وعليـه يمكـن فهـم التفكيـر بحـد ذاتـه علـى أنـه نشـاط سياسـي، أونـوع مـن الرفـض للواقـع العليـل، أوحتـى مقاومـة نشـطة مـن الفطـرة السـليمة، وهونشـاط لا يبقـى داخـل العقـل الفـردي ولكنـه يؤثـر علـى الآخريـن ويتحداهـم أيضـا

يتطلـب تعليـم التفكيـر النقـدي تحديـدًا دقيقًـا للمبـادئ التـي توجـه هـذا التفكيـر وكذلـك المهـارات التـي يجـب علـى المفكـر ممارسـتها، والمفكـر النقـدي هوالشـخص الـذي يقـدر ويقبـل أهميـة الأدلـة والحجـج وقوتهـا المقنعـة، عنـد تقييـم الادعـاءات، أوإصـدار الأحـكام، أوتقييـم الإجـراءات، أوالتفكيـر فـي الإجـراءات البديلـة

فـي دراسـتها الرائـدة حـول « تفاهـة الشـر» حـذرت أرنـدت مـن أن أولئـك الذيـن لا يملكـون هـذه القـدرة علـى التفكيـر النشـط سـوف يخطئـون، كان المثـال الأكثـر إثـارة للجـدل علـى ذلـك هوالبيروقراطـي النـازي أدولـف أيخمـان، حيـث غطـت حنـة محاكمتـه بجرائـم الحـرب فـي القـدس عـام 1961 فـي سلسـلة مـن المقـالات لمجلـة نيويوركـر

أدولـف أيخمـان فـي زنزانتـه، يبدوكشـخص عـادي، حتـى ذلـك الحيـن، كانـت أرنـدت قـد حققـت فـي شـر الاسـتبداد كظاهـرة عامـة. ووجـدت فـي حالـة أيخمـان (الـذي كان محوريًـا فـي تنظيـم الهولوكوسـت) الفرصـة للنظـر والبحـث عـن القـوى الأعمـق التـي شـكلت الشـروط المسـبقة لظهـور الأشـكال الشـمولية مـن الشـر السـلطوي، لتسـتنتج فـي الأخيـر مفهـوم «عاديـة الشـر»، فلـم يقـم آيخمـان بفعلـه هـذا نتيجـة نـوازع شـريرة خاصـة تميـزه، لـم يكـن

وحشًا، بل كان مجرد عامل منصاع للبيروقراطية الباردة، كل ما قام به هوالطاعة، الطاعة الجامدة، الخالية من التفكير في أخلاقية الفعل

إن الدرس المستفاد من تحليل حنة أرندت المهم، هوأن التفكير لا يرتبط بالمعطى المعرفي المنطقي البحت، بل يتعداه إلى المعطى الأخلاقي

يعني أن أيخمان كان مجرد «شخص عادي» مثلك ومثلي، أوأننا جميعًا أيخمان، أوأنه يمكن إعفاء أيخمان من المسؤولية عن أفعاله لأن أي شخص كان سيفعل الشيء نفسه، بل كانت مشكلته الأساسية مرتبطة به، لا يشاركها بأي حال من الأحوال مع أي شخص آخر على الرغم من أنه أيضًا ليس فريدًا فيها، وهي عدم القدرة على التوقف والتفكير في أفعاله، ليعطي لنفسه حسابًا تأمليًا لمعنى ما فعله.

اتضح أن التفكير يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق والقدرة على التمييز بين الصواب والخطأ. إذا لم تكن الجرائم الفظيعة ناتجة بالضرورة عن نوايا شريرة أورذائل مثل الكراهية أوالغيرة، بل أصبحت ممكنة بسبب عدم التفكير، فإن الانخراط النشط في التفكير قد يمنع ارتكاب الفظائع

والتفكير ليس هوالمعرفة، بل هوالقدرة البشرية على تجاوز الموجود والمعروف، وقد كان كانط أول من أوضح هذا التمييز - حسب مصطلحاته هوذلك بين العقل والفكر، حيث يرى أن الإنسان لديه ميل، غالبًا ما يشعر به على أنه حاجة، للتفكير فيما وراء المعرفة المعطاة وحتى أبعد من كل المعارف الممكنة، والتفكير بالمعنى الصحيح يختلف أيضًا عن الاستخدامات الأخرى لقدراتنا العقلية، مثل الحسابات الرياضية أوحل المشكلات أوالتكهنات النفعية حول الوسائل الفعالة لغايات معينة.

قد تتضمن كل هذه الأنشطة العقلية التفكير، لكنها تسخره لتحقيق غاياتها الخاصة وتتوقف عند الوصول إلى هذه الغاية، عندما يكون التفكير مستقلاً عن مثل هذه الأهداف الخارجية، فإن الأسئلة التي يطرحها لا يمكن أن يكون لها إجابات محددة ولن يتم الوصول إلى أي هدف نهائي. هذا

هوالسبب في أن التفكير يختلف أيضًا عما نسميه عادةً بالعقل، أي اتباع الاستدلالات المنطقية الصارمة، واستخلاص استنتاجات صحيحة من افتراضات معينة. العقل، بهذا المعنى، يسعى للحصول على براهين صلبة ومستدامة، في حين أن المعاني الفكرية ثقافية الأساس

الانفصال عن الثقافة، وتفتيت المرجعية

تشير «العلمنة» إلى الأنماط التجريبية التاريخية الفعلية أوالمزعومة للتحول والتمايز بين المجالين المؤسسي «الديني» و «العلماني» من بدايات الحداثة إلى المعاصرة. وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية تنظر إلى العلمنة كنظرية عامة، إلا أنها تتكون في الواقع من 3 نظريات مختلفة ومتباينة في نهاية المطاف[10]: العلمنة بوصفها (1) تمايزا مؤسسيا، أي تأسيس مجالات مستقلة بداية مثل الدولة والاقتصاد والعلم، وانفصالها عن الديني الذي يتحول هوالآخر إلى مجرد مجال، العلمنة بوصفها (2) التدهور التدريجي للمعتقدات والممارسات الدينية نتيجة التحديث ؛ والعلمنة بوصفها (3) خصخصة الدين كشرط مسبق للسياسة الديمقراطية الحديثة

ميل علماء الاجتماع إلى النظر إلى جميع العمليات الثلاث على أنها مكونات مترابطة جوهريًا لعملية غائية عامة واحدة للعلمنة والتحديث ناتج في جوهره عن تحيزات عصر التنوير

في السنوات الأخيرة، خضعت اثنتان من الأطروحات الفرعية لنظرية العلمنة إلى نقد شديد داخل وهما تدهور الدين وخصخصة الدين نتيجة ظاهرة مايسمى ب «عودة الديني» ومع ذلك، فإن جوهر الأطروحة، أي التمايز الوظيفي بين المجالات المؤسسية المختلفة مازالت تحظى بالقوة في سوسيولوجيا الدين، ويعتبر كازانوفا مدافعا أساسيًا عن أطروحة التمايز بوصفها مهمة للتحديث، بل هي جوهره الأساس

10 . وهذا تقسيم لكازانوفا تحدث عنه في كتابه « الأديان العامة في العصر الحديث

ظهر «العلماني» أولاً كفئة لاهوتية مسيحية غربية معينة. ومع ذلك، فإن مصطلح «الديني» المتناقض الحديث هوفي حد ذاته فئة علمانية أوروبية حديثة. من خلال الاعتراف بهذا التناقض، نبدأ في فهم الأهمية الحاسمة للمواجهة الاستعمارية في التطورات الأوروبية، وما يصاحب ذلك من عولمة لمقولة الدين، وما يصاحب ذلك من نزاع ساخن ومناقش حول كيفية وأين ومن قام بالحدود المناسبة بين الديني والعلماني

تصبح فئة العلمنة نفسها إشكالية للغاية بمجرد وضعها في هذا السياق التاريخي، باعتبارها مرتبطة بالمركزية الأوروبية. ومن ناحية وجوب أن يُنظر إلى العلمنة الأوروبية، وفقًا لكازانوفا بوصفها فئة غريبة لا توجد خارج الغرب الأورو-أمريكي، لكن هذا الزعم يصح فقط حسب ظني في حالة عدم وجود بؤر تأثير في الميتروبولول الغربي، تخلق بؤر تأثر وتبعية في الأطراف، والدولة الحديثة نموذج جيد على ذلك من ناحية قدرتها الكبيرة على تشكيل الذوات، أي خلق أطر تفكير ورؤية للعالم موحدة، عبر شكل من العولمة القهرية، وحسب طلال أسد فإن «الدولةُ ليست سبباً للعلمنة، بل تمثيلاً لها» وأيضا منتج من منتجات التمايز، ظهر التمايز نتيجة لها وبالتفاعل والصراع معها، ثم أصبح ذاتها وتجسد في بيروقراطيتها، فعملت الأخيرة على بناء النطاقات والمجالات المستقلة ثم تربية الذوات عليها لتؤسس شكلا من الفينومينولوجيا العلمانية داخل الجسد المسلم.

ونلحظ أثر العلمنة، أي العلمنة بوصفها شكلا من التمايز بين النطاقات في اللغة العادية وتصورات الناس العاديين (وهوالجانب المهم الذي لم يدرس من سوسيولوجيا العلمنة، فهنا نبحث في تمظهرات العلمنة في الحس المشترك العام للناس، وفي بديهيات الفعل والتصور عندهم، بل عند فئات لم تتأثر بالعلمنة كنظام معرفي ومنتوج فكري).

فلاحظ مثلا إذا ما قام السياسي/رجل الدولة ببناء مسجد، أوزيارة مكان «ديني»، أواستخدم النص الديني في حواراته وأحاديثه فإنه سيرمى

بتهمة «استغلال» الدين، ولكنه إذا قام ببناء مستشفى أومدرسة فلن يعتبر هذا العمل «استغلالا للدين» مع أنه فعل « ديني» في الإسلام، مثله مثل سابقه.

لماذا؟...لأن هنالك تصور ضمني في اللاوعي والحس المشترك أن:

السياسة مستقلة عن الدين (فكرة الفصل بين المجالات/التمايز).

الدين محدود في المجال الشخصي، أي في ما يتعلق بالعلاقات التعبدية المحضة.

وفي نفس السياق، لا يعتبر رجل الدولة الذي يستند في خطاباته إلى اللغة القومية والوطنية «مستغلا للوطنية/القومية» لأن اللغة القومية هي وحدها اللغة المشروعة في المجال العام/السياسي دون بقية اللغات الأخرى، وبخاصة اللغة «الدينية».

ثم لاحظ التحيز المعرفي في مفهوم «العلوم الدينية» والذي هوفي أصله مرتبط بالمسيحية ونظام الكنيسة المعرفي، حين انتقلت تراتبية العلوم من مركزية «العلوم اللاهوتية» إلى «مركزية العلوم الدنيوية»، وتم إلغاء الصبغة الدينية عن العلوم المتعلقة بالواقع، لكن، وعلى العكس من ذلك فإن العلوم «الدنيوية» لا تطابق هذا التصور في الإسلام، فصحيح أن علوم النص ترجع في مرجعيتها الاستمدادية إلى النص، وعلوم الواقع ترجع في مرجعيتها الاستمدادية إلى الواقع ذاته، إلا أن علوم الواقع من زاوية أخرى، وإذا أفرغت من مضمونها الوضعي، وربط فيه مسلك العلم بمسلك العمل، تحولت هي الأخرى إلى علوم خاضعة للتقييم الديني، أي دينية من جهة غايتها، فنحن لا نحاول فهم «النفس» الإنسانية من أجل مجرد الفهم، بل من أجل علاجها/تقويمها/تقويتها/تزكيتها..

ولا نحاول فهم المجتمع الإنساني، ولا المجتمع السياسي من أجل مجرد الفهم، بل من أجل الضبط والتقويم، ومن ثم تصبح علوم الواقع علومًا لها من الشرف ما لغيرها، لأنها المعبر الذي يسمح بنفاذ الكليات الأخلاقية الإسلامية وتجسدها في الواقع، ومن دونها يصبح النص غير قادر على التأثير في ممارسة فعاليته الواقعية المطلوبة..

عدم إدراك هذا البعد الكلي في المرجعية الاستمدادية يجعل من هذه الأخيرة عاجزة عن إمداد المصلح بالأدوات والوسائل الكلية التي تساعده على تحقيق هدفه الإصلاحي، بتمامه وكماله، ومن ثم تصبح المرجعية ميتة، خاصة، محصورة، ومحدودة التأثير، أي غير قادرة على الدفع بالمجتمع المسلم إلى الدخول في مسار التاريخ من جديد، ويحدث انفصال المصلح عن الثقافة المرجعية

وقد يتخذ الانفصال عن الثقافة شكلا آخر، وهونكران تلك الثقافة لعدم جاذبيتها، حيث يقودنا هذا إلى الحديث عن الهيمنة المعرفية للبراديغم الغربي، بوصفها (الهيمنة) شكلا من أشكال سلطة تحديد مجال مايمكن أن يقال (سلطة الخطاب بمفهوم فوكو)، فإن كان الإطار المعرفي هونظام المعاني،الذي تم إنشاؤه تاريخيًا والمحافظة عليه بشكل جماعي/سلطوي/ مؤسسي، والذي من خلاله تفهم المجموعة وتقيم الحياة الفردية لأعضائها والحياة الجماعية للمجموعة، فإنه يجب أن يكون لكل مجموعة إمكانية الوصول إلى نظامها الخاص من المعاني والتفسيرات، أي إلى إطار معرفي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالهوية الجماعية للمجموعة وكذلك الأفراد الذين يشكلونها

وعندما يتغير الإطار المعرفي لمجموعة ما دون علم/رغبة/وعي أعضائها، بفعل مجموعة أخرى، وبعبارات لا يفهمونها، فإن المجموعة تفقد استقلاليتها المعرفية

يحلينا هذا إلى أطروحة راجيف بهارجافا حول الظلم المعرفي، فحسبه يمكن أن يتخذ الظلم المعرفي ثلاثة أشكال مختلفة على الأقل:

- فرض تغيير يؤثر على محتوى الأطر المعرفية.
- تغيير الأطر المعرفية الأساسية.
- فقدان قدرة الأفراد في المجموعة على الحفاظ على أطرهم المعرفية أواستعادتها أوتطويرها.

إن آليات الظلم المعرفي والثقافي كثيرة ففي البداية يكفي أن تولد في مجتمع تمنع فيه الممارسات المهيمنة (سلطة البراديغم المهيمن) الأفراد من الوصول إلى معرفة قوية بما فيه الكفاية للتقاليد الثقافية والتاريخية لمجتمعهم، في هذه الحالة، لا يمكن الوصول إلى الإطار المعرفي الأصل، من المؤكد أن ماضي المجتمع لا يزال حاضرًا في آثاره، ولكن في شكل مشتت لدرجة أنه محكوم عليه بالبقاء بعيد المنال.

ثانيًا، يمكن أن ينشأ الظلم المعرفي بطريقة أكثر دقة، في هذه الحالة، لا تزال الأطر المعرفية للمجموعة المستعمرة موجودة، سليمة إلى حد ما وفي شكل متماسك ويمكن التعرف عليه. حتى المستعمرون يلاحظون وجودها، باختصار، توجد هذه الأطر كخيارات، ولكن يتم تجاهلها بسبب افتقارها إلى القيمة، ويعتنق المستعمر إطار المستعمرين لسبب بسيط هوأنهم فقد بالفعل استقلاليته المعرفية، يسبق هذا الاختيار الأعمى عمومًا عملية تقليل مرتبة الأطر الثقافية والمعرفية للمستعمَرين، وهي عملية تتكشف أولاً من خلال خطاب المستعمرين

وهي نفسها الملاحظة التي يشير إليها جوزيف مسعد في في كتابه «الإسلام في الليبرالية» حين يشخص أعمال العديد من المؤلفين العرب المسلمين المقيمين في أوروبا. هؤلاء المؤلفون، مثل فتحي بن سلامة، ومالك شبل، وعبد الكبير خطيبي، يستدعيون التحليل النفسي الفرويدي واللاكاني لتحليل الإسلام السياسي (أوالإسلاموية). يلتقي مسعد بهؤلاء

المؤلفين على أرضهم الخاصة، في مواجهة تحليلهم النفسي للإسلاموية بطريقة فرويدية قائلا : «ما لم يتم التفكير فيه في هذه الاطروحات، على الرغم من ذلك، هواحتمال أن عودة المكبوت هي سمة من سمات قلق هؤلاء المفكرين وليس فقط، أوبالضرورة، من المسلمين أوالإسلاميين الآخرين. هذه «العودة» تعيد فتح مشهد صدمة هؤلاء المفكرين لاستمرار الإسلام ليس فقط «دين» في حياة العرب والمسلمين. وهذا يسبب لبعض مفكري التحليل النفسي «إحراجًا» و «خزيًا» أمام نظرائهم الأوروبيين، والأهم من ذلك، أمام ذواتهم الأوروبية

انفصال المفكر/المثقف عن التأثير

في عام 1894 اكتشف الجيش الفرنسي أن السفارة الألمانية في باريس قد حصلت على معلومات عسكرية سرية، بعد تحقيق قصير ومتحيز، تم الاشتباه في ألفريد دريفوس واعتقاله، حاكمته محكمة عسكرية بناءً على وثيقة واحدة وأدانته بالإجماع بعد تلقيه ملفًا سريًا مكونًا من أدلة ملفقة، بعدها تم إكتشاف أن الخائن الحقيقي كان في الواقع ضابطًا آخر، وأن معظم الأدلة السابقة قد تم تزويرها، تحول الأمر ببطء إلى نقاش وطني، وجاءت نقطة التحول عندما كتب الروائي الشهير إميل زولا رسالة مفتوحة، إلى فيليكس فور، رئيس الجمهورية، في الأشهر التي تلت ذلك، تحول النقاش من مجرد مناقشة قانونية إلى معركة أيديولوجية كاملة، وعقدت محاكمة جديدة في رين في صيف عام 1899. وأدين دريفوس مرة أخرى، ولكن مع ظروف مخففة، ثم منحه الرئيس عفواً وماتت القضية

كانت هذا السياق هوالسياق التاريخي لظهور طبقة المثقفين، فإن وجد في التاريخ الإنساني أشكال مختلفة من منتجي الأفكار، فإن الجديد في هذه اللحظة هوأن يرتبط من نسميهم ب «النخبة» في وحدة معنوية واحدة، أي بداية من لحظة درايفوس أصبح يشعر كل من العَالِم والكاتب والأديب والفنان أنهم ينتمون إلى مفهوم واحد جامع، وبالإضافة إلى المعطى

الأول، والمتمثل في إنتاج الفكر، فإن النزوع العملي، النضالي كان الوجه الثاني لتعريف المثقف، فهوالمدافع عن الحق، والساعي إلى تحقيق العدل، وهوما جعل جيرار ليكلرك (في كتابه سوسيولوجيا المثقفين) يعتبر مفهوم المثقف علمنة لمفهوم النبي...وعلى الرغم من اختلاف تحققات مفاهيم العدالة والحق بين المثقفين في العالم، تبعا لاختلاف مرجعياتهم المعرفية، وتصوراتهم الرؤيوية، إلا أن نموذج المفكر منتج الفكر، المتدخل في الشأن العام، ظل حاضرًا ومؤثرًا إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين، أين بدأت القوة الرمزية للمثقف في الضمور، ففي كتابه نهاية اليوتوبيا ينظّر رسل جاكوبي لحقبة ذهبية انصرمت مع نهاية الخمسينات، فبعد أن كان فيها المثقف يتمتع باستقلالية ونظرة عالمية ويخاطب الرأي العام بلغة يفهمها، ويحظى بنفوذ وهويتصدى لقضايا العصر... تحول في الحقبة التي تلت إلى متخصص ملتحق في الأغلب بالمؤسسات الاكاديمية وغيرها من الجهات، والتي تستخدمه وتقيده، ولم يفقد المثقف استقلاله بالتحول الى متخصص فحسب بل فقد قدرته ورغبته في مخاطبة الجماهير ايضا، حيث طور هؤلاء المتخصصون لغة لا يفهمها غيرهم، وتحولوا الى فئات مغلقة على نفسها محصورة باهتماماتها البعيدة كل البعد عن قضايا الناس، لا يرجع هذا إلى الهيكلة الحديثة للجامعة، والتي عملت على احتواء المختصين ورجال الفكر، بل تزامن هذا مع خطاب معادي للحقيقة، جسدته الفلسفات المابعدية، والتي عملت على تفكيك ماكانت تسميه بالسرديات الكبرى وتؤمن بفلسفة للفعل تكون مرحلية ومؤقتة وراهنة وتخلومن البعد التنظيري الشمولي الذي يميز السرديات الكبرى، مع الدعوة إلى تجاوز التجريد والتعامل مع الواقع كما هو، والابتعاد عن البحث في الميافيزيقي أوالمطلق مثل الحق والخير والجمال والصدق، وإنما البحث في قضايا الواقع السياسي والاجتماعي الراهن ضمن اللحظة المعاشة، وبدون السعي إلى استنباط نظام أوبنية تدعي لنفسها القدرة على تأويل التاريخ والطبيعة والكون، وبهذا سُلب من المثقف أهم خصوصية تميزه، وهي قدرته على قول الحقيقة والدفاع عنها، وفي ظل هذا الواقع تعرض نموذج المثقف

الكلاسيكي للحصار، كما تحولت المؤسسات الأكاديمية من كونها متهمة وناقدة لرأسمالية الشركات إلى متواطئة معها. فأصبحت تنتج سلعة تعرف باسم الخريجين والمدربين لأداء وظائف خدمية محدودة

لقد تغلغل منطق السلعة الآن في مجال احتياجات الإنسان وتنشئته، مما أدى إلى ظهور الأعراض المرضية هناك. في الجامعات، كما هوالحال في الشركات عبر الوطنية، تواجه قوة عاملة ساخطة إلى حد كبير نخبة إدارية مهووسة بالتمويل

كما يلاحظ المتأمل للواقع حضور نزعة قوية من معاداة المفكر والمنظر تتغذى من شعبوية شكوكية لا تثق في أهل المعرفة وتكره الخبراء والمثقفين بسبب وجهة نظر مفادها أن الإحساس/الحدس الواضح للرجل العادي يمكن أن يكون بديلا للمعرفة والخبرات الرسمية، إن لم تكن أفضل بكثير منها

وبفعل دمقرطة الظهور، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ظهر فاعل جديد، وهو «المؤثر»: شخص له تأثير كبير اقتدائي على المتابعين عبر الإنترنت، وبغض النظر عن حجم «تأثيره»، فإن المؤثر هوالشخص الذي يتمتع بمكانة متميزة في نظر عدد من الأفراد عبر الإنترنت. ولديه القدرة على التأثير في سلوك الشراء والتفكير وحتى المعتقدات لدى أتباعه ومحبيه، وهذا يعني أن المؤثر يمكنه التلاعب بالناس لشراء منتجات غير ضرورية، وتبني قيم معادية، وتصبح مادية بشكل مهووس.

عندما يرى الناس أشخاصًا «مثلهم تمامًا» يكتسبون عددًا كبيرًا من المتابعين بمجرد الحديث عن منتجات وخدمات معينة (وحتى الحصول على أموال مقابل ذلك)، فقد يميلون إلى محاولة أن يصبحوا هم أنفسهم مؤثرين.

فـي مقـال نشـرته صحيفـة The New Yorker[11]، قـدم لورانـس سـكوت تشـبيهًا دقيقـا يصـف واقـع المؤثـر الشـرير: «يمكـن أن يكـون المؤثـر باتمـان والجوكـر فـي الوقـت عينـه، فهنـاك أفـراد يسـتخدمون نظامهـم الأساسـي فقـط لتجميـع الثـروة أوالمنتجـات، ويسـلطون الضـوء بشـكل غيـر أصيـل علـى فوائـد منتـج أوخدمـة معينـة لبيعهـا فقـط، قـد يكـون هـذا خطيـرًا بشـكل خـاص عندمـا يتعلـق الأمـر بالمنتجـات أوالخدمـات أوالتصـورات التـي يمكـن أن تغيـر صـورة الأشـخاص عـن أنفسـهم، وتوليـد عـدم الأمـان، وتشـجيع النرجسـية المتفشـية والغـرور والماديـة..

يمثـل ظهـور المؤثـر مشـكل أساسـيًا يعيـق عمليـة إعـادة توليـد نمـاذج جديـدة مـن المفكـر المثقـف، لأنـه وبفعـل الدمقرطـة، أصبـح المراهـق الـذي لا يمتلـك أي مواهـب أومهـارات أومعـارف أوأفـكار بإمكانـه إحـداث تأثيـر فعلـي فـي الواقـع يماثـل أويفـوق تأثيـر السياسـي علـى سـبيل المثـال

انفصال النموذج عن الأمل[12]

الأمـل ليـس مجـرد توقـع واثـق لسـلعة مسـتقبلية، بـل يتعلـق بالعمـل، مـع الالتـزام والمسـؤولية الذاتيـة، مـع الممارسـة التـي تحـول الوضـع الحالـي وتغيـره، قـادت التغيـرات المجتمعيـة فـي القـرن الماضـي، وخاصـة فـي أعقـاب الحـرب العالميـة الثانيـة، المفكريـن إلـى تخيـل أنثروبولوجيـا فلسـفية تتمحـور حـول مفهـوم الأمـل مـن وجهـات نظـر مختلفة تمامًـا، أن الأمـل مرتبـط ارتباطًا وثيقًـا بحالـة البشـرية ومصيرهـا، الفعـل، والتغييـر الاجتماعـي، واليوتوبيـا، والثـورة، والتحـرر، والابتـكار، والثقـة. شـكلاً مـن أشـكال الوصـول إلـى

11 . http://www.newyorker.com/culture/annals-of-inquiry/a-history-of-the-influencer-from-shakespeare-to-instagram

12 . تعتبـر هـذا المشـكلة أكبـر مثبـط للعمـل الإصلاحـي، ولـم أرد التفصيـل فيـه لتداخلـه الكبيـر مـع إشـكالية أخـرى سـتقدم فـي الملتقـى

الواقـع، وهوشـيء «غيـر واعٍ بعـد» ويعكـس بـدوره «إمكانيـة موضوعيـة» دائمـة، وفـي غيابـه تتوقـع وتعـدم مجـرد إمكانيـة التفكيـر فـي التجـاوز والتحول.

لاحـظ فـروم أن شـبحًا يطـارد فـي وسـطنا لا يـراه سـوى القليـل منهـم بوضـوح. إنـه ليـس الشـبح القديـم للشـيوعية أوالفاشـية. إنـه شـبح جديـد: مجتمـع آلـي بالكامـل، مكـرس لإنتـاج واسـتهلاك المـواد القصـوى، ويشـير فـروم، وهومـن الأفـكار المهيمنـة فـي تأملاتـه، إلـى أن الحالـة الإنسـانية فـي المجتمعـات الصناعيـة المتقدمـة، والتـي تتميـز برفاهيـة واسـعة النطـاق، تبدومعلقـة بيـن «عـدم الرضـا المتزايـد عـن أسـلوب حياتنـا الحالـي، وسـلبيتها ومللهـا الصامـت، وافتقارهـا للخصوصيـة وخصوصياتهـا. تبـدد الشـخصية، والتـوق إلـى وجـود بهيـج وهـادف، يحتـاج النـاس دائمًـا إلـى الأمـل - لكـن هـذه الحاجـة تبدوأكثـر إلحاحًـا وإلحاحًـا فـي مجتمعـات اليـوم، والتـي تحجبهـا الاسـتبداد الـذي يلـوح فـي الأفـق، والتدميـر، والامتثـال الشـبيه بـالآلات

خاتمة

يتبين لنا أن النموذج الإصلاحي الحياتي هوعبارة عن مجموعة التصورات المحددة لرؤية الإنسان للعالم، والتي تترجم في شكل «مسار للحياة»، وهوضروري، لأنه يجعل الفرد يسير وفق رؤية محددة، ومتطورة في الوقت عينه، وعلى الرغم من ضرورة حضور النموذج، إلا أن البنيات المعاصرة، الناتجة عن العولمة الثقافية، والقصور الذاتي تعمل على قمعه، ومنعه من التجسد بالفعل، عبر مجموعة من الانفصالات، والتي تحتاج إلى مزيد تحليل وتفصيل وتعميق، ثم إلى بيان إمكانية مقاومة النسق، وبناء بنيات عكسية، تسهم في تشجيع خلق النماذج الإصلاحية

المراهقة كمرحلة مهملة، محاولة لفهم الخصوصية وظاهرة التسرب

هاجر نوري

مقدمة

إن رصد ظاهرة مثل ظاهرة عزوف الشباب عن الشأن الفكري في مرحلة مثل المراهقة، يعد جهدا تحليليا ضروريا لاستكمال محاولة الإحاطة بجل أبعاد الموضوع ، إذ نحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على فترة المراهقة وما تحتاجه من دقة مفاهيمية لإعادة ضبط تعريفها ومساءلة مفهومها ضمن جهازنا المعرفي ودقة منهجية لدراسة جادة لمعالمها، وتحليل لواقع ظواهر التسرب الحاصلة فيها.

محاور البحث

- أهمية مرحلة المراهقة وغياب الاهتمام المعرفي والعملي بها
- ظواهر التسرب في مرحلة المراهقة وعلاقتها بظاهرة العزوف عن الشأن الفكري
- في المفهوم والمصطلح
- اضطراب المصطلح
- بين التثاقف والاستلاب
- تحرير اضطراب المصطلح
- ماذا بعد التحرير
- نظرة في الواقع

أهمية مرحلة المراهقة وغياب الاهتمام المعرفي والعملي بها

مالذي يخطر على بالنا حين نسمع «مراهق»، أيُّ معجمٍ وأي خطابٍ نستدعيه حين تمتثل أمامنا هذه الفئة، أهو امتثال المتهم أمام محكمة التقاليد المجتمعية ترشقه بالرعونة والتمرد وقلة العقل وسوء التصرف، أم هي نبرة اعتذارية نوجّهها لذواتنا كمن يتدارك فيقول «لكنه مراهق»

أم أنه خطاب يستنكر الوجود من أساسه، يتقوى بحنينه إلى نماذج عبرت سريعا من الطفولة للرشد متمثلة صفات الرجولة الكاملة في هذا العمر الذي غيّر فيه الزمن ما غيّر...

هل هو سياق عالمي يا ترى ؟ ثم ماذا عنا نحن الناطقون بالضاد هل نمتلك نفس التصور عن هذه المرحلة ؟ هل وحّد الدين الإسلامي التصور وهل يسير هذا على كل الأزمنة ؟ كيف نعالج الموضوع في ظل التغيرات الجديدة أم أن اشكاليات المراهقة ومواضيعها غائبة عن حيز المفكر فيه ؟

لابد أن تحرير هذه القضايا، والإجابة عن تلك التساؤلات وغيرها؛ لا يؤثر في الموقف النفسي والتربوي وأدبيات العلاج الطبي والنفسي لهذه المرحلة العمرية فحسب؛ بل هو مؤثر في قضايا منهجية كثيرة في التأصيل الإسلامي والتربوي لدراسة المراحل العمرية وتوجيهها، وبالتالي فهو مؤثر حتى في استثمار المرحلة العمرية وإحسان توظيفها للإنتاج والعمل والعطاء الذي تحتاجه الدول والمجتمعات الإسلامية بعامة

لكن الأهم من ذلك بالنسبة لنا في هذه المحاولة البحثية هو أهمية هذه المرحلة في دراسة مقدمات الظواهر التي تخلق لنا مستقبلا فردا عازفا عن الشأن الفكري ، لذلك انطلقنا من فرضية مفادها أن بعض ظواهر التسرب (ونقصد بها تسرب الطاقات وإهدار الإمكانيات) في هذه السن هي مقدمات مرتبطة بشكل مباشر وغير مباشر بتكوين الفرد العازف عن الشأن الفكري ، ومنه يجوز اعتبارها مرصدا سيكولوجيا مهما لمجموعة من الظواهر النفسية والاجتماعية في طور تشكلها الأولي

التشكل الذهني للعالم ... من جديد :

من الحجج التي نعضد بها صحة فرضيتنا هو ما ذاك الاختلاف الذي نلاحظه في طريقة تشكل المفاهيم ما بين سنوات الطفولة الأولى وغيرها من المراحل التي يقترب فيها الفرد من النضج ،أين يعيد اكتشاف العالم من جديد بزوايا جديدة غير تلك التي تلقاها من الأبوين، فتَشكُّل معارفنا المكتسبة مرحليا ليس خاضعا للمساءلة الواعية إلا بعد الاقتراب من اكتمال النضج العقلي، لكن المميز في سن المراهقة (سنفصل المقصود بالمراهقة وأي عمر نقصده في قادم المحاور بإذن الله) هو دخول العوامل الخارجية ومنه ضبط علاقة جديدة مع العالم. ونضرب هنا مثالا بإحدى الجوانب النفسية التي تتشكل بوضوح في هذا العمر وهي الهوية، والتي تتشكل انطلاقا من مجموع التصورات المعرفية التي يكون مصدرها مرجعيات ثقافية ينشئ عليها الوالدين بداية ثم تتداخل العوامل الخارجية المجتمعية في الطفولة المتأخرة والمراهقة ، إن هذا الدخول المفاجئ للعامل الخارجي يشكل أول صراع ذاتي لهذا الكائن الذي يعيد في الحقيقة تركيب تصوراته عن ذاته والعالم، وقد راقب علم النفس الحديث هذا التشكل الجديد من عدة زوايا وكانت كل دراسة متأثرة بمقدمات المدرسة النفسية التي تنتمي اليها من جهة وبالسياق الذي تعاصره كذلك، ومن تسعينيات القرن الماضي كانت الكتابات الغربية تتناول بسخاء موضوع المراهقة بينما تكتفي الكتابات العربية بترجمة هذا المنتوج الغربي، ما يجعلنا نتناول موضوع تشكل الهوية بمنطلقات غربية مصبوغة تارة بصراع الهوية عند «ايركسون» أو بالهويات الجنسية وفق السياق الغربي المعاصر، بينما نحتاج مقاربة علمية موضوعية لتشكل الهوية في هذا العمر بما يوافق سياقنا المعاصر ومقدماتنا المعرفية والدينية

إلى جانب الهوية نضرب مثالا بمفهوم لا يقل أهمية :تشكل القيم وضبط السلوكات، إنه بلا منازع عمر الربط بين القيمة والسلوك ذلك أن العقل في هذا السن يبدأ رحلته في فهم مبدأ «الدافع»خلف أي سلوك، سواء دافع

أخلاقي، مادي إلخ خاصة بعد تكرار مشاهدة السلوك وما ينتج عنه من قبول أو انكار طيلة فترة الطفولة ثم مواجهة المجتمع، فالقبول المجتمعي لسلوك ما هو معيار يتبنى به الفتى قيمه التي قد ترافقه مدى عمره وقد تكون أساس بناء تصوراته ومنطلق اختياراته في الحياة، ويفترض بنا كمجتمع مسلم أن يكون موضوع القيم والسلوك في صميم اهتمامات باحثينا ، غير أننا في تحضيرنا لهذا البحث المتواضع واجهنا صعوبة في ايجاد بحوث تتناول تشكل القيم لدى هذه الفئة في مجتمعنا، أو حتى استطلاعات ترصد السلوكيات وتقربنا لفهم تأثير التغيرات المجتمعية على قيم المراهقين وسلوكياتهم

فلنا أن نتصور حجم الفجوة الموجودة بين أهمية هذه المرحلة من حيث بناء التصورات والقيم مقابل غياب الاهتمام المعرفي بهـ

مجتمع مراهق ممتد:

قد يبدو العنوان مبالغا فيه ، غير أن كل الدراسات اليوم باتت تؤكد على تأخر سن المراهقة وتمددها، إنها صورة مجتمع مراهق يرفض أن ينضج تماما كما كانت منذ فترة مضت متلازمة بيتر بان تصف الشاب الذي لا يكبر، يبدو لنا اليوم أنها متلازمة جيل ،هذا الجيل بفئته الممتدة يؤثر حتى نمط حياة البالغين بطرق أكثر حدة من الأجيال الماضية، انه فرد مقلق للأسرة، ومستهلك مهم في السوق تدار عليه حروب تسويقية كثيرة، إنها اكبر فئة متفاعلة مستهلكة وصانعة للمحتوى على مواقع التواصل، وهي ليست فقط فئة تستعمل التكنلوجيا مثل أي جيل صادف في حياته اكتشافات واختراعات غيرت مسار العالم، نتحدث اليوم عن ثورة رقمية وثورة تواصلية سهلت وصول المراهقين لمواقع التأثير بصورة سهلة وسريعة جدا، وما نريد توضيحه هنا هو مدى تغافلنا عن المساحة التي يشغلها المراهقون اليوم

إن تمـدد مرحلـة المراهقـة بتأثيـر التحـولات الاجتماعيـة الغربيـة يضعنـا أمـام فئـة تتمايـز بمجموعـة صفـات مشـتركة يكبـر عددهـا وتـزداد الظواهـر فيهـا حـدة، مـا يؤكـد أهميـة حضـور إشـكالياتها فـي ذهـن كل مهتـم بالشـأن التربـوي والفكـري

إمكانيات وطاقات :

إن القيـاس الموضوعـي العلمـي للقـدرات المعرفيـة ، النفسـية والجسـدية، الاسـتعدادية ، التفـرغ الزمنـي إلـخ يبيـن أنهـا مرحلـة بمخـزون طاقـات وامكانيـات كبيـر ، وقـد يعيننـا البحـث التاريخـيّ فـي تأكيـد جانـب الإمـكان المشـروط بفهـم اخـتلاف السـياقين الماضـي والحاضـر.

ومـا التغيـرات الاجتماعيـة الحاصلـة ؛والتـي جعلـت هـذه المرحلـة العمريـة مـن الفتـرات الأقـل إنتاجيـة بـل ووصمتهـا بوصـم العالـة علـى باقـي الفئـات العمريـة؛ إلا سـبب آخـر لإعطـاء هـذا الموضـوع مكانـا ضمـن الاهتمامات البحثية.

ظواهر التسرب وعلاقتها بظاهرة العزوف

يظهـر لنـا ممـا سـبق أن أهميـة هـذه المرحلـة مـن ناحيـة كونهـا مرحلـة تأسيسـية لمجموعـة مـن القيـم والتصـورات وكـذا مـن ناحيـة اتسـاع الشـريحة الممثلـة لهـا ومـا تحتويـه مـن طاقـات، يقابلـه اهتمـام نظـري وعملـي شـحيح مـا يعـزز مـن ظواهـر التسـرب فيهـا، هـذه الأخيـرة تتصـل بطريقـة مباشـرة او غيـر مباشـرة بظاهـرة العـزوف عـن الشـأن الفكـري

نقطة انعطاف والاتجاه، مسارات مستقبلية :

«أخطـر مراحـل العمـر التـي يتهيـأ فيهـا الإنسـان للـصلاح والهـدى والإنتـاج والعمـل المثمـر مرحلتـان: المراهقـة والبلـوغ » ١(محمـد قطـب)

كثيـر مـن المهتميـن بالمجـال التربـوي يلاحظـون تهيـج النفـس لاختيـار الهـدى والـصلاح بمـا يشـبه الشـحنة الروحيـة التـي تتفجـر فـي هـذا العمـر وهـذا

ما وجدناه في بعض الاستبيانات كالذي نشره الأستاذ عبد الله الطارقي درس فيه استعدادية بعض تلاميذ الثانوي للصلاح الديني في هذا العمر ومن نتائجه عدد التلاميذ الذين أبدوا استعدادًا كبيرا للالتزام الديني والصلاح يفوق الثلاث ارباع

كذلك كانت الإجابات عن سؤال «هل حدثتك نفسك من قبل بالالتزام الديني » ؛في استبياننا الذي سنرفق به بحثنا؛وكذا انخراط الفئة في المدارس القرآنية والمساجد تصب في نفس الفكرة المذكورة آنفا؛ وهنا يبرز إشكال سوء استغلال هذه الشحنة الدينية من جوانب عديدة سنحاول توضيحها:

-العاطفة الدينية : قد لا يكون الإشكال في استغلال العاطفة الدينية لاستقطاب الشباب الصغير نحو الصلاح لكن الملاحظ ان الكثير مما يحدث على مستوى بعض المساجد وبعض الأسر أيضا هو تأجيج للعاطفة الدينية و غياب تام لربط هذه العاطفة بترسيخ القيم والمبادئ الإسلامية ، نلاحظ ان المواضيع الدينية الرائجة التي يختاطَب بها المراهقون هي مواضيع من قبيل عذاب القبر أهوال يوم القيامة، وبعض الغيبيات الأشبه بالغرائبيات التي تروق خيالاتهم المتقدة في هذا العمر

وربما أسوء فئة هي تلك التي تستغل تلك الاستعدادية لبث قناعاتها في العقول خاصة إذا تميزت أفكار هذه الفئة بالتسطيح والتبسيط المخل الذي قد يعطي للمندفع أساسا دفعة إضافية نحو وهم التميز والصلاح والوصاية على الغير في تعبيرات من قبيل «الفرقة الناجية»؛ وغياب التوازن في ثنائية (فرد/مجتمع) في اتجاه يمهد بوضوح للتدين الشكلي والفردي ، فإما يغيب فكرة اهمية إصلاح النفس وعدم التركيز على تغيير الآخر أو تغيب فكرة المسؤولية الدينية المجتمعية المساهمة في صلاح المجتمع، أوإيلاء بالغ الاهتمام بتحصيل المعرفة الدينية دون التركيز على أثرها على البناء النفسي السلوكي

أنها ظاهرة تسرب اساسها غياب المنهجية التي توظف التكليف الشرعي والتدرج المنطقي في دخول الطفل لمرحلة البلوغ بدمج العاطفة الدينية مرحليا في هذه التكليفات توازيا مع التركيز على التعقل الديني وفهم مبادى الدين وقيمه

خط اللارجعة :

لا يمكن الادعاء بأن ما يعايشه المراهق في هذه الفترة سيرسم بصورة حتمية كل ملامح حياته المستقبلية، فلا وجود لقواعد ثابتة لكن الملاحظ في سياقنا المعاصر بعد التغيرات الاجتماعية في العالم الغربي وتأثيرات العولمة على مؤسسات التنشئة الاجتماعية، نجد أن الخروج عن نمط حياة تعوده المراهق بات أصعب من ذي قبل، ثمة ثقافة تكرس الاستهلاك وتطبع مع التفاهة تمهد للسلوكيات القهرية الأشبه بسلوكات المدمنين، ليس الإشكال فقط في هذه الجرعة من الادمان الموجودة في الكثير من النشاطات اليومية للمراهقين لكن المقلق هو منحى التطبيع الذي نتجه إليه مع ما تفرزه وسائل العصر، الاعتياد على نمط واحد من التلقي passif، وهم المعرفة المتشكل خاصة لمن اتخذ هذه الوسائط مهربا من واجبات التعلم الحقيقي إلى وهم التعلم الذي يتميز بالتشتت ويزيد من اعتياد المتلقي على المحتوى السطحي الترفيهي المبسط . قد يغرق المراهق مبكرا جدا في هذه السلوكيات التي تُصَعِّب عليه مستقبلا ادراك الخلل في بنائه النفسي والمعرفي وملاحظة ذاك الميل للعزوف عن أي انخراط جاد في مساحات التغيير الذاتي او المجتمعي مستقبلا، إذ أننا كائنات متكيفة بامتياز، حتى لو كان غاب عن الوضع الجديد الذي نضطر للتكيف معه الهدف والغاية وما الهيدونية والعدمية عنا ببعيد ، وفي صورة اقل حدة على الصعيد القيمي قد نجد عندنا المافيهاشية وهي اقرب للعبثية

أوجه التصالح السلبي مع ظواهر التسرب والتمهيد لظاهرة العزوف :

طيلة فترة المراهقة التي لا نجد في الأذهان اليوم تصورا موحدا عنها، نتصالح مع عدد كبير من الظواهر التي ستخلق لنا تسربا في الطاقات وتمهد لظاهرة عزوف الشاب عن الشأن الفكري وسأحاول توضيح بعض الجوانب التي تتقاطع مع المواضيع الفرعية التي تعالجها الورقات البحثية للموضوع الكلي وهو ظاهرة عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري

يتشكل المزاج العبثي لدى المراهق تدريجيا وبسبب اضطراب مفاهيمي حاصل في الاصطلاح يترجمه غموض للمرحلة ، حاجياتها وحدودها ، فإن هذا المزاج العبثي سرعان ما يتحول لأمر طبيعي ، ومالذي قد يكونه مراهق اليوم غير ذاك الصبي الطائش العبثي، لكنه سرعان ما يسجد نفسه ملاما على عدم تخطيطه لأهدافه المستقبلية وسيجد نفسه مواجها لمسؤليات لم يهيئ لها ،تراه يعاني انفصالات كثيرة مثل انفصال النضج عن المسؤولية

لذا فقد يكون علاج هذه الظواهر في هذه المرحلة بمثابة الوقاية او التخفيف من عنصر الادمان المبكر و التطبيع المزمن مع أسلوب حياة الترفيه والتفاهة والمزاج العبثي ، وهي ما تعالجه باقي ورقات بحث زملائي :الإنسان الهامشي المعتزل طوعيا عن مسؤوليته ،الذي يعاني من مجموعة انفصالات عرقلت تشكل نموذج غائيّ حياتي

في المفهوم والمصطلح

إن المفهوم هو المحتوى المعرفي أو المعنى الكامن ،أو التصور المجرد الذي ينتقل بيننا باللفظ والرمز المشير إليه (المصطلح) . يقال «لا مشاحة في الاصطلاح» ، أي لا منازعة ولا ضنة على اللفظ ما دام المعنى المراد واحداً ، لكن ماذا لو كان الاصطلاح واحداً بينما يداري باتفاق النطق إختلافا جوهريا في المفهوم؟

إن المصطلح على غرار أدوات العلم المختلفة يعدو أن يكون مجرد رمز لغوي على هامش الحوارات الفكرية. إذ لا يقتصر دوره على كونه وسيلة للتعبير والتواصل، بل يمتد ليشكل جسراً بين العلوم وأهلها ،كما يسهم في ضبط المعرفة وتحديد المفاهيم بدقة

تحرير المصطلح وتحديده بدقة يُعد خطوة أساسية نحو فهم أعمق وأكثر شمولًا للمفاهيم النفسية والاجتماعية، خاصة تلك المتعلقة بمرحلة المراهقة. فبضبط المصطلحات وتوضيح معانيها بشكل دقيق، يصبح من الممكن للمختصين وغير المختصين التفاعل الصحيح مع هذه المرحلة الحيوية، توازيا مع بناء حوار فكري مستنير يعزز الفهم الصحيح للتغيرات التي يمر بها المراهقون، ويسهل التعامل مع التحديات النفسية والاجتماعية التي تميز هذه الفترة الانتقالية

وكبداية لنلقي نظرة هل ما تقوله القواميس حول مفهوم المراهقة.
نجد اغلب التعريفات تتفق على خطوط كبرى قد يشملها هذا التعريف:
-المراهقة هي المرحلة التي تبدأ بالبلوغ وتستمر حتى اكتمال النضج الجسمي والعقلي والاجتماعي. ترتبط هذه الفترة بالعديد من التحولات البيولوجية والنفسية والاجتماعية التي تميز الفرد وتدفعه لتكوين هوية جديدة تعكس تفاعلاته مع محيطه وبيئته. تشمل هذه المرحلة تغييرات كبيرة على المستوى الجسمي، بدءًا من البلوغ ووصولًا إلى اكتمال النمو العظمي والنضج الجنسي

ثم تبدأ الاختلافات في تحديد المدة ، نقطة البداية والنهاية ، فنجد مثلا:
1. تبدأ بالبلوغ وتستمر حتى النضج الجسمي (زهيران، حامد عبد السلام، 1987، "قاموس علم النفس"، عالم الكتب، القاهرة، ص 14)

2. تبدأ بالبلوغ وتنتهي بوصول الفرد إلى سن الرشد (عاقل، فاخر، 1979، "معجم علم النفس"، دار العلم للملايين، بيروت، ص 22)

3. تقع بين مرحلة الطفولة ومرحلة الرشد وتمتد في الفترة الزمنية

بيـن 13-20 عامًـا، وهـي فتـرة تتميـز بتغيـرات بدنيـة ونفسـية واجتماعيـة (الشـربيني، لطفـي، 2002، "معجـم مصطلحـات الطـب النفسـي"، مركـز تعريـب العلـوم الصحيـة، الكويـت، ص 23)

4. المصطلـح اللاتينـي ADOLESCERE يعنـي التـدرج نحـو النضـج الجسـمي والعقلـي والاجتماعـي، ويشـير إلـى بـدء الدافـع الجنسـي وظهـور الصفـات البيولوجيـة والنفسـية والاجتماعيـة الجديـدة التـي تسـهم فـي تشـكيل هويـة الفـرد وإنشـاء علاقاتـه مـع الآخريـن (زيـدان، محمـد مصطفـى، 1410 هـ، "النمـو النفسـي للطفـل والمراهـق"، دار الشـروق، جـدة، ص 24)

5.المراهقـة: تقـع بيـن مرحلـة الطفولـة والنضـج، وتمتـد فـي الفتـرة الزمنيـة (13-20)، وتتميـز بحـدوث تغييـرات بدنيـة، نفسـية واجتماعيـة (عاقـل، فاخـر (1979). معجـم علـم النفـس. بيـروت: دار العلـم للملاييـن)

6.المراهقـة (ADOLESCENCE): مشـتقة مـن الفعـل اللاتينـي (ADOLESCERE) ومعنـاه التـدرج نحـو النضـج الجسـمي، والجنسـى، والعقلـي، والانفعالـي، والاجتماعـي (الشـربيني، لطفـي (2002). معجـم مصطلحـات الطـب النفسـي)

علـى أن المقـرر فـي علـم النفـس أن مصطلـح المراهقـة لا يعنـي البلـوغ والشباب كمترادفات فالمراهقـة تعنـي التغيـرات الجسمية، والعقليـة والانفعاليـة والاجتماعيـة، التـي تتـم فـي فتـرة العقـد الثانـي مـن العمـر ولـذا يطلـق أحيانًـا علـى المراهقيـن TEEN AGERE.

ويعنـي البلـوغ (PUBERTY)الجانـب العضـوي للمراهـق مـن حيـث نضـوج الوظيفـة الجنسـية، ويحـدد «هيرمـان» البلـوغ بأنـه : مرحلـة مـن مراحـل النمـو الفسـيولوجي العضـوي التـي تسـبق المراهقـة وتحـدد نشـأتها وفيهـا يتحـول الفـرد مـن كائـن لا جنسـي إلـى كائـن جنسـي)

وعليه فسائر تعريفات المراهقة تطلقها على ما يشمل المرحلة العمرية من البلوغ وحتى النضج مما يجعل المراهقة تمتد إلى سن 21 أو 24. يجعلنا هذا نتساءل حول أصل تصنيف المراحل العمرية وتسميتها

تسمية المراحل العمرية ليس ترفا

عملية تسمية المراحل العمرية تعد في الحقيقة عملية تصنيف، والتصنيف لا يجري خبط عشواء، بل هو وليد فلسفة وقيم ولَّدته وظهر عنها ،ولذا نجد تصنيف المراحل العمرية لدى فرويد ليس هو تصنيف بياجيه، وليس هو تصنيف إريكسون، لأن الفلسفة التي ينبع منها تصنيف كل منهم تتباين عن الأخرى، ولذا تباينَ منهجية التوجيه عند كل واحد منهم

ففرويد تتبع مراحل النمو وفق انتقال الشهوة والشبق الجنسي عبر كل مرحلة عمرية، وبياجيه التفت للنمو المعرفي للإنسان، وإريكسون مع أنه من مدرسة التحليل النفسي إلا أنه قسم النمو باعتبار النمو الاجتماعي، ما حمل إيريك دي جرويلر "Eric de Grolier" على أن يجزم بعدم وجود تصنيف في أي مجال يمكن أن يخلو من القيم

ولذلك -أيضًا- لا عجب أن التصور الإسلامي له تصنيفه للمراحل العمرية وتسمياته الخاصّة بها، مستندًا في ذلك للنص الشرعي كتابًا وسنّة، والنص الشرعي حين تناول المراحل العمرية وصفها ووضع لها مصطلحاتها ومسمياتها التي تليق بها وتناسبها؛ جعل لتلك الأسماء والمصطلحات أثرًا في كثير من الأحكام والتوجيهات الشرعية، منها على سبيل المثال:

- مسائل قبول إسلام الصبي.
- مسائل الرضاع، والحضانة.
- مسائل الصلاة والأمر بها والتأديب عليها.
- مسائل الولاية على اليتيم.
- مسائل الحج والصيام.

وحين يتغير المسمى وفق الوضع اللغوي الذي ارتبط به الموقف الشرعي; فإن ذلك مُؤذِنَ باضطراب في فهم المرحلة العمرية، وتحديد المنهج الشرعي في الدراسة والتوجيه والتعامل،

بل مؤذن باضطرابنا في تطبيق الحكم الشرعي المناسب. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «فما أطلقه الله من الأسماء وعلق به الأحكام من الأمر والنهي والتحليل والتحريم لم يكن لأحد أن يقيده إلا بدلالة من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم»، ولنفهم مكمن الإضطراب ومنشأه لا بد من تتبع تاريخيّ للمصطلح ، تشكله ثم التغيرات الحاصلة أثناء النقل والترجمة

التتبع التاريخيّ للمصطلح:

-في اللسان العربي والقرآن والسنة :

لقد تناول الوحي المراحل العمرية وسماها بأسمائها، ووضع لها مصطلحاتها الخاصة بها ؛ فقد سمى الله تعالى في كتابه مرحلة الطفولة فقال : أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء ﴾ [النور : ٣١]

وفرق بين الطفولة والبلوغ فقال سبحانه في تسمية مرحلة البلوغ: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور : ٥٩)

وأنت ترى في ذلك كيف ارتبط الحكم الشرعي بمسمى المرحلة ومصطلحها في القرآن الكريم وهو أمر من الأهمية بمكان

أما المراهقة : فقد وردت مادة (رهق) في القرآن الكريم في مواضع منها قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا [الجن:٦)، وقوله تعالى : ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣) ، وقوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر : ١٧]، وقوله تعالى : تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤١)

وليس مرادا بها المراهقة كمرحلة عمرية، كما بين ذلك المفسرون[13].

أما في السنة المطهرة فقد وردت هذه المادة مرادا بها المرحلة العمرية في مواضع متعددة من الأحاديث والآثار، ونسوق منها مواضع صريحة في إرادة المرحلة العمرية وفق ما قررناه

الموضع الأول: عن أنس بن مالك رضي الله عنه[14] أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي طلحة : «التمس لي غلاما من غلمانكم يخدمني؛ حتى أخرج إلى خيبر». فخرج بي أبو طلحة مُرْدِفي، وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل.[15]

الموضع الثاني : أثر عفيف بن عمرو الكندي رضي الله عنه قال: كنت امرأً تاجراً، وكنت صديقا للعباس بن عبد المطلب في الجاهلية، فقدمت لتجارة فنزلت على العباس بن عبد المطلب بمنى، فجاء رجل فنظر إلى الشمس حين مالت، فقام يصلي، ثم جاءت امرأة فقامت تصلي، ثم جاء غلام حين راهق الحلم فقام يصلي، فقلت للعباس: من هذا؟ فقال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، يزعم أنه نبي ولم يتابعه على أمره غير هذه المرأة، وهذا الغلام، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد امرأته، و هذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب. قال عفيف الكندي - وأسلم و حسن إسلامه : لوددت أني كنتُ أسلمت يومئذ فيكون لي ربع الإسلام)[16].

الموضع الثالث : أثر عبد الله بن عباس أنه قال: (صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم بمنى إلى غير جدار، فجئت راكبا على حمار لي،

13 . ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل، ١٤٢٠هـ تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر، الرياض السعودية (٢٣٩/٨)

14 . قال الذهبي: أنس قد خدم النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يحتلم، وقبل جريان القلم سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان (٢٣٢/١٣)

15 . رواه البخاري حديث رقم (٢٨٩٣).

16 . رواه الحاكم في المستدرك (٢٠١/٣)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي في تعليقه : «صحيح».

وأنا يومئذ قد راهقت الاحتلام، فمررت بين يدي بعض الصف، فنزلت وأرسلت الحمار يرتع ودخلت مع الناس، فلم ينكر ذلك علي أحد).[17]

الموضع الرابع : أثر الحسن بن علي رضي الله عنهما الذي يقول فيه: (أدركت عثمان رضي الله عنه وأنا يومئذ قد راهقت الحلم)

وفي ظلال هذه الآثار ينبغي التنبه إلى أن الدلالة اللغوية لمصطلح «المراهقة» هي ذاتها في عرف الصحابة رضي الله عنهم في زمن التنزيل، وهذا ضابط مهم؛ إذ العرف التداولي في زمنهم على مصطلح تعلق به الحكم الشرعي؛ حجة على من بعدهم

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ، ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم، وعادتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضعه، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعاداتهم في الألفاظ ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، وقد يكون مراد الله ورسله والصحابة خلاف ذلك)[18]

-المراهقة في الأثر :

أجرى الدكتور تتبعاً تاريخيا - فيما وقف عليه من المصادر - لهذا المصطلح من القرن الأول؛ حتى القرن الخامس عشر فوجد أن المراهقة - عند المتقدمين - ومن نحا نحوهم تنصرف على ما سبق بيانه، وهذه أمثلة من أقوال العلماء في ذلك :

الإمام مالك بن أنس (ت : ١٧٩ هـ) قال : (لا يكون البلوغ شرطاً في استحقاق السهم، ويُسهم للمراهق إذا أطاق القتال)

17 . رواه البيهقي في الكبرى (٢٧٣/٢)، وهو في البخاري (٤/٧) بلفظ ناهزت.

18 . ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم ١٤٢٢هـ، قاعدة جليلة في التوسل

الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت : ٢٠٤هـ) قال في الأم: في الغلام المراهق لم يبلغ يهل بالحج، ثم يصيب امرأته قبل عرفة ، ثم يحتلم بعرفة يمضي في حجه، ولا أرى هذه الحجة مجزئة)

-في السياق الغربي :

تبع مصطلح المراهقة (Adolescence) في البيئة الغربية؛ بوفقك على حقيقة أن دراستها بالوضع الحالي أمر حادث، حيث يذكر (ديورانت Durant) - الفيلسوف الشهير - أن الغلام في المجتمع اليوناني كان يقترب من سن العقل في السابعة أو الثامنة من عمره. وإذا بلغ الأولاد الثامنة عشرة من عمرهم بدؤوا المرحلة الرابعة من مراحل الحياة الأثينية: الطفولة والشباب والرجولة والكهولة، وفيها ينخرطون في صفوف شبان أثينا المعروفين بمنظمات الشباب.وحدد القانون الروماني الزواج؛ الثانية عشرة للفتاة، والرابعة عشرة للغلام، وكان القانون اليوناني يجعل الزواج إجباريا

ويذكر (ديورانت Durant) أن الأولاد في المجتمع النصراني كانوا يبلغون سن العمل وهم في الثانية عشرة من عمرهم، ويبلغون سن الرشد القانوني في السادسة عشرة. وكان النضج المالي، أي القدرة على كفالة الأسرة، يجيء بعد النضج الجنسي. بل ذكر عن اليهود أنهم كانوا يقيمون حفلاً للشاب إذا بلغ الثالثة عشرة إيذاناً بدخوله ميدان الرجولة

وبهذا يتضح أن المراهقة لم تكن في العصور القديمة تشكل أزمة أو مشكلة، بل كان الطفل بمجرد بلوغه يدخل حياة الراشدين، ويتنقل من مكانة الطفولة إلى منزلة الكهل على إثر ظهور علامات البلوغ، فيعمل ويكافح ويعتمد على ذاته ويتحمل المسؤولية

والدراسات التاريخية بأوروبا الغربية تثبت أن عزل سن المراهقة لم يحدث

إلا على إثر بعثرة التقاليد والأنظمة الاجتماعية نتيجة للثورة الصناعية الأولى، ومند ذلك الحين استمر الجدل حول طبيعة المراهقين ونمو وتطور شخصياتهم في هذه المرحلة، وفي هذا الصدد نُقل أن مراحل النمو عند الفرنسيين في القرن السادس عشر - فيما استخدموه من اللاتينية - ثلاث مراحل: الطفولة، والشباب، والكهولة، وكثيراً ما استخدمت كلمة صبي وكلمة مراهق بمعنى واحد، تشير إلى الصغار من الذكور. وكان الطفل ينتقل إلى فترة الشباب مباشرة.

وبهذا نعلم أن دراسة (المراهقة) بوضعها الحالي أمر حادث في الغرب. خصوصاً إذا علمت أن "ستانلي هول" هو أول من أفرد المراهقة بالدراسة فإن ذلك كان سنة 1904 م

اضطراب المصطلح

إن أي قضية إنسانية تأخذ أبعادها من منطلقاتها وأصولها الجذرية ومصطلحاتها التي تمثل محوراً لأدبياتها، وبالتالي فإننا حين ندرسها سنلاحظ تلك الخصوصية التي تدعونا للتأني أو للتوقف والمراجعة في نقلها عن أي ثقافة أخرى، ولأن كل دال في العلوم الاجتماعية والإنسانية متجذر في تشكيل حضاري فريد له لغته المعجمية والحضارية الفريدة، الأمر الذي يجعل عملية نقله من سياق حضاري لآخر عملية يشوبها كثير من الصعوبة والتعقد والتركيب، والبحث في العلوم الإنسانية عزيز الحيدة، ميال إلى صور التحيزات الشخصية والحضارية وهذا ما حصل كثير منه في أدبيات ومصطلحات المرحلة العمرية التي نحن بصددها، وفي الوقت الذي يمثل الاصطلاح العلمي إحدى الركائز الأساسية للتعبير العلمي، فإن الاصطلاح الوافد يمثل تحديا عظيما على اختبار قدرة اللغة على استيعابه والتعبير عنه، وما لم تتمكن اللغة - أي لغة - من ذلك، فإنها توصف بالعقم والعجز والقصور، ولذا يُعرف بعضهم الاصطلاح بأنه أداة البحث ولغة التفاهم بين العلماء

كيف يقع الخطأ غالبًا ف نقل المصطلحات النفسية من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية؟

إن مشكلة المصطلحات في علم النفس داخل الأوساط المختصة بالعلوم النفسية في البلدان العربية الإسلامية تأتي على مستويين :

*المستوى الأول : وضع المصطلحات العربية المقابلة للمصطلحات الأجنبية المتدفقة عليه باستمرار، ومنشأ المشكلة أن العالم الغربي هو المنتج للمعرفة النفسية والمبتكر للمصطلحات الجديدة ف الميدان، بينما يكتفي الدارسون في العالم الإسلامي بالاستهلاك. وف هذا الوضع الأخير يُختزَل مشكل وضع المصطلحات إلى مشكل ترجمة بالأساس، وقد حلت مشكلة الترجمة هذه بإحدى طرق ثلاث هي :

-الرجوع إلى المعاجم أولاً : لنجد اللفظ العربي المقابل للمصطلح الأجنبي فنستعمل اللفظ العربي بدلالة المصطلح الأجنبي ومعناه، ثم يتم تداوله كمصطلح عربي. وقد أدى استعمال هذه الطريقة إلى الوقوع في أخطاء فظيعة (وهذا ما وقع ف مصطلح المراهقة)

-وضع المقابل العربي الحرفي، ولو تعددت تلك المقابلات بتعدد المترجمين لعدم التنسيق بينهم، خاصة حين يكون المصطلح حديثا

-كتابة المصطلح الأجنبي بحروف عربية كما هو، وهذا الحل الأقرب للصحة بسبب ضعف التكوين اللغوي للمترجمين (مثل: سيكلوجيا، إكلينيكي، امبريقي، سيكوباتي...).

*المستوى الثاني : مستوى خاص بفئة من الباحثين وهم من يريد الانتقال لمرحلة العطاء بدلاً من النقل والترجمة وتواجههم مشكلة أخرى هي: أن المصطلح الغربي له دلالات أخرى يستعمل بها في بيئته الأصلية، ليست هي الدلالات التي لدينا وغير ذلك

انتقال مصطلح المراهقة :

ونوضح هنا ما حصل في نقل «المراهقة» حيث نقل مصطلح «Adolescence» كما هو في اللغة الإنجليزية، وهو مصطلح موضوع لوصف مرحلة الانتقال من البلوغ إلى النضج الجنسي ; وتوصف تلك المرحلة في الكتب الغربية بالاضطراب و السَّفَه والخفّة، فلما أريد نقل هذا المصطلح وجد المترجمون والنقلة أنه يتفق مع كلمة «الرهق» وهي: السَّفَه والخِفَّة وركوب الشر ... فنقل المصطلح، وسهل انتزاع كلمة «مراهقة» من «الرهق» اسما للمرحلة، فكل من يمر بهذه المرحلة مراهق، والمرحلة : المراهقة

ثم أُخِذَ كل ما في تلك الكتب عن «Adolescence» وطبق على مسمى «مرحلة المراهقة»

وفي هذه الطريقة التي تُرجمت بها التسمية لهذه المرحلة أخطاء توضحها ما يلي :

1.المصطلح الغربي : «Adolescence» معناه : الانتقال لمرحلة الرشد أو النضج الجنسي. وليس معناه: السَّفَه والخفة. ولو سلمنا جدلاً أن معناه السفه والخفة فإن هذا معناه في اللغة الرهق وليس المراهقة

2.العرب يقولون: رجل به رهق لكنهم لا يقولون: رجل مراهق البتة، الفعلان «رهق» و «راهق» فعلان متغايران، الأول ثلاثي يدل على الطيش والسفه، والثاني رباعي معناه : مقاربة البلوغ.

فالفرق واضح في قول العرب: رجل به رهق أي سفه، وقولهم : غلام مراهق أي مقارب للبلوغ

3.المباينة وانقطاع العلاقة بالمعنى اللغوي والاصطلاحي، الأمر الذي أجمعت مجامع اللغة العربية على رفض المصطلح المتسم به

4.تصريح العلماء الذين وضعوا الموسوعة الفقهية الكويتية حيث قالوا:

المراهقة : مقاربة البلوغ، وراهق الغلام والفتاة مراهقة : قاربا البلوغ ولم يبلغا، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، وبهذا تكون المراهقة والبلوغ لفظي متباينين (انظر القاموس المحيط مادة رهق + الموسوعة الفقهية)١٤١٤هـ

5.توارد العلماء في الشريعة واللغة على إطلاق مصطح المراهقة على مرحلة أخرى ليست هي مرحلة البلوغ كما سبق بيانه

وبهذا يتبين لنا الخطأ الذي وقع في ترجمة هذا المصطلح.

الترجمة ونقل الحمولة الأيديولوجية:

إن للألفاظ المترجمة عن اللغات الأخرى أثر على المصطلح العربي إذ باتت ولادته رهينة بولادة المصطلح الغربي، وأمسى تداول المصطلحات العربية والخطاب العلمي وقفا على درجة تُمكن المتلقي من المصطلحات الغربية ومفاهيمها وهذا ينم عن أمرين :

1 - أن الجهاز المصطلحي العربي يكاد يكون غربيا في مفاهيمه، وشبه عربي في صياغته

2 - أن مهمة المفكر العربي ظلت منحصرة في محاولة استيعاب العلمية الغربية ونقلها إلى العربية، حتى ذهب بعض المعاصرين في تعريف علم المصطلح ب : «إيجاد المقابل العربي للمصطلح العلمي باللغة الأجنبية»

وبهذا يكتمل الانصهار في أحضان حضارة أخرى يرى البعض لزوم الوقوف عندها، والاكتفاء بالنقل عنها، والاحتكام إلى مواضعاتها العلمية في شتى المجالات.

والشكوى من هذا الوارد على العربية هم متوارث، حبر فيه القدماء من أمثال الباقلاني والجاحظ وغيرهم، غير أنه في العصور الأخيرة ازداد حدة

بانضمام عنصر جديد وهو المركزية الغربية، وفي هذا يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- «إن معظم تعاريفنا للظواهر الإنسانية تستند إلى تعريفات الغرب وتجاربه، فنحن نستورد كثيراً من مصطلحاتنا من الغرب، وهو ما يبين إيماننا بمركزية الغرب وعالميته».

وفي موضوع المراهقة نرى بوضوح كيف أن النفسية المترجمة ؛التي تشكلت في السياقين السابقيْ الذكر؛ ساهمت في زيادة تلك الوصمة بحق الشباب، فهذه الدراسة العتيقة الأولى في العالم الغربي عن المراهقة ،وهي دراسة الباحث النفسي الشهير استانلي هول سنة ٤٠٩١ م الذي تتلمذ على يد النفساني الألماني الذي ينسب إليه الفضل في فصل علم النفس عن الفلسفة «ويلهلم فونت» حيث كان مما توصل إليه هول في دراسته للمراهقة: «أن المراهق مريض نفسيا، وأنه أقرب ما يكون إلى الحالة الهستيرية المتقلبة»، وعلى منهجه سار تلميذه «ستارليك» الذي يرى أيضا أن «المراهقة» مرحلة شذوذ وغرابة في السلوك تستمر كذلك حتى النضج والرشد، أما «فرويد» فيرى أن المراهق تسيطر على حياته جملة من الاضطرابات ليس فقط في الحياة الجنسية بل في مشاعره أيضا كالكآبة والحزن، لكنه في نهاية الأمر يرد كل تلك الاضطرابات للناحية الجنسية

ونُقِلت مثل هذه الاتجاهات النفسية إلى الدراسات العربية بتصور حياديته التي تجعله صالحًا للنقل من ثقافة لأخرى بغير نقد ولا تمحيص. وبالجملة فقد تمخض عن ذلك النقل استمرار العار المنسوب للمراهقين وحالة التمرد التي ربما وجدوا لها مسوغاً

إنها حالة من نقل المصطلح بحمولته فينفذ لقلب المفهوم ويغير بعض التصورات عن الذات والآخر.

ورغم كل هذا، لا يمكن لأي ثقافة أن تتطور، ولا لأي لغة أن تبقى حية دون ان تهبر هي وتعبر عبرها ثقافات أخرى، خاصة اذا أخذنا بعين الإعتبار

السياق الذي تميز فيه الغرب بانتاج معرفي كبير في شتى المجالات بما في ذلك النفسي والاجتماعي، كيف يمكن أن يكون ذاك التثاقف سليما في ظل ما سبق ذِكره؟

بين التثاقف والاستلاب

the most factor shaping psychology in the international context continues to be power inequalities between and within nations. The inability of psychology to contribute to Third World development arises in large part from these inequalities... and surely this is an unethical isssue

Putative psychological «knowledge» which is of highly questionable reliability and validity even in the Western context is being exported wholesale to Third World societies، as part of a large exchange .system ultimately driven by profits the United States has established itself as the only psychology Superpower...Psychology continues to be exported from the U.S. to the rest of the world، with little or no serious attention given to the appropriateness of what is being exported... Similarly، Third World psychologists are trained in the U.S. and in other Western countries، without regard to the question of the appropriateness of their training. Indeed، the continued exportation...and inappropriately trained personnel from Western to

Third World societies strengthens ties of dependency and continues exploitative traditions established through colonialism (54-pp. 53 ،1995)

يؤكد هذان العالمان على أن أهم العوامل التي تؤثر في تشكيل علم النفس وتأثيره في أي قطر يعتمد على مكانة ذلك القطر العالمية بالنسبة لغيره من الأقطار، وإن فشل علم النفس الغربي في مساعدة الدول النامية فيما يسمى بالعالم الثالث على حل مشاكلها هو بسبب هذا الفرق الشاسع بين هذه البلدان والدول الغربية، لذلك فإن التصدير الكلي للعلوم النفسية الغربية التي ليس لها مستوى مقبول من الصدق والثبات حتى في بلدانها الأوروبية لهذه الدول بوصفها معارف ثابتة هو عمل غير أخلاقي فإذا اعتبر الغربي من داخل المدرسة المنتجة لهذه المقولات مواصلة تصديرها عملا غير أخلاقيا فما الذي يمكننا القول عن مواصلة تقبل هذه العلوم بدون تمحيص أو مساءلة

المصطلح بين التثاقف والاستلاب:

وفي مجال المصطلح بالذات نفرق بين التثاقف والاستلاب، فأما التثاقف فهو انتقال المصطلح من ثقافة إلى ثقافة أخرى وهو أمر طبيعي في عالم تداخلت ثقافاته، لكن ذلك يتم بشرطين أساسيين

أولهما : ضرورة تكييف إعمال المصطلح المستورد - عند الضرورة - مع السياق الجديد للثقافة المستقبلة حتى يؤدي وظيفته، وإن أدى ذلك إلى فقدانه لبعض خصائصه في الاستعمال الأصلي

وثانيهما: الاحتفاظ بالحمولة المفاهيمية للمصطلح في استعماله الأصيل مع ضرورة التنبيه إلى ذلك إذا كان هذا النقل سيؤدي إلى وقوع خلل في المفاهيم الأصيلة بعد تأثرها بالدخيلة فيتشوه معناها بإخراجها عن سياقها

وفـي كلا الحالتيـن تظـل الحاجـة ماسـة إلـى توليـد مصطلـح بديـل يمتـح مـن الثقافـة الأصيلـة، ويسـتجيب لحاجاتهـا مـن المـادة المفاهيميـة الجديـدة، حتـى تسـاير العصـر وتتدافـع مـع غيرهـا مـن الثقافـات والتـداولات السـائدة

أمـا الاسـتلاب فهـو النقل غيـر الواعـي للمصطلحـات والمفاهيـم دون الالتزام بالشـرطين السـابقين، ومـن هنـا نقـول : إن تأصيـل «المراهقـة» كمرحلـة مهمـة مـن حيـاة الإنسـان، يتـدرج فيهـا مـن الطفولـة إلـى الرشـد، أعـده أساسـيا وهامـا، ذلـك أن التحـول مـن مرحلـة إلـى أخـرى يأخـذ نسـقا تطوريًـا تصاعديًـا، فتحـول الطفـل بيـن يـوم وليلـة إلـى راشـد يناقـض سـنن التطـور البيولوجـي، والنفسـي والعقلـي، والعاطفـي، والجسـمي، والاجتماعـي والتـي تصـل كلهـا إلـى مرحلـة النضـج فـي أزمنـة مختلفـة لكـن ينبغـي ترشـيد حركـة التأصيـل مـن خلال فحـص كل مصطلحـات العلـوم النفسـية

تحرير الاضطراب

ومـن هنـا حـق للباحـث الاجتماعـي علـي الكنـز أن يقـول قولتـه : لقـد برهنـت التجربـة أنـه مـن الصعـب اسـتعمال أدوات تحليـل مسـتوردة مـن حضـارة أخـرى، فـكل النظريـات الغربيـة قـد نتجـت مـن علاقتهـا بالعاملـي التالييـن : خصوصيـة مجتمعاتهـا وقضاياهـا الاجتماعيـة والتاريخيـة، والحقـل المعـرف

الـذي نمـت بداخلـه، ويكمـن الخطـأ فـي اعتقادنـا بأنّـه مـن الممكـن اسـتيراد نظريـات الغـرب بغـض النظـر عـن ارتباطهـا بهذيـن العامليـن

يكمـن الإضطـراب فـي إيماننـا بـأن التقسـيمات العمريـة الدينيـة وكـذا التاريخيـة كانـت أكثـر اتسـاقنا مـع منظومتنـا الدينيـة وأكثـر توافقـا مـع مـا نـراه فطريـا طبيعيـا، غيـر أن الواقـع فـرض تغييـرات اجتماعيـة جعلـت التصنيفـات الجديـدة تتأرجـح بيـن الواقـع المشـهود والوصـف المنحـاز المبنـي علـى مقدمـات لا تتسـق ومقدماتنـا الدينيـة والثقافيـة

وفي تحرير هذا الاضطراب نجد عموما بعض المواقف يعكس كل منها بعض الانحيازات الادراكية:

-أول موقف موقف عام طرد فيه المصطلح الغربي المصطلح العربي من ذهن الباحث أو المهتم بحيث لم يعد يمتلك إلا التعريف الغربي في سياقه بكل حمولاته الأيديولوجية، وهو بهذا إذا ما أولى اهتماما فإنه سيولي اهتماما لاسيما للظواهر المستوردة والإشكاليات التي لا تعنينا قصرا رغم عالمية النموذج وآثار العولمة ، وهذا راجع لضعف وسائل استقراء الواقع عندنا، كذلك فإنه يقارب هذه المرحلة بمقدمات منحازة ان لم تكن خاطئة، يغفل على اثرها عن اصل المشكل واهم هذه المشاكل مشكل التهيئة والذي سنفرد له محورا بإذن الله، يتم في هذا الموقف التطبيع مع جل مقدمات ظواهر التسرب، كما يحدث الخلط الكبير بين ما هو طبيعي ينتمي بالفعل للمرحلة وبين ما يمكن أو ما يجب اتقاؤه

-ثاني موقف يشبه ردة الفعل وهو وعي غير مكتمل بمكمن الخلل في التصور المستورد لكنه يغرد خارج الواقع ويقارن اللامقارن ، فيصنع خطابا لا يصل لهذه الفئة ويستعمل وسائل فقدت فعاليتها بفعل الزمن كما يقع ف خطئ رفض كل ما قد يفد على العلوم من جديد بحكم أنها تنتمي لمنظومة معرفية مغايرة، ولا تعدو محاولات تفسير الظواهر الاجتماعية او علاجها إلا محاولة استنطاق نصوص تراثية لها علاقة بالموضوع الذي تنتمي اليه الظاهرة ثم نقل الحلول كما هي

-وهناك بعض المواقف المشتركة بين الموقفين على تضادهما، مثلا: خصوصية المرحلة غير متعلقة بتعريفها كمرحلة عمرية فقط، لا بيولوجيا ولا لغويا او دينيا (لنقل التعريف العلمي بقولنا من السن الفلاني السن الفلاني، أو الشرعي بقولنا مثلا قبل البلوغ او بعده) إنما أهم عامل هو السياق المجتمعي والثقاف الذي صار لزاما مراعاته لوضع التصور الصحيح عن هذه المرحلة

لهذا فإن فك الاضطراب في المصطلح لا يعزو أن يكون مرحلة أولية فقط نحو فهم المرحلة وحسن التعامل مع ظواهر التسرب فيها، كأنه الشرط الأولي ليكون حضور سؤال المراهقة في ذهن الباحث حضورا صحيحا يقود للدراسة والتحليل الصحيحين

ماذا بعد تحرير المصطلح

لا يعدو تحرير المصطلح كما سبق وذكرنا أن يكون خطوة أولية للفهم الصحيح للمرحلة ثم انتاج الخطاب المناسب والفعال لإحداث التأثيرات اللازمة في العملية التربوية ، خطاب يستوعب الواقع بظواهره كما هي، ثم استغلال وسائل العصر لتفادي ظواهر التسرب التي تجهض كل خطوات تكوين الفرد المهتم بقضايا واقعه وأمته ولعل أهم الخطوات في مواجهة قضايا التسرب خطوة التهيئة

تهيئة المراهق لسن البلوغ:

من نتائج غياب تصور واضح لهذه المرحلة، وكذا نتيجة للاضطراب الحاصل ف نقل المصطلح غابت عنا احدى وسائل العبور السلس السليم ما بين مرحلتي عمريتين مهمتين: الطفولة والرشد. إن أغلب الآباء اليوم يكتشفون أن توقعاتهم تخيب إذا اعتقدوا ان قدرة ابنهم المراهق على تحمل المسؤوليات ستكون ؛دون تدخل منهم؛ نفس قدرات البالغين في وقت مضى، مع سابق علمهم باختلاف سياقات العصر، يغيب عن ذهن الأولياء وعن أذهان شريحة كبيرة من المهتمين بالشأن التربوي أيضا أن الوزن الذي نعطيه اليوم لمساحات تحقيق النضج الكامل لا يكفي لإحداث تغيير في العملية التربوية لنصل للتهيئة الفعلية من مراهق لبالغ، تماما كما لا تكفي التغيرات الفيزيولوجية ما قبل البلوغ وما بعده لتحقيق النضج العقلي ،إذ لا يمكن أن ننتظر اكتمال البناء العقلي بفعل عضوية المراهق متجاهلين دور العمليات الاجتماعية وتأثير السياق السوسيوثقافي على هذا التشكل التدريجي للنضج

صور التهيئة ومجالاتها:

التهيئـة النفسـية والسـلوكية، الدينيـة والأخلاقيـة ،المعرفيـة والثقافيـة (مـع تحفظنـا حـول التقسـيم)

1. التهيئة النفسية والسلوكية

سـنخرج أهـم صفـة كعامـل مشـترك بيـن كل الخطـوات وهـو عامـل «التـدرج»

-التدريـب التدريجـي علـى تحمـل المسـؤولية توازيـا مـع النضـج العقلـي والنفسـي:

يتأخـر بعـض المربيـن بمراحـل عـن إكسـاب الطفـل مفهـوم المسـؤولية بسـبب مقارناتهـم التـي ربمـا تعقـد بوعـي او بغيـر وعـي بيـن درجـة النضـج ؛ التـي تعكـس فـي نظرهـم قـدرة الطفـل علـى تحمـل المسـؤولية؛ بيـن أطفـال الأمـس واليـوم، متناسـين ان النضـج يبنـى أساسـا بتحمـل المسـؤوليات بالتدريج، بـدء مـن المسـؤوليات الفرديـة الصغيـرة إل المسـؤوليات المجتمعيـة، فعقـل الطفـل عكـس مـا قـد نعتقـد مهـئ لمفاهيـم معقـدة مثـل المسـؤولية المجتمعيـة ، فهـو يولـد كائنـاً اجتماعيـاً قـادرا علـى اسـتيعاب الكثيـر منوالمفاهيـم المتعلقـة بالعلاقـات

-التركيز على احترام الذات وغرس صفات العزة:

مـع فهـم المرحلـة التـي يمـر بهـا الطفـل والمحيـط الجديـد الـذي يحتضنـه عدا البيـت، مـن المهـم أن نصـل للتـوازن بيـن غـرس الثقـة وبيـن عـدم المبالغـة فيهـا مثـل الصـور المتطرفـة للتربيـة الإيجابيـة، بعـض المفاهيـم مثـل الاسـتحقاق، شـرط بـذل الجهـد لنيـل الثنـاء تصنـع فـردا أكثـر توازنـا مـن الطفـل الغـارق فـي الثنـاء غيـر مشـروط ، مـع التفريـق بيـن الحـب الغيـر مشـروط والثنـاء الغيـر المشروط

-فهم المرحلة:

عدم تهويل مرحلة المراهقة بالتركيز عليها كفترة ممتدة ، وعدم الغائها تماما بل جعلها مرحلة يركز فيها المراهق على الوصول للمرحلة القادمة، ومن هنا نشير لأهمية محاولة فهم شخصية كل طفل وخصائصه النفسية، دون إغفال تأثير تشكّل مفهوم المراهقة على التركيبة الذهنية المجتمعية، وخاصة السّياق المرافق لهذا التشكل، مع محاولة رصد التغيرات الحاصلة على مفاهيم أساسية لدى الطفل قبل أن يكون مراهقا كالنضج والمسؤولية ومحاولة ضبط العلاقة الجدلية بين الذهنيات والنموذج

2. التهيئة الدينية والأخلاقية

- التربية الجنسية: توكّد التعاليم الدينية على مفهوم مركزي مثل الاستئذان واحترام الخصوصية وهو تمهيد ما قبل البلوغ للتعامل مع الغرائز وضبطها بالسلوك، فالسلوك والخلق يجب ان يوطن في النفس قبل دخول التغيرات الفيزيولوجية على المراهق ليكون اقدر على ضبطها ، مرحلة الطفولة والمراهقة ونقصد بها قبل البلوغ هي السن الأنسب لهذه الأخلاق التي تبني المراقبة لدى الطفل واستحضار الرقيب .
- ربط القيم والأخلاق الدينية بالسلوك وعدم الاستهانة بعقل الطفل.
- محاولة حماية الطفل من بعض الظواهر التي يعاني منها المتدين المعاصر كالتمذهب المبكر والأدلجة والتصنيف مع الفهم الصحيح للدين وتثبيت العقيدة الصحيحة

3. التهيئة المعرفية

- الحفاظ على الفضول العلمي وحب المعرفة .
- غرس عادة المطالعة والتأكيد على التدرج في اختيار مستويات متصاعدة في التعقيد من المادة المعرفية المفيدة.

نظرة عن الواقع (تغير التصنيفات والأجيال ،ظواهر التسرب وأسبابها)

لننظر إلى الواقع نظرة ماكروسكوبية قررنا اختيار زاوية غريبة نوعا ما ، وهي تصنيف الأجيال.

تصنيف الأجيال، أو ما يعرف «Generation Classification» هو تصنيف شائع يستخدم لوصف المجموعات البشرية بناءً على السنوات التي ولدوا فيها، وهو مفيد لفهم الخصائص الثقافية والاجتماعية والتكنولوجية لكل جيل

1. الجيل الصامت (The Silent Generation):

- فترة الميلاد: تقريباً من 1928 إلى 1945.
- السمات: عاصروا الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية. تميز هذا الجيل بالالتزام بالقيم التقليدية، والتحفظ في التعبير عن الرأي، والتركيز على العمل الجاد والمثابرة. كانت لديهم أدوار محددة بوضوح في المجتمع، مع ميل قوي للولاء للمؤسسات والعمل الجماعي.

2. جيل الطفرة السكانية (Baby Boomers):

- فترة الميلاد: تقريباً من 1946 إلى 1964.
- السمات: شهدوا فترة ازدهار اقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية. يُعرف هذا الجيل بالميل إلى العمل الجاد والإيمان بتحقيق النجاح من خلال الجهد الشخصي. العديد من هذا الجيل نشط في الثورات الاجتماعية والسياسية في الستينيات والسبعينيات، وكانوا من الداعمين للتغيرات الكبيرة مثل حقوق المرأة والحقوق المدنية.

3. الجيل إكس (Generation X):

- فترة الميلاد: تقريباً من 1965 إلى 1980.
- السمات: يعرفون أيضاً باسم "جيل المفاتيح"، حيث نشأوا في بيئة أكثر استقلالية نظراً لعمل الأبوين. شهد هذا الجيل ظهور التكنولوجيا مثل أجهزة الكمبيوتر الشخصية والإنترنت. يميلون إلى التوازن بين العمل والحياة الشخصية وهم معروفون بنظرتهم الواقعية وتقديرهم للاستقلالية.

4. جيل الألفية (Millennials أو Generation Y):

- فترة الميلاد: تقريباً من 1981 إلى 1996.
- السمات: نشأوا في عصر الإنترنت والهاتف المحمول ووسائل التواصل الاجتماعي. هذا الجيل يعتبر أكثر تنوعاً من حيث الخلفيات الثقافية والتعليمية، ويُعرف بانفتاحه على الابتكار والتكنولوجيا. يميلون إلى البحث عن التوازن بين العمل والحياة، ويركزون بشكل كبير على القضايا البيئية والاجتماعية.

5. الجيل زد (Generation Z):

- فترة الميلاد: تقريباً من 1997 إلى 2012.
- السمات: أول جيل ولد بعد ظهور الإنترنت والهواتف الذكية. يتميز هذا الجيل بقدراته العالية على استخدام التكنولوجيا الرقمية والوسائط الاجتماعية. يميلون إلى البحث عن التغيير الاجتماعي السريع ويهتمون بالقضايا المتعلقة بالمناخ، والمساواة، والشمولية.

6. جيل ألفا (Generation Alpha):

- فترة الميلاد: تقريباً من 2013 إلى 2025.
- السمات: هم أطفال الألفية وجيل زد. يُتوقع أن يكون هذا الجيل الأكثر تأثراً بالتكنولوجيا الحديثة، بما في ذلك الذكاء الاصطناعي، والتعلم الآلي، وإنترنت الأشياء. لا يزال من المبكر معرفة السمات الدقيقة لهذا الجيل، لكن من المتوقع أن يعيشوا في عالم يختلف تماماً عن الأجيال السابقة بفضل التحول الرقمي المتزايد.

هذا التصنيف قد يساعد في فهم كيفية تطور استجابة الأجيال المختلفة للتحديات والتغيرات البيئية والاقتصادية والاجتماعية إذ ان مؤشر التطور الرقمي الذي يعد مؤشراً تصنف الأجيال اليوم به غائب عن تحليلاتنا، خاصة بالنظر إلى الفترة التي تشكلت فيها اغلب ظواهر التسرب التي نواصل نسبتها للأجيال الأخيرة ، أطفال الجيل zوy يواجهون تحديا حقيقيا، اغلبهم ولد وهو محاصر بكل أنواع الأجهزة ، واقعه المرئي الافتراضي أوسع بكثير من واقعه الحقيقي، دراسات تثبت ان نسبا كبيرة مستعدة لالاستماع لنصائح الانفلونزا بدل نصائح الآباء ، والساعات التي يقضونها في المواقع هي الأعلى على الإطلاق . هذا واقع يجب ان لا يغفل عنه لدى المشتغلين بهذه المجالات

تأثير النماذج:

سقوط بعض النماذج او تراجع سلطتها احال الفتى لفراغ سرعان ما ت ملؤه بنماذج الثقافة الغالبة، إذ يجب ان لا يغفل المشتغل ف هذا المجال عن التغيرات البسيطة الحاصلة على مستوى نماذج كانت تصنع المخيلة الجمعية لأبناء الجيل(أنيم ,راب، الخ)

كأمثلة :

- تغير الراب إلى راب تسويقي.

- على مستوى الرسوم المتحركة والنماذج الخيالية: تراجع دور مركز الزهرة، تغير الدمية الأشهر عربيا «فلة» الى الشكل المعاصر (تغيير هيئتها بنزع الحجاب، واغانيها للانجليزية ،وخطابها للتنمية البشرية)

- تغير نموذج الشاب القائد: تقديم مواضيع للساحة كمواضيع الايكولوجيا، نجد هذا ايضاً في مواضيع المناظرات والنموذج المراد صناعته عالميا ليكون السؤال هل هو النموذج المناسب لنا، البعض سيقول انه افضل الشريّن ثم ينسى انه اختار شرا، فحتما المراهق المهمل لا يعول عليه، لكن هذا لا يمنعنا من نقد النموذج المراد صناعته قبل الخوض في أي إصلاح او تغيير ونعرف لماذا هذا النموذج له تاريخ صلاحية وهو يسير نحو بناء مواطن العالم «citoyen du monde» بدل مواطن بالمفهوم الوطني او فرد من أمة

في المقابل تحتل نماذج أخرى ذات سلطة ثقافية مساحة تأثير اكبر منها ،مثلا:

-الأنمي:ونلاحظ مدى اهتمام اليابان بهذه القوة الناعمة .

-الكوسبلاي: وهو تمظهر يعكس مدى التأثير الذي يصل للهوس وتتمثل الشخصية هيئة وسلوكا

-الغايمين: لدرجة تحوله من وسيلة ترفيه لوظيفة، في ظل تراجع النماذج العربية وذوبانها في الشكل الجديد، لا يمكن مقاومة جاذبية وإغواء النماذج الأخرى، تلك التي تشيد صرحها على قواعد كالمتعة والقوة والشهرة

-الكوميديا والتفاهة: من تحديات العصر انتشال المراهقين من بيئة تعج بالتفاهة والعبثية

ان النماذج المغرية المعروضة أمام المراهق اليوم أكثر استقطابا من أي نماذج أخرى موجودة على أرض الواقع، الوسائل التي صارت جزء من يومياتنا مصممة لهذا الغرض الربحي والتيارات المعاكسة التي يعول عليها في العادة لبناء مناعة من التفاهة باتت غيرقادرة على مجابهتها

إن مجرد الغوص في تفاصيل ما يلج علينا من ثقافات ليس هدفه التعجيز، فالسير في طريق صناعة البدائل يلزمه استصحاب هذه الملاحظات والقواعد العامة كي لا نقع أثناء صناعتنا للبديل في خطئ تكرار ما نريد استبداله، نحن لا نريد بديلا فقط لان هذا المنتج ينتمي لحضارة أخرى ، لا كرها في الحضارات الأخرى فالنظرة العالمية للدين تتجاوز هذا التصور بمراحل , ولا ايماناً سطحيا بنظريات المؤامرة بل لمعرفتنا بجوهر الفرق في الرؤية الكونية بيننا وبين الحضارات الأخرى من جهة وبحقيقة الصراع ووسائله بدء من قوة صلبة إلى قوة ناعمة وكلها لها تأثيرات واقعية ملموسة بتنا نعيش نتائجها

المراهق والجنس والمثلية

-كيف وصلت أوروبا إلى التساهل ثم إلى التطبيع مع بعض الجرائم الجنسية لفئة المراهقين:

ان التغيرات في مجال البحث النفسي انعكست بطبيعة الحال على المجال القانوني، اذ ان قوانين عديدة تساهلت مع جرائم المراهقين الجنسية، وخلق هذا جدالا حادا وأزمة اخلاقية يصعب الخروج منها بالمقدمات النفسية والمعرفية التي يعرف بها الباراديم الغربي المراهق اليوم

الحالة الجزائرية:

من الصعب الوصول إلى دراسات وإحصائيات متعلقة بحالات الاعتداء مثلا للقصر ، لما يشوب هذه الجرائم عادة من تستر وغموض نتيجة البعد الأخلاقي الاجتماعي وحساسية الموضوع

وبمحاولة رصد صغير فان الذين يلجؤون إلى أقسام الطب الشرعي تكتنفهم الحيرة ويسيطر عليهم رعب لا يمكن وصفه تبوح به ملامحهم وعباراتهم المبعثرة ،كثيرا ما يعترفون بان المجرم هو مراهق في الثامن عشر مثلا ، لكن سير القضية فيما بعد يتخذ مسارات أخرى بعد تدخل الأسر ويصعب جدا تتبع هذه القضايا تتبعا علميا حاليا على الأقل

ان اهم ما نريد الإشارة اليه من خلال ذكرنا لهذه الحالات التي يستبعد ان تكون نادرة هو ذاك الدور الغائب الذي قد يكون مساهما فعالا في اجتياز هذه المرحلة بدون مثل هذه الانزلاقات الأخلاقية التي تتعدد اسبابها وتتشابك العوامل المؤثرة فيها ،وهذا ما حاولنا ذكره بتبسيط محل في عنوان التربية الجنسية والتوعية والتهيئة

اضافة لذلك فإن ما يسمى بالتربية الجنسية وفق المفهوم الغربي يجب ان يخضع لدراسة حقيقة وغربلة علمية،تراعى فيه تعريفات مركزية كتعريف الإنسان ،المتعة ،الجنس ،المراهق ،طبيعة العلاقات وحدودها إلخ وتفهم مخرجات هذه المادة التعليمية بفهم منطلقاتها ثم كيف تحاول حل مشاكلها هي، ملاحظة فعاليتها ، قصورها ، ماذا نستفيد وماذا نتجنب، مع محاولة الإجابة عن أسئلة محورية مثل :

- متى وكيف يتعرف المراهق اليوم على موضوع الجنس وما طبيعة التصورات التي يكونها ؟
- ما طبيعة التأثيرات النفسية عليه؟
- هل هناك توجيهات حقيقية للتعامل مع الغريزة للمراهق ؟
- كيف نتعامل مع مواضيع الLGBT التي صارت معروضة على الصغار من عمر الطفولة بصور غير مباشرة عموما؟

ثم تكون فترة المراهقة مرحلة مهمة للفصل، إذن النقاش فيها من المفترض ان يتخذ شكلا اكثر جدية وأكثر تكيفا مع تطور وعي المراهقين

فـي هـذا الموضـوع ،إذ يملـك اغلبهـم معرفـة أوسـع بكثيـر مـن معرفـة الأهـل

الملاحـظ مـن خلال الاسـتبيان الـذي قمنـا بـه ان أغلـب المراهقيـن سـبق وان شـاهدوا مرتيـن علـى الأقـل مشـاهد جنسـية شـاذة ، كمـا ان اكثـر مـن ٢٠ ٪مـن المراهقيـن سـبق وان تواصلـوا مـع أشـخاص مـن توجهـات جنسـية شـاذة سـواء تـواصلا مباشـرا (٦٪) او عبـر المواقـع (١٤٪)

تحتـل مواقـع التيكتـوك والإنسـتغرام يليـه اليوتـوب وفـق اسـتبياننا مراتـب الصـدارة فـي المواقـع الأكثـر عرضـا للمحتـوى الشـاذ حسـب رأي المراهقيـن كمـا تعتبـر العينـة التـي قمنـا باسـتبيانها بـان الانيمـي سـهل وصـول هـذه الأفـكار فـي عمـر جـد مبكـر حتـى اكثـر مـن تأثيـر السـينما الأمريكيـة ويعتبـرون ان مـن المواقـع التـي يخوضـون فيهـا عمومـا النقـاش حـول هـذه المواضيـع مـع هـذه الفئـة هـي منصـة التيكتـوك والديسـكورد

كيف يمكن ان تكون التهيئة إذن وفق ظروفنا الحالية ؟

مـا السـبيل لتشـكيل ثقافـة /تربيـة جنسـية سـليمة مكافئـة للعصـر تحقـق تهيئـة حقيقيــة للمراهق؟

ولهـذا نحتـاج لمختصيـن يشـبكون جهودهـم لتهيئـة هـذا الفـرد ليجيـد التعامـل مبدئيــا مــع حاجاتــه الفيزيولوجيــة الجديــدة ويتفــادى الوقــوع فــي مســارات خاطئـة

نظرة في خصوصية الحالة الجزائرية

كمـا سـبق وذكرنـا فـي جزئيـة التثاقـف والاسـتلاب ان هـذه التأثيـرات العالميـة تعـزز مقولـة اسـتحضار الخصوصيـة الثقافيـة والمجتمعيـة ولا تضعفها بمـا أننـا فيمـا سـبق تحدثنـا عـن ذاك الشـرط المهـم الـذي يجعـل حضـور سـؤال المراهقـة حضـورا صحيحـا نتسـاءل عـن طـرق توفيـر هـذا الشـرط

لنقل أن أهم هذه الشروط في نظرنا إلى الآن:

- فك اضطراب المصطلح؛

- مراعاة السياق السوسيو ثقاف ف دراسة واقع المراهق الجزائري؛

- الاقتراب من هذه الفئة بالدراسة والتأثير.

هنا نجد نقصا كبيرا في دراسات يتم فيها استجواب هذه الفئة مثلا ، أو دراسات عن سلوكهم ،ما يشاهدونه إلخ رغم أنها أكبر فئة على سبيل المثال تفاعلا على المواقع ما يجعلها بؤرة رصد مهمة ، فئة يمكن الاشتباك معها مجتمعيا في عدة مساحات كونها بالأصل فئة تتميز بدافعية ونشاط وبتنظيم واضح إذا ما تحدثنا عن الفئة المتمدرسة وهي الأغلبية حاليا (نوادي رياضية ,الجمعيات, المدارس العامة والخاصة ,المساجد, إلخ)

لك أن تتخيل دراسة غربية عن مراهق تشكلت نفسيته في سياق كالتالي:

-المقدمات العقدية والإيمانية: إلحاد ،لا أدرية ،وفئة مسيحية محافظة بنسب قليلة

-المقدمات المعرفية: مناهج التعليم وأصولها ما اختلط من مادية مع تسرب بعض الظواهر منها الجندر

-ترسبات نفسية حول الذات بفعل هذه المقدمات المعرفية.

-المقدمات المجتمعية :الاستقلال من عمر 18 سنة في المتوسط، التعرف على موضوع الجنس في عمر جد مبكر الممارسة أيضا بين 12 و 16 سنة

هل يمكن مقارنة هذه المقدمات الآن مع مقدمات المراهق الذي ينشئ في بيئة مغايرة تماما؟

هنا يجب توضيح أمر مهم،

إن تأثير العولمة وما سمحت به الوسائط الإلكترونية من انفتاح على مختلف الثقافات واستيراد بعضها كأسلوب حياة لا ينفي أبدا أهمية التمييز بين الوسطي بل بالعكس يزيد من ضرورة استحضار الفروقات الجوهرية فالمقدمات النفسية مختلفة، ذلك أن التنشئة الاجتماعية للفرد لا تعتمد على ما يستورد من ثقافة فقط بل على تأثير هذه الأخيرة على مؤسسات التنشئة الاجتماعية، نلاحظ أن هناك صراعا كبيرا بين هذه الثقافات والجهة التقليدية مثل الأسر التي لا تسمح (أو غير قادرة) على إعطاء تلك الاستقلالية للمراهق

كذلك نجد صراع المؤسسة التعليمية مع الثقافة الواردة:

نلاحظ صراعا مخفيا بين المقدمات الايمانية للمعلم والمتعلم وبين المناهج الدراسية المترجمة والمستوردة، ولا نتحدث عن المناهج الدراسية الرسمية وحسب، بل عن كل ما يلج علينا اليوم من محتوى معرفي رقمي يتلقاه الفتى ويواجه فيه بمفرده بعض التناقضات التي لم يتهيئ بعد لاستقبالها، وعند الحديث عن التهيئة لا نتحدث عن تلك الممانعة الثقافية النابعة من الايديولوجيا، بل عن اكتساب للوسائل الصحيحة ،كاللغة الأم واللغات الاجنبية، وتطوير مهارات النقد، والتعود على الاطلاع والنقاش من عمر مبكر، هذه هي مفككات الصراع التي قد تجعل من الثقافة الوافدة أقل ضرر نسبيا

صراع المؤسسة الاعلامية مع الثقافة الواردة:

مع تراجع اولوية الدور الاعلامي والتثقيفي وتصدر الدور الترفيهي، نجد المنابر الاعلامية تسعى للوصول لأكبر عدد من المتابعين بالشكل العصري للترفيه، دون التخلي التام عن الشكل التقليدي (التماشي مع طبيعة المجتمع الجزائري الذي لازال يملك عاطفة دينية وبعض التقاليد المجتمعية)

هـذا يخلـق أسـوء نسـخ الاعلام : الإعلام الرديـئ، ذاك الـذي يدغـدغ عواطـف المشـاهد ويركـب امـواج التفاهـة ولا يمتلـك فـي جوهـره أي هـدف اعلامـي واضـح، هنـا يتهيـئ الفـرد امـا للانخـراط فـي جـو الـرداءة، أو قـد يسـعى للبحـث عـن بديـل فـي احسـن الاحـوال سـواء بتوجيـه ذاتـي او بتوجيـه خارجـي

هـذه الصراعـات القائمـة عمومـا بيـن الثقافـة الـواردة وبيـن مختلـف المؤسسـات التقليديـة وحتـى الحديثـة لا تُحسم فـي أوانهـا، وفـي خضمهـا تصنـع نفسـية الفـرد المراهـق، وتصنـع مقدمـات نفسـية مختلفـة تتلـون بهـا المرحلـة العمريـة لا تـكاد تخلـو مـن انعكاسـات هـذه الصراعـات، ولعـل مثالنـا يوضـح الفكـرة، كمثـال نجـد بعـض الشـباب الصغيـر يميـل للإلحـاد، أو بعـض الفتيـات ينخرطـن فـي سـلك النسـوية فـي صورتهـا المتطرفـة ،وهـي مواقـف نفسـية أكثـر كونهـا معرفيـة (مـع وعينـا بعـدم انفصـال الظاهرتين،لكـن أثـر الصـراع يرجـح كفـة علـى حسـاب اخـرى)

أثـر الصـراع الغيـر المحسـوم بيـن التقليـدي والمعاصـر يخلق غالبـا صـورا متطرفـة فـي هـذه السـن التـي يكـون النضـج فيهـا غيـر مكتمـل والتصـورات فـي بداية تشـكلها

فـي الحالـة الجزائريـة نحتـاج معرفـة أعمـق بالمراهـق، بواقعـه وبتأثيـرات التغيـرات المعاصـرة عليـه، بطريقـة مواجهتـه لمختلـف التحديـات وبـكل الصراعـات التـي يخوضهـا والتـي قـد تمكننـا رؤيتهـا عـن قـرب ودراسـتها مـن تفـادي ظواهـر التسـرب، مـن دراسـة جـادة لواقعنـا وفهـم أفضـل لمجتمعنـا ولـم لا لبنـاء فـرد نعـول عليـه فـي مسـيرة الاسـتنهاض الحضـاري

ختامًـا، فـإنّ اسـتقصاء المراهقـة ومـا تكتنفـه مـن تحـولات نفسـية وفكريـة واجتماعيـة، يبـرز أهميـة هـذه المرحلـة باعتبارهـا مِفصلًا حاسـمًا فـي تكويـن الفـرد. إنّ ظاهـرة العـزوف عـن الشـأن الفكـري ليسـت مجـرد عـرض سـطحي، بـل هـي نتيجـة تفاعـل معقـد بيـن قـوى داخليـة وخارجيـة، مـن اضطـراب فـي المفاهيـم وتراجـع فـي التوجيـه التربـوي، إلـى تصدعـات فـي الهويـة الثقافيـة

تحت وطأة العولمة ومخرجاتها

وقد اتضح لنا من خلال هذا البحث أنّ المراهقة هي مرحلة تتبدى فيها قابلية النفوس للتشكّل، فتكون عرضةً للتسرب الطاقوي والفكري، وتتحكم فيها عوامل شتى تؤدي إلى الانفصال عن الشأن العام وتفضي إلى غربة نفسية وفكرية عن المحيط. ومن ثمّ، فإنّ تحرير هذه المرحلة من ثنائية التناقض بين الإرث الثقافي والموروثات المعاصرة، وتوجيهها نحو مسالك الرشد، يُعدّ واجبًا ملحًّا ينبغي على المؤسسات التربوية والفكرية أن تضطلع به

فالرهان الأكبر هو كيفية تحويل هذه الفئة، الغنية بالطاقة والقابلة للتوجيه، إلى قوة فاعلة تسهم في بناء المجتمع. وهذا لا يتأتى إلا بإعادة بعث الوعي بأهمية المراهقة كمخزون استراتيجي للأمة، يعوّل عليه في تشكيل جيلٍ يحمل راية الفكر، وينأى عن مستنقعات العزوف واللاجدوى. لذا، يبقى لزامًا أن تتهيأ النخب التربوية والاجتماعية لاستصلاح هذه المرحلة واستثمارها، عبر وضع إستراتيجيات تليق بهذا المقام، وتستعيد للفرد ارتباطه العميق بالمسؤولية الفكرية والحضارية

الاعتزال الطوعي للمسؤولية عند الشباب الجزائري

مقاربة حول محفزات المزاج العبثي
ومشاكل الواقع الجزائري

زين العابدين لبيوض

مقدمة

الملاحظ للواقع الجزائري الاجتماعي والشبابي خاصة، في سياق عولمي تثبته السوشل ميديا، يدرك أنها ليست بمعزل عن كثير من الظواهر الاجتماعية العالمية السائدة، كالخضوع للقيم الاستهلاكية التي خلفتها الثقافة الرأسمالية المتأخرة على عدة مستويات حتى في التفاعل المعرفي العام (الفضاء الشعبوي العام)، وتغلغل النزعة الفردانية بحس نرجسي كما يصفها جيل ليبوفتسكي وغيره، وإن كانت هذه الظواهر على درجات وأنماط حسب تركيبات المجتمع الذهنية والانثروبولوجية والثقافية...، هذا ناهيك عن مخلفاتها الآيديولوجية في نظرة المتعاطين لها إلى سؤال ما يجب أن تكون عليه الحياة؟ أوبتعبير آخر : كيف يجب أن تكون المسؤولية؟ هذا بعد استنفاذ كثير من المفاهيم المفصلية في مفهومها، كذلك هذا باعتبار أننا لا نستثني بالأخص شرائح الشباب التي لها اتصال بالكتابات الأدبية في الوقت الراهن، كالروايات ذات الخلفية العبثية مثلا التي تؤثر في الايتوس الخاص بالجماهير بسبب الأسلوب السردي مثلا الذي يستحضر مواقف في سياقات عاطفية تكون أساسا لبناء مواقف معرفية ووجودية في الحياة...، ولعل نانسي هيوستن قد قدمت عملا في هذا الموضوع الذي لم يلق تلك الأهمية الكافية في الدراسة، إما نظريا أوواقعيا في أثره النفسي والاجتماعي، مما يجعلنا نستجلب في الذكر المزاج العبثي كونه شديدة الارتباط آيديولوجيا بما سبق ذكره من الظواهر، وكذا لوجود محفزات في الواقع الجزائري تعزز هذا الحس وأسلوب العيش الذي يندرج –بمعاينة كليانية وتأصيلية- في المزاج العبثي والعدمي، كالجانب الانثروبولوجي والهابيتوس – بتعبير بيير بورديو- الذي يسير تلك الذهنية أوالرؤية الوجودية للواقع، أوالايتوس – بصيغة جمعية – كما يعبر به ميشال كلوسكار،هذا إلى جانب طابع التدين النمطي الذي يعتبر هشا في جوانب تصورية وسلوكية عديدة منه بسبب عدة

عوامل، كالخلفيات الأنثروبولوجية واللامركزية المرجعيات التي فرضت نفسها بعدة أشكال، خصوصا في الخطابات الدينية المستوردة والتي غالبا تتسم بالفوضوية والتأثير المؤقت وصناعة الجدل عبر السوشل ميديا دون معيارية واضحة.

ما سبق يتضمن بذلك أويفضي إلى نوع من العزوف الطوعي للمسؤولية –بما يجب أن تكون عليه– لا بما هي كائنة في المخيال الاجتماعي الذي كثيرا ما يختزلها في فكرة المناصب أوالمسؤولية البيروقراطية التي صارت مؤخرا متاحة في وقت بعد الحراك وعززت ذلك المخيال كنوع من الأمل في الوعي بالمسؤولية بشكل نمطي لا يتوفر على غرض ومقومات المفهوم ولا ينبئ عن وعي بلوازمه عمليا ولا محفزاته القيمية، كالانخراط في الجمعيات المحلية والوطنية والنقابات والمنظمات...، فنحن هنا أمام تحور في اللاشعور الجمعي لمفهوم المسؤولية، أدى إلى تشويهه وإبعاده عن الرؤية الوجودية والمعرفية له، وبالتالي إهمال سلم الأولويات في الحياة الاجتماعية والفضاء العام بمؤسساته، وبالضرورة على المستوى الشخصي : أي على مستوى الحقوق والواجبات والوعي بالمشاكل الاجتماعية إما على مستوى الأسرة كنموذج تربوي مهم أومؤسسات أخرى كالمدرسة والجامعة، ولعل بن نبي لخص معظم الإشكالية في وصفه بالإنسان النصف.

نحاول من خلال هذا الطرح التعرض لإشكالية العزوف الطوعي للمسؤولية في المجتمع والشباب خصوصا كونه الشريحة التي تمثل النشاط الاجتماعي في تجلياته، عن طريق الإجابة على الأسئلة التالية :

كيف يمكننا استجلاء تمثلات المسؤولية في المخيال الشبابي الجزائري وفق أبعاده الاجتماعية؟ وإلى أي مدى يمكن أن يمثل هذا المخيال انزياحا وعزوفا طوعيا عن قيمة المسؤولية بما لها من دوافع وآثار؟ وما أبرز المحفزات التي تدفع بحس المسؤولية -فكريا وسلوكيا- عن مكانته القيمية في الشخصية؟

تجليات العزوف الطوعي للمسؤولية عند الشباب الجزائري

إذا أردنا التعرض لتمظهرات أي فكرة أوإشكالية في مجتمع، نجد أنفسنا نلجأ لتحديد المفهوم في ذاته بخصوصياته، وكذا الواقع الذهني للمفهوم عند الأفراد الذين يشكلون جموعا، عن طريق سلوكياتهم وتفاعلهم مع بعضهم البعض، هذا يجعل كثيرا من السلوكيات التي تترجم الوعي بفكرة المسؤولية أوالشعور بها قضية تستدعي الوقوف عليها، وهنا نعنى بالواقع الجزائري كونه يمثل واقعا إشكاليا للمفهوم، دون تحليل تفصيلي للخلفيات الأنثروبولوجية التي لها علاقة وبعد تفسيري للذهنية الراهنة الاجتماعية والشبابية خصوصا، حيث إن الواقع الشبابي الجزائري بعد الحراك تكون لديه نوع من الوعي بتلك اللحظة، مما دفع لتكوين ذهنية سلوكية تجلي وتنبئ عن تصور نمطي يسود حول فكرة المسؤولية، خاصة أن شريحة الشباب تتصدر الاحتكاك بكل الجدليات القيمية في واقعهم باعتبارهم فاعلين اجتماعيين ومركزيين يعانون ويعيشون مختلف الصراعات الفكرية للتوفيق والتأقلم ما بين ما هوكائن وما يرونه واجبا أن يكون انطلاقا من وعيهم ببنيتهم الثقافية والدينية والفكرية، مما يجعلهم عاملا محوريا في استيعاب حركة التاريخ والمجتمع والتغيير، ليكونوا بذلك أكثر شريحة معرضة للهدر فكريا وواقعيا

ولأننا نجد أنفسنا نتناول بالضرورة مفهوم الشباب لما سينعكس على أي مقاربة، فإن محاولة ضبطه تجد نوعا من الصعوبة التي لا تظهر في بادئ الأمر، إذ يعاني المصطلح من تجاذبات بين الدارسين أنفسهم، لأسباب لا يمكن الابتعاد بها عن الموضوع نفسه، كاختلاف العوامل التي تحيط بالمفهوم، الثقافة والمجتمع والتاريخ والبنية الأنثروبولوجية...، وكذا اختلاف الحقول المعرفية في التعامل مع المفهوم وإسقاطاته، ناهيك عن الجانب المنهجي في التعامل مع واقع الشباب، أي: الاختلاف الموجود داخل المجتمع الواحد بين فئات الشباب حسب ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية

ومشاكلهم وأزماتهم، إذ يشير مصطفى حجازي أنهم ليسوا شريحة واحدة كما اشتهر في كثير من الأدبيات[1].

- فهناك فئة مترفة مقترنة بالتراخي في الضبط وعدم الالتزام والرفاه المادي والاستهلاكي والابتعاد عن بذل الجهد وتكوين الهوية الناجحة لهم.
- ونجد الفئة المنغرسة اجتماعيا ومدرسيا ومهنيا التي تمثل جيل النخبة من الشباب وتحظى برعاية أسرية وتوجيه وإعداد للمستقبل، لتكون أكثر فئة حظيت بفرصة لبناء هوية نجاحها.
- أما فئة الشباب الطامح إلى بناء مكانته والارتقاء في مجتمعه وحياته من خلال البحث عن حياة مهنية وأسرية كريمة وتحقيقا لنقلة نوعية في أوضاعهم عن طريق الدراسة التي تعتبر أملهم رغم ظروفهم، فقلة منهم تنجح في تحقيق أهدافها أما البقية فتنحسر الفرص أمامها.
- أما بالنسبة لفئة شباب الظل كما يسميه مصطفى حجازي، إذ هي الشريحة التي تعاني التهميش والهدر في كل مجال، في رعايتها الأسرية واجتماعيا ومدرسيا وتعاني نقصا في حاجاتها الأساسية وتدنيا نوعية حياتها إما إدارة أوتخطيطا أواستشرافا لمستقبلها، فهي تتعلق باللحظة وفقط لأنها تفتقد النموذج الدافع لتحصيلها وسعيها.

يتبين إذن من خلال هذه الإشارة المنهجية صعوبة التعاطي مع المفهوم والواقع الشبابي ومن ثم استقصاء إشكالياته واستيعابها، على غرار ما يشير إليه Pierre Bourdieu أن الحدود العمرية لضبط وتحديد فئة الشباب دون الشيخوخة هي حدود لا تقوم مثلما لا يمكن أن نعرف أين ينتهي الفقر ليبدأ الغنى[2] مع أننا نجد منظمة الأمم المتحدة تعرّف « الشباب» على أنهم الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 15 و24 عاما.[3]

لعله بعض التعرض لبعض ما يعانيه مفهوم الشباب من أشكلة، نميل إلى تعريف عزت حجازي الذي يقف بمرحلة الشباب عند سن الخامسة والعشرين أوما حولها. لأن هذه هي السن التي تحدث عندها تحولات هامة في حياة الفرد: فعندها يترك التعليم بعد استكماله -عادة- ويلتحق بعمل دائم، ويتزوج، أويسعى إلى تحقيق ذلك على الأقل، فهوبعبارة أخرى يترك فترة الطلب ويبدأ حياة الراشدين.adulthood ينزل إلى معترك الحياة ويرتبط بعديد من المؤسسات التي يتعامل معها الراشدون، ويتغير تبعا لذلك تصوره لذاته وللآخرين وللمجتمع، واتجاهاته نحوهم وسلوكه معهم. [4]

فليس الشباب الجزائري بمعزل عن جدليات المجتمعات مع شبابها، خصوصا أن الموضوع يشغل الساحة الجزائرية في زمن ما بعد الحراك وتركيز الخطاب السياسي والمدني على شريحة الشباب أكثر من زمن مضى، لعل ذلك يعود إلى تراكمات الحقبة السابقة ويُتم الخطاب السياسي الذي كانت تعيشه الجزائر، وكذلك التغير النوعي نسبيا للوعي في لحظة الحراك بضرورة الانخراط في صناعة الخطاب المدني العام والفضاء العام على غرار الخاص الذي شجعته السوشل ميديا على مستوى المؤسسات وريادة الأعمال والمشاريع الخاصة وكذا تحفيز حس المسؤولية والاندماج في العمل المدني والسياسي والإعلامي بشكله العام، دون إغفال بعض الظواهر التي تلفت النظر إلى الشباب باعتبارها شريحة تحتاج الدراسة كالهجرة غير الشرعية (الحرقة) والتي تطال حتى شرائح متعلمة منهم، فضلا عن البطالة والزواج المتأخر وغيرها، هذا ليس بمعزل عن مراعاة نسبة الشباب في الجزائر ما بين 15 و29 سنة، إذ عرفت تراجعا تقريبا من سنة 2008 حيث كانت 31.8% لتنخفض إلى 23.3% سنة 2018 [5]، ما يدعوهوالآخر إلى دراسات جادة في الموضوع كميا ونوعيا .

إذا أردنا التطرق إلى مفهوم المسؤولية هوالآخر نجد أننا أمام قيمة مركبة ومتعددة الأبعاد، فهومفهوم يتداخل في الثقافي والاجتماعي

والنفسي والأخلاقي والقانوني، ونحن في سياق اجتماعي نتناول المفهوم كونه مرتبطا ببنية الجماعة انطلاقا من الحس المشترك لديهم، أوالوعي الجماعي بمفهوم المسؤولية في سياق يرمي إلى التغيير وتجاوز الأزمات السلوكية المشتركة، فهي -المسؤولية- قد تطلق أخلاقيا على التزام الشخص بما يصدر عنه قولا وعملا، كما تطلق قانونا على الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقا للقانون [6]، فهي إدراك ويقظة الفرد ووعي ضميره وسلوكه للواجب الشخصي والاجتماعي[7]، على هذا يمكن القول أن المسؤولية توجد على مستويات، المستوى النفسي في حفظ الذات وحاجاتها والشخصية ومبادئها، والمستوى الاجتماعي المتمثل في حفظ وتحسين علاقات الأسرة والجماعة، وكذا مستوى المؤسسات التي ينخرط فيها والمحيط الذي ينتمي إليه، حفظا للحقوق وإيتاء للواجبات واستيعابا لدوره وحدوده وصلاحياته في تلك المستويات وتحقيقا للمصلحة الراجحة حسب كفاءاته وما يتيحه الواقع من وسائل

وإذا ساغ لنا التعرض إلى تمثلات المسؤولية في واقع الشباب الجزائري، فلا يجب أن نغفل التحولات السوسيولجية التي مست المجتمعات المختلفة بفعل العولمة وثقافة الرأسمالية المتأخرة، جعلت الشباب يعيش إشكاليات وعراقيل وتحديات تعيق تحملهم للمسؤولية كما ينبغي أوتشوه تصورها عندهم أوتنميطه، بالتالي ضعف أدائهم ونضجهم الاجتماعي المتوقع ووعيهم بأدوارهم في جميع المستويات، فيمكن أن نترجم ذلك في معادلة سوسيونفسية، أي أن كل اضطراب وخلل في المجتمع وسلوكياته يعود في شطر كبير منه إلى خلل وظيفي وتصوري لحس المسؤولية عند الأفراد، فلو تعرضنا مثلا إلى الانخراط السياسي بعد الحراك لفئات من الشباب، الذي كان إيجابيا في جانب منه ومعبرا عن وعي نسبي بالعمل السياسي، لكنه كان وعيا مشوها بالمسؤولية، إذ كان الدافع في الانطباع العام حماسيا مقترنا بقضاء المصالح الشخصية، غير مستوعب لقيمة المسؤولية العامة والتنازلات الشخصية التي تفرضها، وكذلك صار الانخراط السياسي على سبيل إثبات الذات، وهوتصور يقصر المسؤولية على جانب معين ويقصي

لا شعوريا أهمية المسؤولية الشخصية في الفضاء العام والخاص، لاسيما أن هذا الشعور كان موجودا من قبل نسبيا متمثلا في فكرة عدم المسؤولية على الممتلكات العامة للدولة وتصور الدولة باعتبارها مسؤولة عن كل شيء ولا دخل للمواطن في حماية الفضاء العام

من زاوية أخرى،حين نتعرض للواقع الشبابي الجزائري نجد مظاهر أخرى لهذا العزوف، متراكمة العوامل ومتعددة الأبعاد، فالهجرة غير الشرعية مثلا، تعبر عن اعتزال للواقع وسخط عن ظروف التهميش والبطالة والإقصاء الاجتماعي، بالتالي عدم مواجهته، وهذا الضغط يؤدي مباشرة إلى الخروج من المحيط وتفضيل المغامرة بالحياة للوصول إلى منطقة يُعتقد أن تتوفر على إمكانية بدء حياة جديدة بدون تلك المشاكل والظروف القديمة، أووجود إمكانيات وآفاق أخرى أفضل نوعيا في أسلوب العيش، فالهجرة غير الشرعية صارت تستغرق كل فئات الشباب متعلمة ومتوسطة ودون مستوى، عمالا وعاطلين وطلبة، ففي في عينة مكونة من 170 شابا يحضر للهجرة، وجد 60% تتراوح أعمارهم بين 27-35 و40% بين 16-25، وبالنسبة لمستواهم التعليمي وجد 45% مستواهم التعليمي متوسط، و10.1% مستواهم جامعي، و25% ذوي مستوى ثانوي، مقابل 1% فقط دون مستوى، أما بالنسبة للمستوى الاقتصادي فكانت 50% منهم متوسطة، أما النسبة الباقية توزعت بين المستوى الضعيف غالبا والجيد مقابل 1% فقط للجيد جدا [8]، رغم تفاوت النسب، نجدها قضية غير صحية وتجلي عن اضطراب في الواقع الشبابي. فهي بذلك تعتبر تمظهرا لوجود تشوهات في مفهوم تحمل المسؤولية عند هؤلاء الشباب مشروط باعتزال الواقع وتحدياته ويستحق التضحية والمغامرة بالحياة للبحث عن مصير مجهول والتعلق بأمل غير واضح، هذا الإحساس المشوه بالمسؤولية يقصي خصوصية أهم طرف في المعادلة وهوالأسرة، وتبعا لها المجتمع الذي يشاركه الهوية والدين والثقافة وبالضرورة المشاكل والتحديات والخيارات

أيضا نجد نفس الدوافع تؤدي إلى غياب العدالة الاجتماعية، وهذا ناتج عن كثير من السلوكات غير السوية التي تفقد في الشباب الثقة في مجتمعهم وتسبب لهم الإحباط فضلا عن كبح رغبتهم في التفاعل والانخراط في النشاط الاجتماعي، كالتعقيدات الإدارية والبيروقراطية، والتحيزات العرقية والعصبية التي تسبب المفاضلة دون الكفاءة، والمحسوبية والجاه في تحقيق المصالح وسلب حقوق الآخرين رغم توسلهم بكل الطرق المتاحة حسب قدرتهم، هذا يورث شعورا بالظلم وخللا في بنية المجتمع وعلاقاته وعدالته، مما يسبب في انتشار سلوكات منحرفة وجرائم كالعنف، وهذا يعزز الشعور بفقد مسؤولياتهم الاجتماعية والنفسية ويجلي عن تشوه مسؤوليات المجتمع الوظيفية العامة تجاه بعضه البعض

في جانب آخر يجلي بقوة آثار العزوف الطوعي للمسؤولية ويعززها، سيطرة المزاج الاستهلاكي عند الشباب على عدة مستويات دون اكتراث بأي ترشيد أوعقلنة أوأخلقة لهذا النمط، إذ غلبة النمط الاستهلاك هنا له دلالة نفسية تعبر عن السعي خلف تحقيق الرغبة، كتقليد المشهورين والمودلز models في اللباس وتسريحة الشعر، واستهلاك الأطعمة الحديثة السريعة، والبحث عن المتعة في الألعاب والأفلام والسوشل ميديا، واقتناء كل ما يزيد عن الحاجة كما ونوعا بشكل يجعله ضروريا ويوهم تركه بعدم الرضا والإقصاء من المجتمع (الموضة)، وطبعا النمط الاستهلاكي يسبب طلبا لا متناهيا لإشباع الغريزة والرغبة، مما يصور ثقافة المجتمع والآباء أنها قديمة ومتخلفة، والتلبس بالجديد انبهارا ومتعة وتنميطه أنه تقدم ومعاصرة، وبالتالي هذا يؤدي إلى طغيان النزعة المادية والنفور عن النزعة الروحية تدريجيا، مما قد يسبب أزمات نفسية ووجودية في مستويات معينة لا تحصل فيها المتعة إلا بتحقيق رغبة استهلاك الجديد في دائرة مغلقة، خصوصا تلك التي توفرها السوشل ميديا، إذ تبين دراسة اثنوغرافية حول عينة متابعات لحساب إحدى المؤثرات في الجزائر أن نمط الاستهلاك تمظهر على ثلاثة أشكال عندهن : ثقافة الماكدونالد أوالوجبات السريعة مع تصويرها ونشرها مع الأصدقاء، ثم ثقافة المراكز

التجارية التي تجلت في ارتيادهن لها وأن قيمة التجول فيها أحيانا أهم من المنفعة المادية للتسوق، فيكون مفهوم التسوق غير قاصرا على التعريف الكلاسيكي بل يقترن مع البحث عن الترفيه والتسلية. خرجت الدراسة أن العينة تقوم بالإنفاق على الكماليات والمظاهر كتنفيس عن حالة النقص التي تعتريها أثناء تعرضها لمحتوى تلك المؤثرة في الانستغرام، يبين هذا طبعا أن التعرض لمحتويات من هذا النوع يؤثر سلبيا على النفسية كاضطراب مفهوم الذات، فهذا السلوك يعتبر آلية للتكيف مع حالة القلق الناجمة عن التعرض لهكذا محتوى مؤثر عبر الانستغرام [9]، وعليه، نجد الأمر يشوش على فكرة المسؤولية وتبعاتها التي تقترن بقوة التحكم في الرغبة والثقة في النفس والقناعة والتضحية أحيانا بالمتعة اللحظية وضبط الاستهلاك وعقلنته، حفاظا على المال وتجنبا للإسراف والترف الزائد وحفظا للصحة النفسية والجسدية والعقلية

محفزات الحس االعبثي في الواقع الجزائري

إننا نجد بوضوح أن لكل نشاط عملي أوسلوك اجتماعي علاقة بالفكر الذي يسيره والوعي به، وهنا تؤثر التركيبة الذهنية السلوكية للمجتمع أوما يعبر عنه بورديو بالهابيتوس[10] في صناعة تصورات وبالتالي سلوكات الأفراد، مما يستلزم وجود وحضور معادلة العجز بحضور بيئتها الاجتماعية الخصبة، فالتقليد الخلقي يقتضي التخلي عن الجهد الفكري ضرورة، في هذا السياق، يرى مالك بن نبي أن سبب هذا العزوف الطوعي عن المسؤولية عند الفرد الجزائري الذي هو نوع من الخيانة لطبيعة الأشياء، يعود إلى خلل الفكر بالضرورة عبر عنه بنوعين من الذهان. [11]

ذهان السهولة : يتمثل في تقدير الأشياء أنها سهلة وبالتالي هونشاط أعمى بالضرورة لأنه يحط من قيمة الأشياء ويسطح النظر لها دون جهد أواستشراف أواستيعاب

ذهـان الاستحالة : يتمثـل فـي النظـر للأشـياء أنها مستحيلة المنـال والتحقيق حتـى لا يتعـب نفسـه، وهومـا يسبب عجـزا وشـللا فـي التفاعـل مـع الأشـياء مـع أنهـا ليسـت كذلـك، وهـذا مـا يجعـل فكـرة التغييـر عندهـم أوالتجديـد أوالمواجهـة حتـى مـع أنفسـهم أمـرا مـن اللامفكـر فيـه

فـإذا نظرنـا إلـى تجليـات اعتـزال المسـؤولية بعيـدا عـن النظـرة الجزئيـة للظواهـر، أي: بنظـرة تحليليـة كليـة، سـنجد أن هنـاك شـعورا مشـتركا يبـرز ليعـزز ويكـرس لذلـك الاعتـزال، بمعنـى أننـا نسـتجلي تلـك العوامـل المختلفـة التـي تزحـزح المسـؤولية -تصـورا وممارسـة- عـن قيمتـه الأصليـة فـي الشـخصية والمجتمـع الجزائـري الـذي نتناولـه، ناهيـك عـن غيـره، هـذا مـع الأخـذ بعيـن الاعتبـار اخـتلاف الفئـات الشـبابية كمـا ذكرنـا سـابقا، مـن حيـث اخـتلاف تجليـات العـزوف وتنـوع مشـاكلهم وتفاعلهـم وبيئاتهـم ومسـتوياتهم: طلبـة، رياضييـن، تجـارا، بطاليـن، عمـالا...، وهـم وإن كانـوا يشـتركون فـي أنمـاط الاعتـزال الطوعـي اللاشـعوري للمسـؤولية، إلا أنهم يختلفـون في عوامل ومحفـزات ذلـك، ليظهـر فـي ملامـح خطاباتهـم حـس عبثـي أو لا اكتراثـي سوسـيولوجي مختلـف الأشـكال والدرجـات والمسـتويات، لكنـه يشـترك فـي النفـور عـن التفاعـل مـع المحيـط الاجتماعـي والسياسـي والمؤسسـاتي واليـأس مـن التغييـر فـضلا عـن فكـرة التجديـد

فنجـد مـثلا شـريحة منهـم تأثـرت بتوجـه معيـن فـي الأدب الروائـي، نظـرا لكـون الروايـة أسـلوبا وحبكـة لا تسـلك منهجـا منطقيـا أوعلميـا أورياضيـا مثـل الكتابـات العلميـة أوالأكاديميـة، فهـي سـهلة التفاعـل والتأثيـر كـون العفويـة فيهـا أجلـى، وباعتبـار أسـلوبها يرتكـز علـى النفسـي واسـتحضار التفاصيـل، وكونهـا ترتكـز علـى رأسـمال الأحـداث، الأمـر الـذي يشـد نظـر القـارئ خصوصـا أولئـك الذيـن لديهـم ذوق أدبـي اختزالـي فـي كل مـا هوروايـة فقـط، ممـا يجعـل الروايـة هنـا تكافـئ أي مصـدر للقناعـات فـي مخيـال الفـرد لتكـون عـاملا فـي تكويـن رؤيتـه الوجوديـة لاسـيما أنهـا أقـوى فـي الإسـقاط، إذ المشـكلة ليـس فـي الروايـة فـي حـد ذاتهـا، بـل فـي اختـزال القـراءة المتماهيـة فيهـا، ممـا يشـكل

مركزية لا شعورية تستقطب القناعات، وليس بعيدا أن يقال مثلما حدث في الاستقطاب العلموي للعلم، والجدير بالتنبيه أننا نتحدث خصوصا عن تلك الروايات العبثية أوالعدمية الذي جلبت النظر إليها واكتسحت ساحة الأدب مثل كتابات إميل سيوران وألبير كاموو وساموي بيكيت وميلان كونديرا وغيرهم، فالمشترك بين هؤلاء في أدناه هوأن لاجدوى ولا شيء يستحق العناء [12]، فالحس العدمي والعبثي حين يظهر في رواية ما، يكون انعكاسا مباشرا عن ذات المؤلف وحياته ورؤيته، فنكون في حالة المستقري للعالم من خلال عيون هؤلاء الروائيين العالميين، حيث تمتزج فيها ذواتهم، أي: قناعاتهم وأفكارهم بالمتخيل: أي حكاياتهم وشخوصهم، وهنا تقول الناقدة الفرنسية Claude-Edmonde Magny أن كاموير يد أن يظهر لنا خواء بطله الداخلي، ومن خلاله خواءنا نحن [13]، لا يمكن طبعا تجاهل أن المظاهر الواقعية التي يعيشها الشباب ويرونها تغذي ذلك الشعور باليأس، كرداءة الخطاب السياسي والسلوكات الاجتماعية المرضية، والتعارض بين منظوماتهم الدينية والثقافية وسلوكات واقعهم وكذا استفزازاته البعيدة عن المثالية. تلخص لنا نانسي هيوستن- على مستوى الكتابات نفسها- أسباب تفاقم هذا الشعور العبثي واللاكتراثي إلى الوعود التقدمية لسرديات الحداثة والعلمانية التي صورت العالم - عن طريق الإنسان نفسه- أنه مضمون برؤيتها، لكن مجازر الحربين العالميتين والأنظمة الشمولية وانفجار القنابل النووية والسباق نحوالتسلح...، فاجأ رواد تلك السرديات فتوقف أغلبهم عن اعتقاد كون الأدب يسهم في فهم العالم والعيش فيه، مما جعلهم متشككين إزاء كل شيء، كاللغة والسرد، ليبدوأن العدمية التي كان يمكن أن تكون مجرد موضة أدبية وفلسفية للكثيرين، كأنها حقيقة الرؤية الإنسانية[12]، مما يؤثر سلبا على فكرة المسؤولية في تصور الشريحة التي تتعاطى مع هذا النوع من الرواية قبل سلوكهم، إذ يصبح هناك نوع من التصالح والتناسق مع نمط حياة لا يكترث بالمسؤولية الواقعية الاجتماعية، في نمط من الفردانية النرجسية تغذيه السوشل ميديا، هذا كذلك في ظل

نزعة هيدونية تروج لها ما بعد الحداثة أوالثقافة الرأسمالية المتأخرة عن طريق ثقافة الاستهلاك

وهنا نجد أن السوشل ميديا ليست بذلك التصور الساذج للتواصل، بل صارت بأبسط انطباع أسلوب حياة ومنتجا للقيم، ففي دراسة مثلا حول عينة من خمسين شابا في الجزائر بينت كيف أثرت السوشل ميديا في شخصيتهم وحياتهم، إذ أفادت الدراسة أن نسبة 58% من أفراد العينة يؤكدون على مساهمة مواقع التواصل الاجتماعي في التأثير على هويتهم، وكذلك 38% منهم يتبنون ثقافات وقيما وعادات جديدة بوعي منهم في نمط الحياة واللباس وغيره [14]، مما يدل على أن هذه الفضاءات باتت تتيح لمستخدميها اختيار أي هوية أومعتقد أوفكرة جديدة تستهويه. كذلك بينت عينة أخرى من 160 مفردة من طلاب الثانوية، أن 53.75% جعلتهم السوشل ميديا يهتمون بكل ما هوعالمي على حساب ما هومحلي، و51.25% صاروا أقل حساسية من الممنوعات الثقافية، و45% منهم ضعفت علاقتهم بالعائلة والمجتمع [15].

وهذا تجل خطير للسوشل ميديا وأثرها في عزل الفرد عن محيطه: ثقافته وهويته وقيمه ودينه، مما يسبب ازدواجية بين قيم الفرد (مبادئه ومحيطه وأسرته) وبين سلوكه (الشخصي والنفسي) التي تقوم السوشل ميديا بتوجيهه بناء على تحقيق المتعة والرغبة والمحاكاة لكل ما هوجديد، فيصير المعيار في تكوين ذواتهم وحتى مشاعرهم، ثم التعبير عنها، هوالموضة، أوالمؤثرين بمختلف أشكالهم، مشهورين، أوفرق غنائية مثل ال k-pop وغيرها، فيتكون لدى الفرد شعور بالنقص مصحوب برغبة في التماهي ما يعجبه وما يستهلكه، وهذا ما ينتج أفرادا نمطيين استهلاكيين، لا يكترثون بتكوين شخصياتهم وقيمهم انطلاقا من أبعاد هويتهم، ولا يبالون بقضايا المجتمع ولا مشاكله لأنها لا تستهوي أي رغبة فيهم للتفاعل والتفكير والنشاط الذهني فيما لا يقدم أي متعة، فيظهر أن حس المسؤولية يعني هشاشة أمام ثقافة الرغبة والاستهلاك في السوشل ميديا، إن على مستوى التفكير والقناعات أوعلى مستوى السلوك الشخصي.

وهنا نشير إلى تحكم الخوارزميات الرهيب بميولات المتفاعلين

وتوجيهها، مع اكتساب العلماء فهمًا أعمق للطريقة التي يتخذ بها البشر قراراتهم، من المرجح أن يزداد إغراء الاعتماد على الخوارزميات. لن يؤدي اختراق عملية صنع القرار البشري إلى جعل خوارزميات البيانات الضخمة أكثر موثوقية فحسب، بل سيجعل المشاعر الإنسانية أقل موثوقية في الوقت نفسه. نظرًا لنجاح الحكومات والشركات في اختراق نظام التشغيل البشري، فسوف نتعرض لوابل من التلاعب الدقيق والإعلان والدعاية. قد يصبح من السهل جدًا التلاعب بآرائنا وعواطفنا لدرجة أننا سنضطر إلى الاعتماد على الخوارزميات بنفس الطريقة التي يجب على الطيار الذي يعاني من نوبة الدوار أن يتجاهل ما تخبره به حواسه ويضع كل ثقته في الآلة.[16]

في نفس السياق نجد الخطاب الديني عند الشباب غير قائم على مرجعية واحدة أو واضحة، بل خليطا من القناعات المستوردة خصوصا تلك التي توفرها السوشل ميديا في شكل فيديوات قصيرة (الريلز في الانستغرام مثلا)، تحمل موضوعا واحدا، سواء كان وعظا أومعلومات دينية أوفتاوى، مع مؤثرات صوتية وبصرية أحيانا، تجعل المتفاعل يأخذ معلومة مبسطة في وقت وجيز جدا دون بذل مجهود، ودون عناء البحث والتأكد من قيمة هذه الفتاوى وصحتها أونقصانها أواختلاف مرجعيتها وسياقها، لأنه يتلقاها في سياق استهلاكي مؤقت، لا يستحضر هذه العوامل أصلا، فضلا عن عدم توفره على الكفاءات المعرفية والمنهجية للتعامل مع محتوى هكذا، وهنا نجد في دراسة أشرنا إليها أن 43.24% من العينة ترى أن السوشل ميديا ساهمت في تعريفهم بمعلومات عن دينهم كانوا يجهلونها، في المقابل ترى نسبة 10.81% أنها تأثيرها سلبي وتساهم في نشر أفكار هدامة للدين، و9.45% رأوا أنها تغذي التعصب الديني والمذهبي، ونسبة 6.75% رأوا أنها تساهم في نشر الشائعات والمعلومات الخاطئة عن الدين.[14]

فالنسبة الأكبر تتلقى قناعاتها من السوشل ميديا، مما يبين ثقل تأثير الخطاب الديني فيها على مختلف شرائح الشباب ودخول مرجعيات أخرى جديدة، هذا في ظل ضعف المرجعية الوطنية واقعيا إعلاميا وعدم استغلال مواقع التواصل الاجتماعي بأسلوب يستهدف أكبر شريحة بعيدا عن

الثقافة الكتابية، وكذلك في ظل ضعف ظهور الرموز الدينية الجزائرية في الخطاب الديني الرسمي التي تستدعي القدوة وتغذي ثقة الشباب في مرجعيتهم وصلابتها في مواجهة التحديات المعاصرة، خصوصا أن الواقع الديني يعاني هشاشة بسبب النمط الاستهلاكي الذي تغذيه به العولمة والثقافة الرأسمالية، وبالعودة إلى مشكلة المرجعية الدينية، قامت دراسة عينة على 5077 شابا من مدينتي وهران وغرداية بين سنتي 2013 إلى 2019 [17]، باستقصاء مواقف الشباب من المرجعية الدينية في الجزائر، فكشفت أن لجوء الشباب إلى للمرجعية الوطنية عند طلب الفتوى مقارنة بالمرجعيات الإسلامية الأخرى لا يمثل سوى 9.8%، كما أن ثلثي العينة تقريبا لا تبالي أولا تثق بالمرجعيات الدينية على اختلافها، كما هوموضح في الشكل 1.

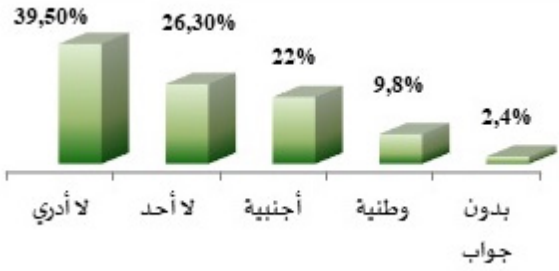

الشكل -1-

في حين تبيّن المعطيات الكميّة في هذا السياق أنّه كلما ارتفع سنّ مجتمع البحث زاد اختياره لإمام المسجد المجاور من أجل طلب الفتوى وقلّت اختياراته لوسائل الإعلام التقليدية والمنصّات الافتراضية، ويبدومطلب الفتوى عبر الأنترنت -على قلّة نسبته- خصوصية تميّز الشباب الذين يتراوح سنّهم ما بين 16- 24 سنة، وهذه الفئة هي الأكثر تفاعلا مع الدعاة المتواجدين في الفضاء الافتراضي، فالبحث عن الفتوى عندهم

ممارسة جيلية خاصة في طور البروز والتشكّل تفضّل «الأجنبي» على «الوطني»، والتواصل الافتراضي على التواصل الشخصي أوالجواري (الإمام) أوالمؤسّساتي (المسجد، مديرية الشؤون الدينية، وسائل الإعلام والاتصال التقليدية)، كما هوموضح في الشكل 2.

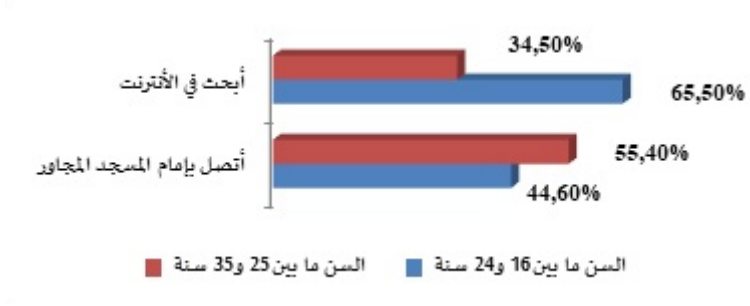

الشكل -2-

وتفترض الدراسة أنّه كلما تواصل المنحى البيروقراطي لتنظيم المجال الديني -دون الأخذ بالاعتبار تغيّراته البنيوية- تراجع الاعتراف الاجتماعي به وبفاعليه، سواء اتخذ ذلك طابعا جيليا (قد يمثّل الشباب مؤشرا له) أوطابعا مؤسساتيا (بروز مؤسسات جديدة لا تحتكم إلى المرجعية البيروقراطية بالأساس)، وهو ما يفتّت هذا المجال ويفتح مسلكا لأشكال تديّن مختلفة وعلاقات بمرجعيات جديدة منافسة

هذا التداخل والتراكم بين العوامل الذاتية الداخلية وبين تأثير السوشل ميديا ينبئ عن الخلل الوظيفي للشباب في تدينهم باعتباره حسا فرديا فضلا عن بنيته الاجتماعية، وهو ما يزيد الفجوة بين الواقع الذي يعيشونه، مجتمعا ومؤسسات، وبين ما يتفاعلون معه في السوشل ميديا ويفضلونه ويعتبرونه خيارات شخصية، دون استيعاب الآثار والإشكاليات في هذا النمط من التفاعل

وهذا ما يسبب انفصاما بين الشباب الجزائري وواقعه الديني، ويورث عدم استيعاب بالمسؤولية الدينية والوعي بها فكريا وسلوكيا في حياته -كما يجب أن تكون لا كما هي موجودة- ويحصرها في التعامل المباشر غير الواعي بحيثياته مع المعلومات الدينية والفتاوى الجاهزة التي خضعت هي الأخيرة للنمط الاستهلاكي للشباب.

المراجع

1. حجازي، ع. (2006). مصطفى حجازي، الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية اجتماعية (éd. 2). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
2. Pierre، B. (1984). La jeunesse n'est qu'un mots. Dans B. Pierre، questions de sociologie. Minnuit.
3. United Nations. (s.d.). Consulté le 05 03،2023 ، sur Youth: https://www.un.org/ar/global-issues/youth
4. حجازي، ع. (s.d.). الشباب العربي ومشكلاته (éd. 1). (ا. ا. والآداب، Éd.) الكويت.
5. محامد، ي. ل.، & خوجة، خ. ص. (2020، 11 20). تطور فئة الشباب في الجزائر. سلسلة الأنوار، 10(2)، 191-199.
6. أنيس، إ.، & آخرون، و. (2004). المعجم الوسيط. القاهرة: دار احياء التراث.
7. الحارثي، ز. ب. (2001). واقع المسؤولية الشخصية والاجتماعية لدى الشباب السعودي وسبل تنميتها. الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية.
8. لطفي، س.، & عبلة، ر. (2020، 05 01). العوامل المؤدية الى الهجرة غير الشرعية (الحرقة). Les cahiers du LAPSI، 17(1).
9. بوعموشة، ه. (2022، 06 30). المحتوى الرقمي المؤثر عبر موقع أنستغرام ودوره في تشكيل ثقافة الاستهلاك لدى المرأة الجزائرية -دراسة نثنوغرافية-. مجلة الرسالة للدراسات الإعلامية، 6(2)، 384-399.
10. Bourdieu، P. (1984). Questions de sociologie. Paris: édition originale de Minuit.
11. بن نبي، م. (2002). وجهة العالم الإسلامي. (ع. ا. شاهين، Trad.) بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر.
12. هيوستن، ن. (2012). أساتذة اليأس- النزعة العدمية في الأدب الأوروبي-. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.
13. الأنصاري، ع. ا. (2020). العدمية في الرواية-تلاحم الذاتي والمتخيل في روح العصر-. مجلة أوج، 34-38.
14. حميدان، س. (2020، 01 15). تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على الهوية الثقافية للشباب الجزائري-دراسة ميدانية-. المعيار، 24(1)، 521-531.
15. باديس، ل. (2015، 06 30). ثقافة الأنترنيت لدى المراهقين في الجزائر -دراسة ميدانية في الاستخدام والأثر-. مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، 8(1)، 125-138.
16. Harari، Y. N. (201921 .(14 09 ، Lessons for the 21st Century. (Vintage، Éd.) Consulté le 05 042023 ،
17. المستاري، ج.، نوار، ف.، & مجاهدي:، م. (2022، 03 30). الشباب وخطابات المرجعيات الدينية في الجزائر. نتائج دراسات ميدانية. إنسانيات، 26(1)، 37-76.

تعقيبات الجلسة الأولى:
منطلقات الاهتمام بالشأن الفكري

افتتح الفقرة الأستاذ «أحمد بن يغزر» الذي استهل تعقيبه بالتعبير عن سعادته للوجود في مثل هذا الجو الذي يشبع الأشواق الموجودة بداخل كل واحد فينا، خاصة لمن يمارس البحث عن المعنى، في الاستماع لقضايا عميقة من طرف فئة شبابية، ثم ذكر جملة ملاحظات نحاول تلخيصها فيما يلي:

_ إنّ عزوف الشباب عن الشأن الفكري هو واقع مُلاحظ في فئتين من الشباب هم الطلبة الأكاديميون وروّاد المساجد، حيث يشترك هؤلاء في ممارسة الفكر بغرض الشهرة عبر ترديد مصطلحات دون إدراك لمعناها

_المنتوج الفكري الغربي غالبٌ على الإشكاليات الثلاث على حساب الموروث الاسلاميّ وذلك راجع للمركزية الفكرية الغربية وهذا ما يراه الأستاذ غير مقبول، مثلما هي القطيعة التّامة معه بدعوى التميّز. بعد ذلك ذكر الأستاذ أنّ نزعة التوصيف والتشخيص غالبة على الإشكاليات الثلاثة مع غياب لمطابقتها مع الواقع مما يجعلها غير فعّالة بالإضافة إلى الإبتعاد عن تقديم الحلول العمليّة

تقدّم بعد ذلك الدكتور «عمّار جيدل» بتعقيباته التي نذكرها في النّقاط التالية:

التفكير النقدي هو محيط ثقافي واجتماعي مسموح به في المحيط الواسع والضيق على حد سواء، كما أنّه برنامج نَفسي يستغرق الحياة كلّها فالجميع له حق النقد في حدود الأدب

التفكير هو تعليم الناس كيف يفكرون لتحديد معطيات واقعهم والبحث عن المطلوب في إطاره؛ لا على مستوى الإطار النّظري؛ الذي يتحقق بمراعاة شروط الزمان، المكان والإنسان الحامل للفكرة، فالقضية الفكرية هي قضية واقع

الإحالة إلى نماذج تأسيسية وتحليلية غربية يكون عند اختصاصها دون غيرها بفكرة، أمّا كثرة الاستشهاد بها فقد يحيل على نوع من مزاولة

الإدهـاش،أو يقودنـا لنكـون كاتبيـن لحاشـية علـى متـن بينمـا الهـدف هـو أن نكـون منتجيـن لمتـن يزاحـم جملـة النمـاذج التـي تقـدم حلـولا

أشـار الأسـتاذ إلـى أهميـة الحديـث عـن الاسـتلاف الإصطلاحـي بالنظـر إلـى الخلفيـة الفكريـة المرتبطـة بالمفهـوم، فـي الحديـث عـن الاصـطلاح ذكـر الفـرق بيـن الوضـع (مـا ذكـر فـي المعاجـم) والحمـل (مـا نجـده فـي كتـب الاصـطلاح) والاسـتعمال (المتعلـق بالاسـتلاف)

وفـي تعقيبـه علـى موضـوع « المراهقـة » أكـد علـى مـا أشـارت إليـه المتدخلـة حـول الخطـاب الموجـه للمراهـق اليـوم إذ شـببهه بمـن «يغـرد خـارج التاريـخ وخـارج الواقـع الاجتماعـي» هـذا يضعنـا بيـن جدليـة المصطلـح المسـتلف بخلفيتـه الفكريـة وجدليـة الواقـع، وأخيـرا أكّـد علـى أنّ خطابنـا اليـوم عـن المراهـق بالفعـل لا ينتـج الوثبـة الفكريـة ولا الحضاريـة لغيـاب الجـرأة علـى التشـريح الموضوعـي للواقـع كمـا هـو لا كمـا يجـب أن يكـون

القـول بـأن التعـوّد يولّـد الرؤيـة قـول خاطـئ فالرؤيـة هـي مراجعـة للعـادة مـن خلال النمـوذج، فالتصـور يضمـر ولا يضمحـل والسـلوك المُنتـج منـه يتسـع ويضيـق وفـق وتيـرة تذكيـره مـن خلال وسـائل فكريـة مُسـتغرقة فـي الزّمـن

صناعـة التفكيـر تكـون بأخـذ يـد المتلقـي ليفكّـر دون إملاء الأفـكار عليـه فهـو ليـس تابعًـا بـل ينتمـي لمرجعيـة فكريـة واجتماعيـة يُنتـج مـن خلالهـا تـوّرث الشـعور بالمسـؤولية

الحديـث عـن الفكـر دون قصديّـة (لمـاذا تتحـدث؟ وهـل لـك أهليـة ذلـك؟) ناتجـة عـن عمـل باطنـي كلام فـارغ ودون معنـى

عمـل فـي المُتـاح واعمـل علـى تحريـر مسـاحة مـن غيـر المتـاح، فـإذا مـا اسـتثمرت كل المتـاح انفتـح عليـك غيـر المتـاح، شـاء مـن شـاء وأبـى مـن أبـى، هكـذا تاريـخ الانسـانية

ختامًا عقّب الدكتور «نور الدين بكيس» عن الإشكاليات الثلاث بقوله:

هنالك ثلاثة أنواع من المثقفين أولهم المثقف الذي يجيد التأسيس واستشراف الأفكار في الإطار النظري والمثقف المؤسساتي الذي يعالج المشاكل وفق موقعه والمثقف الوسيط؛ الذي يراه الدكتور حاجتنا المُلحة؛ الذي يستطيع سد الفجوة الموجودة والقطيعة بين الأكاديميين وعامّة النّاس حيث يقدّم اجابات وظيفية لمشاكل الواقع بلغة بسيطة يُمكن تلقّيها

النموذج الغربي يقدّم اجابات تتناسب مع تركيبته المجتمعيّة ومتطلباته لهذا يجب التفكير في نظام عقلاني يتناسب مع متطلبات واقعنا وتقديم اجابات وظيفيّة فعّالة

السعي للشمولية والمثالية يعطّل الفعل ويزيد من عمق الفجوة بين المثقف وعامة النّاس

المجتمعات الشفوية ودور الكتابة في الشأن الفكري

منال بوخزنة

مقدمة

إنَّ المتأمل في إشكالية عزوف الشباب عن الشأن الفكري (على عمومها أوعلى خصوصها في بيئة معينة كالمجتمع الجزائري)، لابد أن يُلفي نفسه في حالة من إمعان النظر في نقاط متفرقة تصنع صورة شاملة/كبرى من الأسباب، كشجرة مثمرة مورقة، ترسم أوراقها وأغصانها المتفرعة الأسباب المتفرقة التي تلتقي عند جذع واحد يغرسها في أرض المشكلة.. وكما أن أوراق الشجر كثيرة وأغصانها بعضها أكثر وضوحا وظهورا من بعضها، فكذلك الأسباب الفرعية، قد تصغُرُ حتى لا تُرى وقد ننطلق في جمعها فنحصي منها الكثير

وقد نُجازى عن صبر الجمع باكتمال الصورة ذات يوم، فكذلك ينبغي أن يعمل المفكر والمتأمل على جمع الأوراق ورصِّ اللبن لمن بعده، حتى تكتمل الصورة، فالعمل الثقافي عمل جماعي، وكهف العلم تحفِره أجيال الإنسانية جمعاء. لأجل كل هذا، قد يسمح أحدنا لنفسه بمحاولة جمع بعض الأوراق في رحلة رسم صورة إشكاليتنا التي نُعنى كشباب جزائري -غير عازف عن الشأن الفكري- بها. وكما حاولنا تقسيم الإشكالية الكبرى لثلاثة أغصان رئيسية ينبثق عن كلِّ غصنٍ، أغصان فرعية أخرى، كان من بينها الفرع الذي أعنى بتصويره في هذا المقال الذي بين أيدينا: «عن المجتمعات الشفاهية ودور الكتابة في الشأن الفكري».

إن مقالنا هذا يقوم على فرضية وجود علاقة بين شفويةِ مجتمعات بعينها، مقارنة بكتابيةِ مجتمعات أخرى، وبين انهماك أوعزوف فئات كبيرة من تلك المجتمعات عن الشأن الفكري، وذلك من خلال افتراض هيمنة الكتابة وسلطتها الثقافية، التي تجذب بدورها القُرَّاء وفي مرحلة ما، المثقفين والمهتمين بالشأن الفكري. إن مجتمعا يزخر بالمؤلفين النوعيين، هومجتمع ترتفع فرصة حظوته بقرَّاء نوعيين، على فرض أن الكاتب الحقيقي هوقارئ أولا. وعلى فرض وجود علاقة ضرورة وتكافؤ بين

القراءة والكتابة في مجتمع ما. وهو مما نحاول تقصي ما يمكن أن يكون دليلا عليه في هذا المقال.

وجدير بالتنويه تصريحنا واعترافنا، أن هذا المبحث هو مما لا يمكن الإلمام به في مقال من مئات الكلمات، وفي فترة زمنية مماثلة، بل هومبحث قد يستغرق من الساعين خلفه أعواما من العمل وجمع المواد، والدراسة والمقارنة، وما محاولتنا هذه إلا لتسليط الضوء على هذه الورقة التي نعتقد أنها قد تنفعنا في دراسة إشكاليتنا، والتي نأمل أن تكون نقطة انطلاقة للمهتمين بالموضوع حاضرا أومستقبلا، وهي قبل ذلك كله، اجتهادات غير متخصصة، وتأملات متسائلة، تأمل أن تكون تساؤلاتها مفتاحا لإجابات نافعة مستقبلا.

نظرة عامة

لقد ارتأينا أن الحديث عن وجود علاقة بين المجتمعات الشفوية والكتابة والشأن الفكري، يحيلنا لتفكيك عناصر العنوان، لنخلص منه لمحاور ثلاثة أساسية، ترتبط ببعضها البعض في علاقة مثلثية، إذ يمكن البحث عن روابط تأثر وتأثير تصل الشفاهية بالكتابة، وتأثير الكتابة على الشأن الفكري، ورابط الشفاهية بالشأن الفكري، أهورابط مباشر، أم يمر مرورا إجباريا بالكتابة. ومن هنا نقسم هذا البحث للمحاور التالية:

1. العلاقة بين الظاهرة الشفاهية والكتابة:

وفي هذا المحور، نتحدث بداية:

- عن مفهوم الشفاهية، ومجتمعاتها مع تعقب زمني، لهذه الظاهرة والمجتمعات، وبهذا الصدد يمكن التطرق لشعر الإلياذة الهومري، والشعر الجاهلي أوالمجتمع العربي ما قبل الإسلام، للتساؤل بصدد مدى حقيقية وأصالة الثقافة الشفهية الإنسانية تاريخيا، كذلك والتعريج على خصائص ومزايا هذه الظاهرة، (وهل بالإمكان

اعتبارها ثقافة أم ضرورة ظرفية؟)

- عن علاقة الشفاهية بالكتابة، بداية بمفهوم ظاهرة الكتابة والتدوين، والتعقب الزمني لظاهرة الكتابة والحضارات التي نشأت فيها والرابط بينها، ومن ثم محاولة دراسة العلاقة بين الشفوية والكتابة، أهي علاقة تحول وانتقال زمني؟ أم هي علاقة احتياج؟ أم علاقة تزامن وتجاور؟ ومن هنا التساؤل هل العلاقة بين الكتابة والشفاهية هي علاقة استلزام أم علاقة تكافؤ؟ (ملاحظة التحول في المجتمعات العربية ما قبل الإسلام وما بعده، ثقافة الكتابة، التأثر بالفتوحات، وحركة الترجمة..). ويمكن طرح مقارنة بين العقل الشفهي والعقل الكتابي، وهل تلعب الفروقات الشخصية دورا في ذلك؟ وكذلك مقارنة عامة بين الشفاهية والكتابة.

2. العلاقة بين الكتابة والشأن الفكري:

بعد المرور بالمفهوم في المحور السابق، والتعقب الزمني، يمكن أن نطرح تساؤلات، من قبيل هل تهيمن ثقافة الكتابة على الفكر والشأن الفكري؟ على اعتبار أننا نعيش في عصر الكتابة. وهل تعتبر ثقافة الكتابة وسيلة سلطة/ قوة؟ مقارنة بالشفاهية؟ ما الذي تغير بين الثقافتين؟ أوبين الظاهرتين والمرحلتين؟ وعلى هذا الأساس، هل تهيمن المجتمعات الكتابية على الشأن الفكري بشكل عام اليوم؟ وهل تعتبر الكتابة من ضرورات التحكم بالشأن العام؟

3. العلاقة بين الشفاهية والشأن الفكري:

وهنا يمكن التساؤل بصدد سلطة الشفاهية، وهل هي كلية أم جزئية؟ (وهنا يمكن دراسة عوامل هيمنة هذه الظاهرة في مجتمعات بعينها في فترات زمنية بعينها: وملاحظة التأثيرات، وقد نتطرق لمثال عرب الجاهلية، وسؤال الذاكرة، والفصاحة والتقليد وحكم الطبيعة أوالبيئة). وهل

للظاهرة أوالثقافة الشفاهية دور في الشأن الفكري قديما أواليوم؟

كما يمكن التطرق لمتطلبات الشأن الفكري اليوم، على ضوء تقدم وسائل الإعلام والتواصل والتأثير، وظهور العوالم المرئية والمسموعة، هل يمنحنا ذلك فرصة لإعادة النظر من منظور شفهي معاصر؟ مقارنة بمتطلبات الشأن الفكري قديما؟

وهل هناك عزوف عن الشأن الفكري بمفهومه الحديث؟

4. العلاقة بين الظاهرة الشفاهية والكتابة

«يصعب الفصل بين مفهومي السرد الكتابي والسرد الشفاهي سواء نظريا أوتطبيقيا، إذ يستدعي الحديث عن أحدهما الآخر ليتضح به وتتحدد باختلافاته عنه خصائصه، كما لا يخلوفي الغالب السرد الكتابي من أثر لموروثات السرد الشفاهي عليه. فليس ثمة سرد كتابي محض يمكن الحديث عنه نظريا بشكل منفصل ومستقل، كما أنه لم يعد ثمة سرد شفاهي محض لا أثر للكتابة عليه منذ أن عُرفت الكتابة فضلا عن لواحقها الطباعية». «كما يعتقد الباحث أن في كل شكل من أشكال الشفاهية كان موجودا في لحظة تاريخية مضت، إنما هوموجود كذلك في اللحظة التاريخية الراهنة، غير أن هيمنة شكل من أشكال الكتابة وهيمنة شكل من أشكال الشفاهية هي التي توهم بعدم وجود بقية أشكال الكتابة وبقية أشكال الشفاهية، ومن الطبيعي ألا تكون أشكال الكتابة وأشكال الشفاهية، التي عرفها العصر الحديث حاضرة في اللحظة التاريخية، التي مضت من تاريخ الثقافة العربية، لكن من المؤكد أن تشابك أشكال ممكنة من الكتابة وأشكال ممكنة من الشفاهية مع البنيات الاجتماعية والذهنية والثقافية يفضي إلى إنتاج أشكال جديدة لم تكن ممكنة قبل لحظة التشابك وربما أثناءها، وإنما أعلنت عن نفسها نتيجة لهذا التشابك»

يمكن أن نبدأ محور العلاقة بين الظاهرة الشفاهية والكتابية بهذا

القول لسيد ضيف الله في كتابه " آليات السرد بين الشفاهية والكتابية، والذي كما نرى يصور العلاقة بين الظاهرتين على أنها علاقة تكامل أواجتماع، وُجِدتا في وقت واحد لصناعة/ إكمال مفهوم كليٍّ وهوالتعبير الإنساني، في مقابلة علاقة النزاع والتضاد بين الظاهرتين، فيبدوأن الإنسان من القدم كان يناوب لسرد كيانه وتاريخه بين لسانه وبين القلم، فلا يخفى علينا أن زمان الكتابة الأول هوزمان قديم الابتداء ولعله كان مدفوعا بالحاجة الحضارية الإنسانية، فنجدها محفوظة من بقايا آثار الحضارات البشرية الكبرى..

ولعل تجاور الظاهرتين على طول الخط الزمني التاريخي قد يجعلنا نرسخ تساؤلنا الحاضر عن هيمنة الكتابة في مجتمعاتٍ وهيمنة الشفاهية على أخرى في ذات الحقب التاريخية أوالفترات الزمانية؟

وهوالسؤال الذي يحفزنا للبحث في هذه النقطة تحديدا، للبحث والنظر في جذور الظاهرة، ففي الوقت الذي نتساءل فيه بصدد غلبة الشفاهية على المجتمع الجزائري ما بعد الاستعمار الفرنسي، تطرأ في أذهاننا أسئلة أخرى من قبيل هل تأصلت الشفاهية في المجتمع منذ القدم أم هي ظاهرة حديثة؟ لها أسباب وعوامل أسهمت في تشكلها، ومن هذا الشطر الثاني للسؤال ننطلق في الإجابة على شطره الأول. إذ لوكانت ظاهرة الشفاهية حديثة خاضعة لعوامل وأسباب، فحريٌّ بنا أن نجد في التاريخ الإنساني أمثلة وعينات مشابهة حالما تواجدت ظروف وعوامل قد تختلف.

في كتابها «ملاحم آسيا الوسطى»ORAL EPICS OF CENTAL ASIA تتحدث الباحثة نوراك تشادويك في دراستها عن القبائل التركية لجبال الالتي والسيان وتيان شان وأودية ينيسي العلوي والأوب والأريتش والسهوب المتداخلة وسهوب حوض الارال وبحر قزوين، والقبائل التركمانية لايران الغربية. وهي تدرج تحت مصطلح الأتراك (أوالطورانيين) شعوب آسيا التي تتحدث اللهجات المتنوعة للغة (الطورانية) أوالتركية، تلك الشعوب التي لم تقطن المدن ولم يكن لها حتى وقت قريب أدب

محلـيٌّ مكتـوب، وهـي تتحـدث فـي هـذه الدراسـة عـن الحالـة الثقافيـة للشـعوب الطورانيـة التركيـة التـي عندمـا زارهـا الرحالـون الكبـار فـي القـرن الماضـي وسـجلوا أدبهـم الشـفوي كمـا كان سـائدا فـي ذلـك الوقـت وقبـل التغيـرات التـي حدثـت بتأثيـر الثـورة الروسـية فـي آسـيا الوسـطى والغربـي.

فهـذه دراسـة حديثـة تعـود لتسـعينات القـرن الماضـي تصـور لنـا ملامـح مجتمعـات شـفهية مازالـت كذلـك حتـى زمـن قريـب ولعلهـا مـن المجتمعـات الشـفهية الخالصـة غيـر الممتزجـة بالكتابيـة.

- الانتقـال لمقارنـة عـرب مـا قبـل الإسـلام ومـا بعـد الإسـلام/ بنـاء الحضـارة، وتسـليط الضـوء علـى علاقـة الشـفاهية البدائيـة بالكتابيـة (الاحتيـاج والضـرورة والانتقـال الحضـاري).
- إذن نتيجـة ارتبـاط الحضـارة بالكتابـة، هـل تُفتـرض حضاريـة المجتمعـات الكتابيـة حاليـا؟ مثـال الأتـراك فـي ملاحـم آسـيا الوسـطى.
- من هنا سؤال الشفاهية ثقافة أم ضرورة ظرفية.
- مناقشـة فرضيـة الجـذور الجينيـة الوراثيـة البعيـدة التـي تجعـل مـن المجتمعـات الكتابيـة القديمـة أكثـر قـدرة وقابليـة للكتابـة؟ (نظـرة حصريـة).
- مناقشـة علاقـة الظـروف المهيئـة لظهـور الكتابـة أوالشـفاهية (مثـال المجتمـع الجزائـري بعـد الاسـتعمار).
- مقارنة العقل الشفاهي والعقل الكتابي.

5. الكتابة والشأن الفكري

- الانطلاق من ضرورة الكتابة في الشأن الحضاري عموما.
- الانتقال إلى ضرورة الكتابة في الشأن الفكري عموما بجوانبه الإنسانية/ الفلسفية أوالعلمية (تراكم، بناء وتنقيح..الخ).
- مناقشة سلطة الكتابة، هل ثمة هيمنة واضحة للمجتمعات التي تحتكر الكتابة الفعالة.

6. الشفاهية والشأن الفكري

- هل تمتلك الشفاهية سلطة؟ ما طبيعتها (جزئية أم كلية؟)
- الحديث عن الديناميات النفسية للشفاهية (والتر أونج) عن قوة الصوت في الشفاهية.
- دراسة ظاهرة عرب الجاهلية، الخطابة، اللسان، الارتجال، الأثر النفسي، الذاكرة وعملها (هيمنة وقوة في مجتمع غير كتابي)
- في العصر الحالي على ضوء تقدم وسائل الإعلام والتواصل والتأثير، وظهور الشفاهية الثانوية، الحديث عن المفهوم الجديد للشفاهية ودوره في السلطة الفكرية،
- هل هناك إذن عزوف عن الشأن الفكري؟ رغم الوسائل؟

المراجع

- الشفاهية والكتابية، والتر أونج.
- آليات السرد بين الشفاهية والكتابية، سيف ضيف الله.
- ملاحم آسيا الوسطى الشفهية، نوراك تشادويك وغيرها.
- تاريخ الكتابة، يوهانس فريديرش.
- التاريخ الشفهي تاريخ يغفله التاريخ، د.أمينة عامر.
- تاريخ التأليف والكتابة عند العرب، بوطاهر بوسدر.
- نظرية الشفاهية في محاورات مصطفى ناصف للنثر العربي، د. تواتي خالد.
- الرواية الشفوية.. وكتابة تاريخ الثورة، سهام بوعموشة.
- الثقافة بين الشفاهية والكتابية، سيف الدولة عطا الشيخ.
- ORAL COMPOSITION IN PRE ISLAMIC POETRY

عزوف الشباب عن الشأن الفكري في ضوء إشكالية النخب

جمال الدّين بومحمد

يقول مالك بن نبي رحمه الله : « **لايقاس غنى المجتمع بما يملك من أشياء ولكن بما يمتلك من أفكار...**» ولقد قرأتم في ديباجة الملتقى كيف أن مراكز الفكر (ثينك تانك) تعتبر عاملا مهما في تفاوت الأمم اليوم، وكيف أن الاهتمام بالشأن الفكري يعتبر شرطاً ضروريا لتشكل نخبة مستقبلية واعية قادرة على تحمل المسؤولية الحضارية، كما أنه يعتبر مؤشراً استشرافياً هاماً لنوعية هذه النخبة، وباعتبارنا نناقش ظاهرة عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري في ملتقى شبابي يضم مرتادي حلقات المطالعة، إضافة إلى عدم وجود إنتاج علمي -في حدود اطلاعنا- يتناول هذه الظاهرة يجعلنا نطرح تساؤلاً مشروعا وهو: لماذا لم تهتم النخبة الجزائرية بدراسة هذه الظاهرة؟ وهل هي مدركة لأهميتها على الصعيد الحضاري والاستراتيجي، ومتفطنة إلى خطورتها على الأمن الفكري؟ ثم هل تعتبر النخبة نفسها مسؤولة عن هذه الظاهرة؟ وهذا ما يقودنا إلى بحث إشكالية النخبة في الجزائر وما هي عليه من انقسامية لغوية وقيمية وذلك انطلاقا من الجذور التاريخية والمجتمعية لتشكلها وكيفية تعامل النظام السياسي مع تلك الانقسامية بعد الاستقلال، وما الذي جعلها تستمر إلى اليوم؟ وما علاقة ذلك بعزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري؟ ثم ما هي نتائج هذا العزوف بالنسبة إلى الشباب والمجتمع والنخبة في حد ذاتها؟

لم تعرف مجتمعات ما قبل الحضارة تقسيماً للعمل بحيث يمكن تحديد فعاليات اجتماعية محددة تنطوي على منافسة معلنة أوغير معلنة تفرز تراتبية تحوز فيها الأقلية المتفوقة مادياً أومعنوياً صفة النخبة، فمصطلح النخبة في ذاته ينطوي على ضرب من تقدير النجاح الذي يؤدي به الفاعلون الاجتماعيون فاعلياتهم، « فالمصطلح يحمل معنى تفاضلي، ولا تفاضل إلا بناءً على مقارنة، ولا يمكننا أن نقارن إلا ما ينضوي تحت نفس الفرع من فروع الفاعلية، وعليه فإنه ثمة نخب بقدر ما يوجد من فروع

الفاعليات» وما يهمنا في هذه المداخلة هوظاهرة تشكل النخب الثقافية والفكرية والتي لا يمكن رصدها إلا في مجتمعات حية، أي في مجتمعات تعيش التاريخ وتستجيب للتحديات الحضارية.

وهنا ينبغي الإشارة أنه لن يفيدنا مناقشة مختلف المفاهيم التي تعرف النخب –وهي مختلفة ومتنوعة بحسب السياق الذي وردت فيه- بقدر ما يفيدنا ويهمنا استصحاب سؤال النخبة كإشكالية مفتوحة يعاد طرحها باستمرار مفادها ؛ ما هي الشروط والظروف النفسية والمجتمعية التي تضمن بروز نخب فاعلة ومؤثرة؟

والنخب بالمفهوم العام، هي جماعات فاعلة ذات أهلية مادية أومعنوية وذات نظرة تغييرية للواقع أي أنها تحمل تصوراً لمشروع مجتمع هدف، تسعى إليه بمختلف الوسائل المتاحة والمستحدثة، ويمكن تسمية هذا التصور أوالمنظور المنشود بالآيديولوجيا. وتوضع الآيديولوجيا ابتداءً كاختزال نظري للواقع المعقد يزيل عنه الغموض ويعطيه طابعاً نسقياً مفهوماً، إضافة إلى تفسير الواقع تعمل الأيديولوجيا على تغييره انطلاقاً من حقل تعيينات تضعه لنفسها، ونعني بذلك مجمل القضايا التي تعتبرها مهمة وتصدر بشأنها موقفاً سواء كان إيجابياً بغية تعزيزها وتثبيتها، أوسلبياً بغية تغييرها، وحقل تعيينات كل أيديولوجيا محدود بالضرورة إذ توجد قضايا في المجتمع لا تتخذ الأيديولوجيا حكماً بشأنها إما لتقديرها أن تلك القضايا غير مهمة أولدخولها في حيز اللامفكر فيه وكذلك الأمر بالنسبة للتحديات الطارئة على المجتمع. والصراع الأيديولوجي في مجتمع ما هوصراع بين تقاطعات حقول التعيينات لكل أيديولوجيا في حال اختلاف الحكم. وتعمل كل أيديولوجيا على ضمان توفير شروط إنتاج وإعادة إنتاج أتباعها المؤمنين بها، بهذا المعنى يمكن اعتبار النخب مصدراً للأيديولوجيات وفي الوقت نفسه نتاجاً لها

انطلاقًا من المفهوم السابق يمكن تحديد نقطة انطلاق زمنية لتشكل النخب في الجزائر بلحظة الصدام مع الغرب والتي مثلت في الوقت ذاته

لحظة إدراك الفارق؛» ..إذ كان على هذه النخب أن تحدد موقفها من الحداثة الغازية، وهوموقف محكوم عليه بازدواجية النظر إلى ازدواجية الصورة التي تشكلت عن الغرب : فهومن جهة، رمز لتحرير قدرات الإنسان وفاعلياته العقلية وإنتاجه وسائل التقدم والتفوق العلمي والمادي، وهومن جهة ثانية خصم تاريخي استقر في عقر ديار المسلمين وأذلهم وطلب منهم الانصياع لسيطرته.» هذه الازدواجية يمكن تلمسها في كتابات الجيل المعاصر لتلك اللحظة؛ حمدان خوجة، الأمير عبد القادر، وغيرهم.

وقد تعاملت مختلف فئات المجتمع مع تلك الأوضاع بطرائق شتى، ولم يخل سلوك النخب المفكرة والمنشغلة بمسألة المعنى والمثل من مواقف حدية توزعت بين قطبين : فمن جهة، نزعة الانطواء ورفض الوافد الثقافي تحت مبررات مثل الهجمة الصليبية الجديدة أوشبح الإلحاد أومخاطر فقدان الهوية، ومن جهة مقابلة نزعة الانبهار بالحضارة الغربية والتسليم بأن مستقبل شعوب العالم الإسلامي يتوقف على القطع مع ماضيها وركوب قطار الغرب. ولكن هذه الازدواجية الحدية لم يكن لها أن تستمر، فالواقع الجديد بإكراهاته وبحكم العولمة، قضى على إمكانية الخيار الأول المتمثل في نزعة الانطواء على الذات... ومن جهة أخرى فإن الاستعمار بسياساته الظالمة وبعنصريته التي أكدتها مختلف الأحداث التاريخية كان سببا في تراجع الخطاب المنادي بالاندماج الكلي حين أدرك أهله أن الإنسان الأبيض لن ينزع عنهم صفة الأهالي وصفة الإنسان من الدرجة الثانية وإن تكلموا لغته وتبنوا قيمه شكلا ومضمونا. «وبين هذين الحدين، اتخذ الإصلاحيون مواقعهم وفق ما تسمح به السياقات والإكراهات الاجتماعية والسياسية، وما تدفع إليه المؤثرات الثقافية أوالمصالح الفئوية.» وينبغي هنا التنويه بأن التيار الإصلاحي بمعناه العام يشمل جماعات الإصلاح الديني والاجتماعي كجمعية العلماء، والتيارات الوطنية السياسية مع تسجيل فروق بينهما سواء من ناحية الخطاب السياسي الذي وإن بدا متفقا على شرعية الاستقلال فإنه لم يكن متفقا على شكله وطريقة العمل في سبيل تحقيقه وعلى مضمونه فيما يخص شكل الدولة بعد الاستقلال

وخياراتها الجيوستراتيجية وموقفها من الثوابت الوطنية كما سنأتي عليه لاحقاً، ويؤكد ذلك الترابط ما لاحظه الأستاذ عبد اللطيف الهرماسي في دراسته : « بأن التيار الإصلاحي الديني في الجزائر لم يسجل تقدماً حاسما إلا عند ربط المسألة الإصلاحية بالمسألة الوطنية وتحويل المعركة ضد الطرقية من مكافحة البدع إلى مكافحة المتهمين بالتواطؤ مع الاستعمار.»

إعتمد الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ بداياته على الآلة العسكرية، وقام على سياسة استيطانية عنصرية عملت على استقدام أفراد وجماعات من الأوربيين وتمكينهم من مقدرات الجزائر الاقتصادية، وحرمان الجزائريين من أبسط حقوقهم؛ إذ كان جوهر هذه الممارسات إلغاء الوجود التاريخي للشعب الجزائري. وكانت أولى خطواته تصفية مؤسسات الأوقاف الجزائرية التي كانت تؤدي خدمات اجتماعية وثقافية، وحتى اقتصادية، لفائدة المجتمع الجزائري في المدن والأرياف، فضلًا عن دلالتها الدينية، وأتبعوا ذلك بانتهاج أسلوب مصادرة الأراضي وتغريم السكان وتهجيرهم من مواطنهم كإجراءات انتقامية بعد القضاء على حركات المقاومة الشعبية المتتابعة. أما على الصعيد الفكري فقد اعتمد الاستعمار سياسة تهدف إلى تجهيل الشعب الجزائري قسريا وفصله عن تراثه ولغته وتدمير مؤسساته التعليمية التقليدية وسنّت في سبيل ذلك عديد القوانين، إضافة إلى ذلك حرص الاستعمار على قتل روح المقاومة لدي الشعب الجزائري ولدى نخبه، وعمل على وأد أي محاولة إصلاح علمي أوفكري أواجتماعي. ولم تقتصر السياسة الثقافية الفرنسية المتبعة في الجزائر على مواجهة ومحاصرة الموروث الحضاري للشعب الجزائري، بل حاولت السلطات الفرنسية في بداية القرن العشرين أيضاً اتباع أسلوب الاحتواء الثقافي بهدف استمالة بعض شرائح المجتمع الجزائري، وذلك من خلال فتح باب التمدرس وتعلم اللغة الفرنسية أمام الأهالي وكان مبرر ذلك حاجة الفرنسيين المتزايدة إلى مستخدمين من الأهالي يقومون بدور الوساطة، كما كانت لدى بعض الإداريين الفرنسيين رغبة في نشر ماكانوا يعتبرونه رسالة فرنسا الحضارية. وينبغي هنا التنويه أن الهدف من هذا التعليم

كان تمكين الأطفال من الحد الأدنى من اللغة الفرنسية الشفوية من أجل تأدية الخدمات المطلوبة ولم تكن بالتالي تلك المعارف الملقنة تهدف إلى جعل أبناء الأهالي على مقدرة من مواصلة دراستهم أوتطوير مهاراتهم. يضاف إلى ذلك العنصرية المعلنة والحمولة التبشيرية للمدرسين ما جعل الجزائريين يعزفون عن إرسال أبناءهم لتلك المدارس خوفاً على دينهم ومعتقداتهم. وعلى الرغم من قلة المتمدرسين من الجزائريين بالنسبة إلى الأقلية الأوربية فإن تزايد عددهم أثار مع مر السنين مخاوف المعمرين المتشبثين بهيمنتهم على مقدرات الجزائر، إلا أنه وكما يشير الأستاذ ناصر الدين سعيدوني فإن تلك الزيادة المطردة لعدد الملتحقين من الجزائريين بالمدارس الفرنسية كانت تؤسس لوضع ثقافي يصب في مصلحة الثقافة واللغة الفرنسيتين، ويجعل الإدارة الجزائرية مستقبلاً أسيرة اللغة الفرنسية، ويعطل حركية التحرر الثقافي واللغوي.

في المقابل نجد عملية تكوين موازية حاولت القيام بها مؤسسات أهلية اعتمادا على الإمكانيات المتواضعة للمجتمع الجزائري لإنتاج متعلم باللغة العربية للقيام بوظائف تلبي اهتمامات المجتمع الأهلي التقليدي، في تركيز واضح على توفير شروط إعادة إنتاج هؤلاء المعلمين؛ ومن المهم أن نورد هنا ملاحظة مهمة للأستاذ سعيد عيادي رحمه الله إذ أشار أن طبيعة التحدي آنذاك فرض على جمعية العلماء المسلمين توجيه جهودها نحوالمجتمع فكان منحاها العام العمل على محوالأمية في مقابل تراجع عملها على تكوين نخب مفكرة.

كان هذا الانطلاق في عملية إنتاج وإعادة إنتاج المتعلم/المثقف الانقسامي بلغتين مختلفتين في مؤسستين مختلفتين لأداء مهام ووظائف مختلفة في فضاءات مختلفة هي الأخرى، من أولى بوادر ظاهرة الانقسامية والتي انعكست على نوعية وكثافة العلاقة مع المجتمع ومختلف فئاته الاجتماعية. ونفس الشيء يمكن قوله حول نوعية العلاقات مع الدولة ومؤسساتها قبل وبعد الاستقلال.

استمرت هذه الانقسامية بين النخب وازدادت وضوحاً مع نشوء الحركة الوطنية حيث أنها استنزفت جهودها ما جعلها تخرج من المشهد التاريخي في مقابل بروز طلائع شبابية شعبية فجرت الثورة –دون إغفال دور النخب في تحقيق الوعي التراكمي-، وهوما يفسر المواقع الذيلية التي كان يحتلها المثقف والمتعلم عموما داخل مؤسسات وهياكل الثورة. فقد احتل المثقف دور المنفذ والكاتب والمستشار في أحسن الحالات، فلم يصل إلا في بعض الحالات النادرة والاستثنائية إلى مواقع السلطة واتخاذ القرار الذي بقي من احتكار العسكري والمناضل السياسي والثوري المحترف. وهذا ما يجعلنا نتلمس الملامح الأولية للعلاقة الجدلية بين النخب وظاهرة العزوف عن الشأن الفكري.

يتحمل نظام الحكم في الجزائر بإجراءاته التنفيذية الظرفية مسؤولية تاريخية في عدم الحسم في المسألة الثقافية في بداية الاستقلال ومحاولته استغلال الفضاء الثقافي سياسيا لتثبيت نفوذه حيث انتهج سياسة قطاعية أعادت انتاج الانقسامية وكرستها وحولتها من خلفية تكوينية لها أسبابها الموضوعية إلى تقليد فئوي جعل كل فئة تسعى لتوسيع نفوذها على حساب الفئة الأخرى، وهذا الوضع جعل النخب في غفلة عن حلقة جديدة من حلقات الصراع الفكري في البلاد المستعمرة كان أبطالها أولئك الخبراء الفرنسيين -تقدميين وغير تقدميين- المستقدمين حتى يفكروا نيابة عن الأمة ويرسموا لها خططها ومساراتها الاستراتيجية التي تكرس للتبعية الثقافية فبالنسبة إليهم قد يحق للمستعمر أن يدافع عن نفسه مادام ذلك في الحقل السياسي ولكنه حينما ينقل دفاعه إلى الميدان الفكري فإنه يكون قد دخل مكانا لا حق له في دخوله، ولم تكن صرخات مالك بن نبي ضد هؤلاء الذين سماهم بالأقدام الحمراء ولا بيان الشيخ البشير الابراهيمي سنة 64 ولا كتاب محمد الشريف ساحلي : تحرير التاريخ من الاستعمار لتلقى آذانا صاغية في ذلك الجومن المحاصصة والمحسوبية والصراع على النفوذ.

بالنسبة للنخبة الحداثية الفرنكوفونية والتي غالباً ما تتسم بالتبعية الثقافية والفكرية للغرب فإن عدم الاهتمام بالشأن الفكري لا يدخل ضمن حقل تعييناتها؛ ويشترك في هذا الليبراليون الذين يعتبرون أي تفكير انطلاقاً من الرصيد الحضاري للأمة هوبمثابة تكريس للبنى الذهنية التي أنتجت التخلف، ويرون ضرورة تجاوز هذه الأنساق البالية وعدم التفكير من خلالها، والانخراط في الثقافة العالمية. مع الماركسيين الذين غالباً ما يفسرون التخلف في دول العالم الثالث انطلاقاً من علاقة التبعية الاقتصادية بين الأطراف والمركز، ويجعلون المسألة الثقافية والفكرية بنى فوقية تابعة لما سبقها.

من جهتها؛ لم تولي النخب المعربة أهمية للاهتمام بالشأن الفكري، وذلك بحكم تكونها التاريخي وخلفيتها الأدبية والوعظية، وكذا انخراطها في تيّار الصحوة بمختلف هياكله التنظيمية والذي كان من نتائج سياسته - التي اتسمت بالشعبوية في كثير من الأحيان – تهميش المثقفين وأصحاب الآراء النقدية مقابل فسح المجال لأصحاب الخطاب الراديكالي ولضباط الصف المذعنين لسلطة الجماعة، يضاف إلى ذلك خضوعها للقطاعية التي تعامل بها النظام غداة الاستقلال حيث منحها القطاعات ذات العلاقة بالدين والأيديولوجيا وطمأنها بشعارات التعريب، في حين استحوذت النخب الفرنكوفونية على القطاعات الاستراتيجية الأخرى، ثم ما فتئت توسع نفوذها ليطال قطاعات التنشئة الاجتماعية كالمدرسة والإعلام، وهوما جعل الفرنكوفونية فيما بعد تتجاوز كونها خلفية لغوية وثقافية لتصبح أداة تموقع في مناصب الهيمنة والترقي الاجتماعي، وهوما عمّقَ الشروخ المجتمعية التي سببتها الانقسامية. وتحول ذلك فيما بعد إلى صراع على مختلف جبهات المجتمع تحت دعاوي الخوف على الدولة من قبل النخبة الحداثية، والحفاظ على الأمة من قبل النخبة التأصيلية

ولا يمكن اعتبار الازدواجية اللغوية حلاّ توفيقيا، فالدراسات الجادة أبانت أن العلاقة مع اللغة لا تنحصر في إجادتها واستعمالها وانما تتعدى ذلك إلى

نوع العلاقة النفسية معها باعتبارها رمزا من الرموز الثقافية، وهذا ما جعل عالم الاجتماع التونسي الأستاذ محمود الذوادي يفرق بين نوعين من الازدواجية اللغوية : الازدواجية اللغوية اللوامة والتي تميز بها خريجي التعليم الزيتوني حيث يلوم هؤلاء أنفسهم والآخرين على استمرارهم في استعمال اللغة الفرنسية في مختلف مجالات الحياة على حساب اللغة الوطنية، والازدواجية اللغوية الأمارة ويقصد بها أولئك الذين يحتقرون اللغة الوطنية ويخجلون من استعمالها ويفاخرون باللغة الفرنسية، (يمكن ملاحظة مصداقية هذا التقسيم عند الأطباء؛ فجميعهم ثنائيواللغة ولكن فرق بين من يشعر بالتقصير لعدم قدرته على مخاطبة أبناء الشعب بلغتهم على أكمل وجه، وبين من يحتقر هؤلاء ويزدريهم لأنهم لم يفهمومصطلحاته وتعبيره بلغة أجنبية) ويمكن تعميم هذه الملاحظة على العلاقة النفسية التي تربط المثقف بباقي الرموز والمكتسبات الثقافية، هل هي علاقة اعتزاز أم علاقة خجل واحتقار. وهنا نجد أن الانقسامية تعيد إيجاد نفسها تحت أشكال مغايرة للصور النمطية القديمة

تعتبر هذه العلاقة النفسية مع الموروث الثقافي حاكمة للمنظور الوجودي للمثقف كونها تؤثر على تفكيره ونشاطه عبر مختلف وسائط التنشئة الاجتماعية، وهوما ينعكس بطريقة مباشرة على تشكيل اهتمامات الشباب في مجتمع ما، وهذا ما أدى إلى انتقال الانقسامية إلى الفضاءات الثقافية التي يفترض فيها أن تكون ميدانا لحوار وتلاقي النخب. لكننا على العكس من ذلك نجد أن كل مثقف ونخبة لا يعتبرون كذلك إلا بالنسبة إلى شريحة من المجتمع.

هذه الظروف جعلت الكلمة الأولى والأخيرة بيد النظام السياسي، والذي فضل عوضاً عن أصحاب الأيديولوجيات النموذج التكنوقراطي الذي يقوم بتنفيذ المهام الموكولة إليه بصفة آلية، فصار ذلك نموذجا وسبيلا للذين يبتغون الحصول على ترقية اجتماعية.

هذا الجوالعام أدى إلى ظهور ما يسميه الأستاذ محمد شاويش بنزعة فرط التسيس أووثنية السلطة، وهي علة تعاني منها السلطة كما تعاني منها المعارضة وتسللت إثر ذلك إلى العقل الجمعي للنخب والمجتمع، ويؤمن أصحاب هذه النزعة بأن «السلطة هي الشيء الوحيد المهم الذي يحدد حركة المجتمع ويقرر مصيره» وينتج عن ذلك احتقار الخطوات النهضوية الصغيرة (حلقات المطالعة على سبيل المثال)، بل حتى لوكانت كبيرة ما دامت لاتطاول الموضوع المهم الوحيد وهوالبوليتيك. فكل فعل لا يخص العلاقة مع السلطة بغية استلامها أوتغيير سلوكها لا يعتبر فعلا واعيا بل ينظر إليه على أنه يشغل الشعب عن القضية الوحيدة المهمة

إن استبطان هذه النظرة يؤدي كذلك إلى شيوع ظاهرة التحلل من المسؤولية من طرف المثقفين وذلك تجنبا لمحاسبة الجمهور لهم. وهنا تبرز ظاهرة محاكاة المثقف للفنان أوما يعرف بالمثقف النجم الذي يريد الاستفادة من الشهرة دون أن يحاسب بموجبها. فبالنسبة له تقع المسؤولية فقط على عاتق السياسي ومن ماثله. وعلى ذكر النجومية ينبغي الإشارة إلى أن وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي أدت إلى ظهور نوع جديد من المثقفين صناع الفرجة يستمدون شرعيتهم من الجمهور لا من الجماعة العلمية أوالثقافية، ولا شك أن نماذج مماثلة ستعزز حمى صناعة المحتوى وبالتالي العزوف عن الشأن الفكري وما يقتضيه من تكوين معرفي جاد وابتعاد عن الأضواء ومتابعة الترند

هكذا نلاحظ أن الحالة الراهنة التي عليها نخبنا لم يصنعها الاستعمار وحده، بل وجدت أسبابها كذلك في القابلية للاستعمار كحالة تفكك لشبكة العلاقات الاجتماعية؛ وقد عبر عن هذه الحالة المفكر المغربي ابراهيم بوطالب إذ قال : «لم نعد نجمع على شيء في المجال الثقافي، وصار كل واحد منا له نظره الخاص في التعليم وفي لغة التعليم، وفي معنى العقيدة وكيف ينبغي ممارستها... إنها البلبلة الثقافية المطلقة».

خاتمة

إن البلاد المتخلفة لا تتفطن بالضرورة إلى ظاهرة عزوف الشباب عن الشأن الفكري، ولكنها تسجل تلقائيا نتائجه السلبية، فتحول المدرسة الجزائرية من ضمير وتفكير بن باديس إلى غريزية بافلوف، وتبني الحراك لمقولة شعبوية من قبيل «يتنحاوقاع !» مقابل تجاهل مقولة الأستاذ جيدل «استعادة المجتمع للدولة» مع ما تمنحه من وعي بطبيعة المرحلة وما تقتضيه من تحمل للمسؤولية. وما يضاف إلى ذلك من ظواهر كضعف الانتماء الوطني وهجرة الأدمغة، والتماهي مع مشاريع المنظمات غير الحكومية، دون وعي بخلفياتها كوسائل حرب ناعمة. وشيوع خطابات من قبيل تسويق الذات والتنمية البشرية والعلاج بالطاقة، والاغتراب والتخفف من المسؤولية الحضارية كلها نتائج مباشرة وغير مباشرة لظاهرة عزوف الشباب عن الشأن الفكري

الحركات الإسلامية والشأن الفكري، مقاربة للجدل القائم بين منطق العمل ومنطق الفكرة

شباب حمس نموذج

محمد كمال الدين مادوي

مقدمة

(بيان الأطروحة – الإشكالية)

إنّ رغبة أيّ باحث في الوقوف على نموذج تفسيري واضح وفعّال للعلاقة المركبة بين الشأن الفكري ومدى اشتباك جيل اليوم من الشباب معه اقترابا أوابتعادا، لابد أن تستند إلى مقدمات واسعة ومختلفة، ترصد حركة هذه الشريحة في اجتماعها البشري وتلقي الضوء على مختلف أدبيات ووسائط التنشئة الاجتماعية التي ترعاها وتشكل بناها الدينية والفكرية والاجتماعية ناسجة تصوراتها عن الحياة وضروب التفاعل معها لهذا اخترت في هذه الورقة البحثية التي تأتي في إطار ملتقى **(مجالس)** الأوّل؛ الذي جعل من ظاهرة عزوف الشباب الجزائري عن الشأن الفكري مظلة له لمعالجة إشكاليات فرعية تنتهي في اجتماعها وتكاملها لتفسير أسباب هذا العزوف، اخترت أن أشتغل بشكل خاص على **شباب الحركة الإسلامية في الجزائر (شباب حمس نموذجا)** محاولا رصد هذه الظاهرة من داخل هذا النسيج الاجتماعي الذي يحمل خصائص فرادته وتميزه المؤهلة ليكون محل بحث ودراسة خاصة، لاسيما ما تعلق ببيان الجدل القائم بين منطق الفكر ومنطق العمل عند هذه الفئة الشبابية

وقبل أن أنفذ لبسط هذه الإشكالية وسبل تناولها، لابد أن أشير إلى أنّ الاشتغال بجزئية هذا البحث؛ لاشك أنها تلتقي مع مسارات كلية لا يستقيم دونها الوصول لتوصيف جاد ومكتمل لانعكاسات هذا الجدل، إذ أنّ هذا الجدل كان قائما من الأساس منذ نشأة هذه الحركات، ومصاحبا لها على مرّ تاريخها ولمختلف أجيالها، يرجع ذلك لما تمثله هذه الحركات من استجابة داخلية وخارجية لأزمات هذه الأمّة في قرنها المنصرم، أزمات قد نلخصها في غياب الأمّة عن المشهد الحضاري فكرا واشتغالا

هذه الإستجابة التي كانت في جزء كبير منها أشبه باستفاقة على وضع لم تعهده الأمّة في قرونها الأولى، وضع غلب عليه مُصادرة حريتها واستقلالها وأراضيها وجزء كبير لما تكون عليه هويتها، استفاقة جعلت ركب الإصلاحيين الأوائل وطليعتهم على خط التماس الأول في مواجهة هذه الهيمنة والاحتلال الفكري والعسكري من جهة، وفي تحريك فواعل هذه الأمّة وبنيها وإيقاظهم من حالة التقاعس والعجز التي أصابتهم من جهة أخرى.

مواجهة حملت في بداياتها عنوان **الاستئناف والعودة** للمظلة الجامعة التي كانت تأوي المسلمين بمختلف تشكيلاتهم وأعراقهم وأطيافهم، العودة لإحياء فكرة **الخلافة الإسلامية** في أنفس المسلمين والعمل على إقامتها في واقع معاشهم وحياتهم.

هذه المواجهة والاستجابة لمشروع الحداثة الغربي وإفرازاته وتمثلاته في حياة الناس، فكرا وفضاءات ومنتجات وأدوات، نقلت هذه الحركات فيما بعد بسلطة الواقع وتحدياته من مجابهة مشروع الحداثة ومفاصلته بالكلية بعد أن عرفته أوّل معرفته عبر حركاته الإستعمارية، إلى قبول ببعض تمثلاته والاشتغال من داخل نموذجه بعد استقلال بلدانها وبدايات تشكل الدول القومية التي تنتسب لها وتتحرك في فضاءاتها.

هذا العبور الطويل من مشروع إسلامي حركي يستند لأدبيات إسلامية صريحة تسعى لأن تشكل الإنسان وواقعه بما يقتضيه تصور هذا الدين للحياة، إلى مشروع يعمل من داخل تصور حضاري آخر، محاولا الاشتباك المرن معه في فضاءاته وبأدواته وبقناعة باقية وثابتة أنّه يستحيل أن يلتقي معه في الغايات والنهايات، لاشك أنّه يلقي بظلاله على عقل هذه الحركات (هذه الحركات التي تسمى فيما تسمى اليوم بحركات الإسلام السياسي) وعقل منتسبيها، ويساهم في تحولات عميقة وثغرات مفصلية في نموذجها المعرفي قد تظهر بشكل طبيعي وقد تساهم بعض

الأحداث واللحظات التاريخية في جلائها بشكل أكبر ودقيق.. هذا التغير الذي سيؤثر من جديد على منطقها العملي واختياراتها التشغيلية، إنتاجا وتحريكا وتقييما ومراجعة .

ولعلّ أبرز هذه اللحظات التي أظهرت هذا الاختلال في حاضرنا؛ وأبانت عن تلك الفجوة التي تفصل بين **منطق الفكر** و**منطق العمل** في بنى هذه الحركات، على اختلاف السياقات والأقطار، هي **لحظة رابعة؛** متوسطة عقد الربيع العربي بأحلامه وآماله وخيباته ومآلاته، وما تلاها من اهتزازات تجاوزت الحالة المصرية لتعيد طرح قضية الحركات الإسلامية بشكل عام - دراسة لرهاناتها ومستقبلها - على طاولة مراكز التفكير وفضاءات البحث والمراقبة والرصد، ولتفتح النقاش هذه المرة داخل هذه الحركات أيضا؛ عبر ورشات مختلفة للتقييم والمراجعة، سواء ما كان بشكل عام أوخاص، جماعي أوفردي..

وقع هذه اللحظة وما صحبه من تغيرات كبيرة وواسعة في الخارطة السياسية والاجتماعية للمنطقة، جعل شباب الحركات الإسلامية أمام باب واسع من الأسئلة المفتوحة، التي تُسائل المناهج والأدوات كما تُسائل الأهداف والغايات.

أسئلة مربكة في مجملها، مقلقة للعقل الحركي، مجلية لمكامن الضعف والقصور عنده في فهم ما يريد؟ وفهم المشروع الحداثي الذي يشتبك معه ويعلق على بعض مفرداته؛ آماله في الإصلاح والتمكين (الدولة الحداثية وأدواتها) ودراسة شباب الحركة الإسلامية في الجزائر مرتبطة بهذا السياق العام للحركات الإسلامية متفاعلة معه تأثرا وتأثيرا، على غرار ارتباطها بسياق تجارب الحركة الإصلاحية الوطنية انتماءً وامتدادا.

ولعلّ هذه التوطئة تكفي هنا للانتقال إلى الإشكالية العامة التي تحاول هذه الورقة الإجابة عنها: **كيف يتفاعل شباب الحركات الإسلامية مع الشأن الفكري ؟** (شباب حمس نموذجا)... وذلك بالتركيز على محاور

خمس نحاول بسطها في هذه الورقة وتفكيكها ومقاربتها مقاربة تحليلية استدلالية:

- فهم الأطر المعرفية والتنظيمية التي تساهم في تشكيل شخصية الشاب الحركي الحمسي.
- رسم معالم الشخصية الحمسية .. الهوية والهويات الفرعية (المؤسسات والفضاءات).
- مواضيع المركز والهامش في الفضاءات الحركية.
- اللحظات التاريخية وانعكاسها على تعامل شباب الحركة مع الشأن الفكري.
- واقع المشاريع الفكرية ضمن نطاق الحركات الاسلامية.

الدراسات السابقة

الحركات الإسلامية بوصفها ظاهرة دينية سوسيوسياسية، تشكل للدارسين والباحثين تحديا مركبا:

الأول من ناحية السياقات التي تشتغل ضمنها والتي تَحُول أحيانا دون الوصول للمعلومات والبيانات والشهادات التي تمكن من وضعها بشكل موضوعي على طاولة البحث والدرس، وهذا عامل يتفاوت حسب الأقطار التي تتواجد بها وتشتغل

والثاني متعلق بتعقيد الظاهرة، واتصالها بميادين وحقول معرفية متعددة، تجعل من الامساك بها أومقاربتها من زاوية واحدة أمرا يفضي لنتائج قاصرة غير مفسرة بشكل واف لما يريده الباحث وتتم به الدراسة

أردت أن أقدم بذلك، قبل أن أنتقل إلى أهمّ الدراسات التي وقفت عليها، والتي أرى أنها تشتبك بشكل ما مع الاشكالية التي قدمنا بها سابقا. وتجاوزا

للكتابات والنصوص التي كتبت من داخل الحركة الإسلامية كشهادات وسير ذاتية قد يستفاد من بعضها

لعل من أهم الدراسات الأكاديمية التي أحاطت بالظاهرة من خارجها:

- داخل الإخوان المسلمين (الدين والهوية والسياسة)" - خليل عناني
- سقوط الأيديولوجيا وإنهيار التنظيم - حسام تمام
- الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي- وائل حلاق
- الخيال السياسي للإسلاميين ما قبل الدولة ومابعدها- هبة رؤوف عزت
- الحركة الإسلامية في السودان - مدخل إلى فكرها الاستراتيجي والتنظيمي - محمد مختار الشنقيطي
- الكتابات المتعلقة بأطروحة ما بعد الإسلام السياسي : (آصف بيات - أوليفيه روا)
- الإسلاميون ومراكز البحث الأمريكية- بلال التليدي.

منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على دراسة **اثنوغرافيا ذاتية تحليلية**، تسعى للوصول الى نموذج تفسيري قادر على فهم الظاهرة ومحاولة لتكوين جملة من الإجابات التي لا تعول على الإحصاءات والأرقام بقدر استنادها على القصص والتجارب وشكل العلاقات الناظمة لهذه البنية الاجتماعية والتنظيمية ومدى علاقتها بتشكّلات العقل الحركي وتفاعلاته الميدانية.

سيستند هذا البحث كذلك على جملة من البيانات سواء ما تعلق بالدراسات السابقة أوالبيانات المتصلة بالبرامج المعرفية والتربوية،

والنشاطات الاجتماعية والحزبية، وتوصيف للفضاءات الناظمة للعمل الحركي وما يتصل بذلك كله من نصوص ووثائق وكتابات

اختيار هذا النهج في البحث بلا شك، راجع لطبيعة صلتي بهذه الحركات، وطبيعة انشغالي بالدراسات المتعلقة حولها نقدا وتقييما، فأنا أحد المنتمين إليها، الناشئين في حواضنها وفضاءاتها، المتدرجين في رتبها وهياكلها، المشتبكين بأزماتها وقضاياها من الداخل

ولعلّ جملة النقاشات والحوارات والتجارب التي جمعتني بشبابها وقيادتها في مختلف الفضاءات والمحطات ستكون مادة خام يسهل استدعاؤها وتطويعها لما تقتضيه مناحي هذا البحث؛ لفهم أدق وأقرب للعقل الحركي وتفاعلاته مع الواقع المحيط به والتحولات الطارئة على كل ذلك.

محاور البحث

سنعتمد في هذه الدراسة بشكل كبير على دراسة الدكتور خليل عناني في مقاربته التي ضمنها كتابه (داخل الإخوان المسلمين) في فهم عامل الهوية داخل الحركات الإسلامية باعتباره حجر الزاوية في تحليل ظاهرة الحركات الإسلامية وفهم بنيتها الداخلية، ومنطق تشكّلها، وطريقة عملها،وموازين القوى بداخلها، وتأثير ذلك كله على تفاعلاتها الخارجية.

وسنحاول أن نقترب من نموذج حركة مجتمع السلم وشبابها كعينة دراسية يمكننا اتصالنا بها من فهم أعمق وأدق لتأثير هذه الهوية في تعاطيها مع الشأن الفكري

1- فهم الأطر المعرفية والتنظيمية التي تساهم في تشكيل شخصية الشاب الحركي الحمسي

لفهم تفاعل شباب الحركة الإسلامية مع الشأن الفكري، لابد أن نلقي الضوء ابتداء على العوامل المؤثرة في تنشئة هذه الشريحة

وصياغة تصوّراتها وشخصيّتها وهويّتها، والتي تحدد بشكل كبير مراكز إهتماماتها وطريقة تفاعلها مع العالم من حولها، فهما له وإشتباكًا معه

نشأت التنظيمات بصورتها الحالية بعد الثورة البرجوازية لتزدهر بقدوم الثورة الصناعية،

وتنقل بذلك المجتمعات الحديثة من أشكالها القديمة كقبائل وطوائف، وطبقات يحددها النظام الإقطاعي إلى أشكال جديدة (النقابات والأحزاب والجمعيات والحركات الاجتماعية..) انتظمت عبرها المجتمعات الصناعية في قلب أوروبا وغيرها من شعوب المعمورة بعد ذلك

تجتمع هذه التنظيمات على غايات وأهداف مشتركة، وقضايا خاصة أوعامة تحركها.

«ومن المعلوم أن كل مجتمع يحتوي مشكلة أفكار دارجة تحرك الجماهير، كما يحتوي مشكلة أفكار علمية تخص المثقفين، وكما أن هذه تحدد لدى القادة والعلماء حلولا نظرية لبعض المشكلات، فإن تلك تحدد السلوك العلمي للجماعات ازّاء هذه المشاكل التي تصادفهم في الحياة» مالك بن نبي

واستنادا إلى ما ذهب إليه ابن نبي هنا، فإنّ دور التنظيمات الأول هوأن تجيب على مشاكل الجماهير والمثقفين على حد سواء، وفي إجابتها الواقعية عن هذا التحدي، نلاحظ أنها دائما ما تميل بشكل أكبر لتضم هموم الفئة الواسعة

تضم هذه التنظيمات في النهاية أعداد كبيرة من أفراد هذا المجتمع تتمايز في مجملها عن عمومه وتسير على قدر أوسطها، مشكلة بذلك طبقة تتوسط أفكار النخبة وأفكار رجل الشارع، مضيفة إلى الواقع العام **حركية** دائمة ومتواصلة، و**مساحة لتداول الأفكار** وتجسيدها .

ليست التنظيمات والحركات الإسلامية بعيدة عن ذلك أيضا، ولاشك أنّنا بالتركيز على تنظيم الإخوان المسلمين، التنظيم الأكبر والأكثر انتشارا في ربوع العالم الإسلامي، نقف على ما قام به حسن البنا بنقل نقاشات الطليعة الإصلاحية الأولى وقضاياها من مساحاتها النخبوية الضيّقة إلى المقاهي والشوارع

ومن خلال البنية المعرفية والتنظيمية لحركة مجتمع السلم سنعمل على فهم الطريقة التي تؤثر بها هذه الحركات على أفرادها وتشكيل شخصياتهم وتعاطيهم مع الشأن الفكري

تتميز الحركة بدمج عضوي بين البنية **التربوية الفكرية** والبنية **التنظيمية المؤسسية**، الأمر الذي يساعدها على تعزيز انتماءات أفرادها، وتشكيل هوياتهم، والانسجام مع هيكل الحركة العام من حيث وحدة التصورات وتناغم الحركات...هذا الدمج يفضي في المحصلة **لمستويات عضوية** متعددة مرتبطة ببرامج تربوية تختص بكل **مرحلة**، ينتقل فيها الفرد من محب إلى مناصر إلى ملتزم في صفوف الحركة مؤهلا للتدرج في هياكلها وتقلد مسؤولياتها العليا

تُولي الحركة **محاضنَ التنشئة** الأولى اهتماما بالغا لضمان وجودها واستمراره، ويمكننا القول أنّ اعتمادها لوقت غير بعيد كان مرتكزا بشكل كبير على العمل المسجدي (أول عهدها) الحركة الكشفية والبيئة الطلابية، هذه المحاضن التي لطالما أمدّتها برصيدها البشري الذي يعمر قواعدها ويتقلد مسؤولياتها، هذا على غرار المؤسسات التطوعية وجمعيات المجتمع المدني التي تعمل ضمن نطاقها. ويمكن القول أنّها تعمد في انتشارها هذا على التوفيق بين مبدأين (**مبدأ الدمج ومبدأ الإقصاء**)، إذ هي تعرض دعوتها ومشروعها بشكل مفتوح وعام للجميع، وتنتقل بهم بعد ذلك من مرحلة إلى أخرى بحسب معاييرها التي تضعها هي ابتداء، معتمدة في ذلك بشكل أساسي على محور التربية والتكوين، عبر محطاتها التي يتدرج فيها الفرد من:

- مرحلة التعارف.
- تحريك قضايا الإيمان.
- زرع مفهوم شمولية الإسلام.
- وجوب العمل للإسلام.
- وجوب العمل الجماعي.
- التعرف على الجماعات الإسلامية.

ثمّ ينتقل بعد هذه المحطة الأخيرة -إن شاء- إلى أن يكون عضوا ملتزما في صفوفها الحركية، بعد أن كان محبا فمناصرا لفكرتها في البداية

هذه الانتقالات كما تعرضنا لها هنا، هي ذات الأدبيات العامة التي تعرف بها كل تشكيلات الإخوان المسلمين أومختلف التنظيمات التي تستقي من تجربتهم، وهي في نموذج حركة مجتمع السلم أقل صلابة منها في النماذج الأخرى، يرجع ذلك للكيان السياسي الذي يشكل الهوية الأساسية لهذه الحركة وأول اتصال لها مع المجتمع وهذا ما يجعلها مع تحد دائم في **الانفتاح** على مختلف شرائحه بما يكفله مبدأ المواطنة التي تتشكل به الحياة السياسية والاجتماعية

تعتبر الحركة وحدة التصور العام لأدبياتها وغاياتها، والحد الأدنى من الثقافة الإسلامية، والإطلاع على تاريخ الحركة الوطنية وعلى التجارب الإصلاحية والسياسية في الأقطار الإسلامية الأخرى من صميم عملها المعرفي، ترى ذلك في برنامجها التربوي الذي تقام به أسرها، وفي برامج ندواتها ومخيماتها، وجامعاتها الصيفية. يتصل بذلك تثقيفٌ عام بما يتصل بالحياة السياسية وممارساتها الإجرائية وما يتعلق بفهم برامج الحركة ومبادراتها واختياراتها السياسية واقتراحاتها التنموية. كل ذلك كما أسلفنا يرتبط في شق كبير منه بما يتوافق وأدوار الفرد في الحركة ومسؤولياته الحزبية والتنظيمية التي يتقلدها

لعلنا لا نغفل أيضا هنا محورية **دور القائد** الأول في الحركة في بناء التصورات العامة، والتأثير الكبير في تعاطي عموم أفرادها مع الشأن الفكري، لما تكتنفه شخصية القائد في البيئة الإسلامية من مكانة ورمزية...نرى ذلك بشكل واضح في تأثير شخصية حسن البنا وكتاباته في الحركات الإسلامية على عمومها، كما نراه في تأثير شخصية محفوظ نحناح، وتراثه المكتوب والمرئي في أبناء حركة مجتمع السلم، والذي يعتبر جزء كبير منه ضمن ما هم ملزمون بمتابعته ضمن برامجهم التربوية المعرفية (سلسلة الفهم، بعض المرئيات والمحاضرات العامة) لم يختلف الأمر كذلك مع الشخصيات التي توالت على منصب قيادة حركة مجتمع السلم، فكتابات أبوجرة سلطاني ومقالاته الدورية كانت تعتبر مصدر تثقيف أول ومتابعة دائمة لجموع الحمسيين

وكذلك الأمر مع عبد الرزاق مقري وإنتاجه المكتوب أوالمرئي أوالمبثوث عبر مواقع التواصل الاجتماعي

جزء من هذه المحورية راجع لما تمثله هذه القيادة من سلطة معرفية وتنظيمية في الوقت آنه داخل الحركة، تتمتع بصلاحيات واسعة في تحديد الأهداف النهائية والأداتية وبناء التصورات العامة عن الأحداث بما يهيئ الحركة للتعامل معها وإنفاذ أهدافها

2 - رسم معالم الشخصية الحمسية .. الهوية والهويات الفرعية (التنظيم والمؤسسات)

«الهوية ليست معطى مسبقا بل هي مفهوم يتم بناؤه ويعكس إحساس الأشخاص بالانتماء إلى عائلة محددة أوجماعة أوقبيلة أودين، الهوية من هنا هي نتاج عمليات معقدة وديناميكية من بناء المعنى في الحياة اليومية للأفراد»

بهذا يعلل **خليل عناني** اختياره البحثي في اعتبار عامل الهوية إطارا

تحليليا من شأنه تفكيك ظاهرة الحركات الإسلامية ومقاربتها بشكل أفضل، متجاوزا مقاربة الأزمة، ومقاربة الماهوية، ونظرية الحركات الإجتماعية كمقاربات منعزلة لفهم الظاهرة. وهوإذا يعتمد على جملة من الدراسات من أهمها دراسة «**ألبيرتوميلوشي**» حول **الهوية المتحركة** للحركات الاجتماعية، يستند كذلك على **البنائية الاجتماعية** كإطار تحليلي يوضح عملية هذا البناء

يركز ميلوشي في أطروحته على أنّ ظهور الفاعلين الاجتماعيين ليس مرتبطا أساسا بأوصاف ثقافية أوبنيوية، ولا يسبق وقوع الأحداث الإجتماعية وحركة التاريخ، ويرى أنّ الهوية الاجتماعية تتشكل من خلال هذا الفعل الإرادي المنظم الذي يشتبك مع الأحداث ويظهر خلال الصراع، فهي:

«ليست معطى أوجوهرا أوشيئا ذا وجود حقيقي، وإنما هي ظاهرة يتم بناؤها اجتماعيا، وهي انعكاس لعدد من العمليات والتفاعلات التي تحدث داخل الحركات الاجتماعية والتي تصاغ بواسطة الفرص والقيود التي تفرضها البيئة الخارجية «. ولعلي أورد هنا جملة من الاقتباسات التي تتعرض للهوية كإطار نظري لفهم السلوك الإنساني وتفاعلاته قبل الانتقال لفهم مستويات الهوية داخل حركة مجتمع السلم وتأثيرها على إنتاج العمل الجماعي.

«التوقعات ترتبط بمواقع الفرد في شبكات علاقات ما، تصبح الهويات هي توقعات الأدوار التي يضيفها الفرد على نفسه «

مفهوم الأدوار الاجتماعية لكل من : شيلدون سترابكر وبيتر بورك (الهوية - الدور) يبين مدى خضوع السلوك لخيارات الدور

«يجب أن تتم مشاركة الهوية - الدور ..وأن يتم الاعتراف بها مجتمعيا ..وأن تعرف بالأفعال..»بيتر كاليرو

بهذا المعنى تصبح الهوية رابطا مهما بين البنية الإجتماعية والأفعال الفردية، ما يشير إلى أنّ الهوية لابد أن يتبعها فعل في المقام الأول

«إن الإجابة عن سؤال من أنا؟ ليست ممكنة من دون تحديد من أي موقع أتحدث، ومع من أتحدث» تشارلز تايلور

تؤكد كل من تايلور وويتر على أهمية الثقافة في بناء الهوية، كما تجادلان بأن الهوية الجماعية أكثر ملاءمة من الأيديولوجيا من أجل فهم الظاهرة الجماعية، إذ أن تفكيك الهوية الجماعية أساسي لفهم تعقيد العمل الجماعي بعيدا عن التحليلات البنيوية .

تُشكّل الهوية الجماعية إذا مكونا رئيسيا في نشاط الحركات الاجتماعية، فالعلاقة بين الهوية الجماعية والعمل الجماعي علاقة تبادلية، إذ تبني الحركات هويتها من خلال موجات دائمة من العمل الجماعي، وفي المقابل يُمَكّن العمل الجماعي الحركات من الحفاظ على هويتها وضمان الشعور بالانتماء لأعضائها، يشير (البيرتوميلوشي) إلى ثلاث وظائف تضمن بها الهوية الجماعية استمرار الحركات الاجتماعية وهي:

- تنظيم العضوية.
- تحديد متطلبات الانضمام إلى الحركة.
- ترسيم القواعد والمعايير التي يتعرف بها الأعضاء على بعضهم البعض وبالمقابل يتعرف بها الآخرون عليهم.

مما سبق ومن الدراسة الكاملة التي تقدم بها خليل العناني، يمكن فهم جهود الحركات الإسلامية في التعاطي مع مسألة الهويّة الخاصة بأفرادها، وكيف صنعت نموذجها المتفرد الذي يعني بهذا البناء، بما في ذلك قدرتها على خلق المعاني والمعايير والتصورات والقيم، واعتماد **نظام عضوية متعدد المستويات والمراحل** وتعاملها مع السياقات الخارجية بما يحفظ تمايزها ويضمن ولاء أتباعها..

وبسحب الحديث مرة أخرى لداخل حركة مجتمع السلم، نجد أنّنا أمام نموذج قد يقدم الكثير من الأسئلة، لما يميز التجربة الأخيرة التي خاضتها الحركة في عقدها الأخير من تجديد في بنائها التنظيمي واعتماد اتجاه **التمييز الوظيفي** وخلق شبكة من المؤسسات الرديفة التي تعنى بوظائف الحركة على اختلافها، واختصاص الحزب بالوظيفة السياسية والتنظيمية ترحيل الوظائف هذا، لاشك يجعل الفرد في الحركة أمام مستويات من الهوية، هوية الحزب السياسي والحركة كمظلة تظل الجميع، وهويات فرعية تتعلق بهذه المؤسسات الحديثة النشأة، المتخصصة أداء ووظيفة، المختلفة إدارة وتكوينا وتقاليدا تنظيمية... ومن الجدير بالقول كذلك أنّ هذا التغيير لم يستقر بعد على حالة نهائية متفق عليها تدير الصلات البينية بين التنظيم وهذه المؤسسات، وتدير في الوقت آنه عملية بناء الهوية للمنتسبين لهذه الحركة بمختلف روافدها

الأمر الذي قد يشكل اضطرابا في هوية الأجيال الجديدة، بالأخص تلك التي شهدت تحولات الربيع العربي، وتتعامل اليوم مع عالم يختلف عن عالم الأمس في خطاباته وأدواته، وفي طريقة التواصل بين أعضائه

فإذا أضفنا لذلك أنّ نموذج الأمس الذي كانت تقدمه الحركة في استيعاب بَنيها حركة واشتغالا وتفكيرا داخل الأطر التي تنشئها، أصبح عصيا على المواصلة والبقاء في هذا العالم المفتوح وفضاءاته المشتبكة، بما في ذلك الفضاء الالكتروني، وأنّ الشاب الحمسي (كأقرانه) قد يجد نفسه اليوم ضمن انتماءات وعناوين أخرى، تشكل جزء كبيرا من معارفه وتصوراته، تصورات قد لا تتفق بالضرورة مع تلك التي تحاول الحركة تشكيلها، وهوعرضة لخطابات كثيرة، تنتقل من أقصى اليمين لأقصى اليسار، لا تنتمي لذات المفردات التي تعمل الحركة على ترسيخها فيه والتمكين لها عبره.

كل هذا يجعل عملية بناء الهوية اليوم تحديا بالغا أمام الحركة، على المستوى التنظيري والعملي على حد سواء، ويجعلنا أمام شخصية

حركية شبابية:

- متعددة الهويات حدا يصل أحيانا للاضطراب والتناقض.
- أكثر قدرة على الانفتاح والتواصل.
- أقل التزاما وأقرب لتفضيل الاختيارات الشخصية.
- متجاوزة للكثير من التقييدات التنظيمية.
- مشوشة الرؤية فيما يتعلق بغاياتها، مزعزعة اليقين في السرديات الحركية التي تعمل من داخلها.

هذه الملامح قد تظهر جلية أحيانا، وقد تعكسها بعض سلوكيات هذه الشريحة وتعاطيها مع الشأن الحركي والشأن العام، وتلمسها كذلك في انعكاسات هوية هذه الشريحة أيضا في فضاءات التواصل الاجتماعي

3 - اللحظات التاريخية وانعكاسها على تعامل شباب الحركة مع الشأن الفكري

تتخلل حركة التاريخ لحظات مفصلية، عظيمة الأثر، عميقة الدلالة، مزلزلة للسرديات والقناعات والأنساق المعرفية، مربكة للفعل، تفتح الباب مشرعا أمام أسئلة كثيرة انتهت صلاحية إجاباتها القديمة وأصبحت تحتاج لإجابات مستجدة متفاعلة مع الواقع الجديد الذي بعثها وحركها في تاريخ الحركات الإسلامية عموما لحظات كثيرة يمكن الوقوف عندها، ولكننا في هذه الدراسة قد نكتفي بلحظات ثلاث كان لها الأثر البالغ على حركة مجتمع السلم وشبابها اليوم، لنحاول أن نرى عن كثب ما أحدثته هذه اللحظات في بناء هذه الحركة وعقول منتسبيها

لحظة الانفتاح السياسي في الجزائر:

لاشك أنّ هذه اللحظة من أهم اللحظات التي مرت بالحركة، إذ هي

لحظة تشكل كيانها الذي هي عليه اليوم، ولحظة الانتقال من العمل السري بخصوصياته ومعالمه للعمل العلني بتحدّياته ورهاناته، وهي لحظة التمايز داخل الصف الإسلامي لاسيما بعد الأحداث التي أعقبت هذا الانفتاح من صعود سريع لجبهة الإنقاذ الجزائرية واستيعابها لأعداد كبيرة من الطيف الإسلامي ثمّ وأد مشروعها قبل بدايته والانقلاب عليها، ودخول البلاد إثر ذلك في عشرية سوداء دموية كادت تودي بالبلد وتنهي قيام الدولة

لسنا هنا في مقام التفصيل في هذه الأحداث، ولكن ما نريد التركيز عليه أنّ ظروف نشأة حركة مجتمع السلم ككيان سياسي يتعاطى مع الشأن السياسي للبلد نقدا وممارسة كانت في مثل هذه الظروف، وضمن هذا الإطار يمكننا فهم الخيارات السياسية التي تبنتها، والمفاهيم التي حاولت التمكين لها في نفوس بنيها وسعت لإقحامها في المجال التداولي السياسي الرجوع لهذه اللحظة كذلك يجعلنا نقف على مقولة **(القائد- الخطة)**، إذا أنّنا لا يمكن أن نفهم تأثير هذه اللحظة دون أن نشتبك مع **شخصية المؤسس** (محفوظ نحناح) ، كتاباته، خطابه ومفرداته، إذ يمكن القول أنّ وعي أبناء الحركة في تلك الفترة وما لحقها تشكل بشكل أساسي اعتمادا على ذلك وإن أردنا أن نرصد بعض ملامح تفاعل الشخصية الحمسية مع تلك اللحظة فيمكن أن نلخصها في هذه الملامح الخمس:

- ـ التمايز الحركي والانضباط التنظيمي.
- ـ الانتماء الوطني والأفق الإقليمي العالمي.
- ـ المحافظة على الدولة ومكتسباتها المعنوية والمادية.
- ـ التفاعل السياسي الإيجابي ضمن إطار المشاركة السياسية.
- ـ نبذ العنف مع إرادة التغيير.

لحظة رابعة:

ثانـي هـذه اللحظـات وأهمهـا بالحديـث عـن الحـركات الإسلاميـة بشـكل عـام، هـي لحظـة رابعـة متوسـطة عقـد الربيـع العربـي بأحلامـه وآمـاله وخيباتـه ومآلاتـه، ومـا تلاهـا مـن اهتـزازات فـي السـاحة العربيـة والإسلاميـة لعلّ ارتـدادات تلـك الهـزة فـي السـاحة الجزائريـة لـم تكـن كشـبيهاتها فـي بقيـة الأقطـار العربيـة الإسلاميـة، إذ أنّ الجزائـر فـي تلـك الأثنـاء كانـت خـارج معادلـة الربيـع العربـي، والحركـة كانـت فـي بدايـة عهـدة رئاسـية جديـدة اتسـمت عناوينهـا بالتجديـد والفاعليـة (كتـاب البيـت الحمسـي: مسـارات التجديـد الوظيفـي فـي العمـل الإسلامي.لعبـد الـرزاق مقـري) غيـر أنّ أثـر هـذه اللحظـة كان عميقـا جـدا، ومزلـزلا لسـرديات وآمـال طالمـا كانـت صانعـة لمخيـال الحـركات الإسلاميـة، بانيـة لأدبياتهـا، محركـة لأفرادهـا

النقاشـات التـي تبعـت لحظـة رابعـة، والأسـئلة التـي طفـت علـى السـطح تسـائل مـن جديـد المشـروع الإسلامـي، وتبحـث عـن فهـم أكثـر اسـتيعابا للمشـروع الحداثـي، أسـئلة الاسـتحالة والامـكان، ونقـد الخيـال السياسـي الـذي يحكـم الحـركات الإسلاميـة وقادتهـا، الحديـث عـن نهايـة الإيديولوجيـا وانهيـار التنظيـم، والأطروحـات التـي ملأت مراكـز البحـث الغربيـة عـن مـا بعـد الإسلام السياسـي...

كل هـذه الأسـئلة المتحركـة فـي الفضـاء العـام بمختلـف وسـائطه، بلغـة الأبحـاث الأكاديميـة أولغـة التجـارب والقصـص الفرديـة، ومـا صاحـب ذلـك أيضـا مـن معايشـة لتجـارب التغييـر والثـورات فـي البلـدان العربيـة ودول الجـوار، تلـك التـي اتفقـت فـي البدايـات، وتشـابهت فـي صعـود التشـكيلات الإسلاميـة مسـتويات عليـا مـن السـلطة؛ وانتهـت كل منهـا لنهايـة مختلفـة لا تلتقـي إلا فـي أنّهـا جميعـا لـم تصـل لغايـة منشـودة بقـدر مـا وُئـدت وأُجهضـت وفَشـلت أوأُفشـلت، كل ذلـك وجـد طريقـه للانتقـال لفضـاءات النقـاش الشـبابي داخـل الحركـة بمسـتويات مختلفـة، وتأثيـر متبايـن، قـد لا ينعكـس بشـكل ظاهـر كمـا هوالحـال مـع شـباب الثـورات فـي البلـدان الأخـرى، إلا أنّـه موجـود ويؤثـر

على تصوراتهم وغاياتهم الحركية، ويسائل بين الحين والحين منطلقاتهم ومآلات مشاريعهم.

لحظة حراك 22 فيفري:

أمّا اللحظة الثالثة والتي تمثل لحظة تاريخية شاملة لكل تشكيلات المجتمع الجزائري وتنظيماته ومؤسساته فهي لحظة حراك 22 فيفري (2019)، غير أنّ الذي يعنينا هنا هو أن نفهم كيف تفاعلت معها حركة مجتمع السلم وشبابها. على عكس ما جرى مع باقي التيارات الإسلامية في ثورات الربيع العربي، حين تأخرت هذه التنظيمات عن إدراك اللحظة الأولى لانطلاق شرارة تلك الثورات لتلتحق بها فيما بعد عبر الجسور التي مهدتها لها قطاعاتها وتمثيلاتها الشبابية (ثورة 25 يناير نموذجا)، فإنّ تفاعل حركة مجتمع السلم مع لحظة الحراك الأولى كان من أعلى الهرم القيادي متمثلا في رئيس حركتها ومكتبه الوطني في الجمعة الأولى من الحراك، لتتحرك معه وبعده مكاتب الحركة الولائية ومؤسساتها وأفرادها.

هذا التحرك لم يكن وليد قرار مفاجئ أومتهور، بل هواستعداد لطالما أبداه رئيس حركة حمس السابق عبد الرزاق مقري في مختلف مناشطه الداخلية والخارجية، استشرافا لمآلات انغلاق الأفق السياسي في البلد، وهوموجود في العديد من تصريحاته الإعلامية التي يمكن الرجوع إليها هذا الإقدام، وروح المبادرة، وعدم التقيد بالثقل الذي تفرضه التنظيمات التقليدية في اتخاذ قراراتها وصناعة مواقفها اتجاه الأحداث الطارئة والفرص المفاجئة، لم ينعكس إلا بشكل متواضع على باقي مؤسسات الحركة وقطاعاتها الشبابية قد تكون اختيارات الحزب السياسية بعدها في عدم تسيّد تلك الجموع أوالتقدم عليها اختيارات مفهومة ومبررة، لكن إخفاق شباب الحركة في فتح مساحات واسعة، بشيء من المبادرة والإقدام وتجاوز المسميات التنظيمية؛ والاشتباك الحقيقي مع لحظة فارقة في تاريخ هذا الوطن يطرح العديد من التساؤلات التي تحاكم البنية المعرفية والتنظيمية التي يشتغلون من داخلها بمختلف عناوينها ومسمياتها

قد نحتاج للإجابة عن مثل هذه التساؤلات لدراسة أكثر تدقيقا، ولكني هنا أقدم بعض **الافتراضات** التي يمكن أن تساهم في تفسير هذا التفاعل وأثره؛ مصطحبا في ذلك تأثير اللحظات الثلاث على هذه الفئة وتعاطيها معها أومع إفرازاتها ونتائجها:

- غلبة المنطق التشغيلي على عمل الشباب وأنشطتهم، الأمر الذي لا يتناغم مع طبيعة الحركات الاحتجاجية ومنطق التغيرات السريعة والمفاجئة.
- الانكفاء على الشأن الداخلي للحركة ومشاريعها وعدم التفاعل والبحث الجاد في تجارب الثورات العربية.
- ضعف التأطير والتكوين وعدم امتلاك المناهج والتجارب اللازمة للتفاعل مع الأحداث الطارئة.
- غياب مؤسسة شبانية سياسية تستوعب الشباب الحمسي وتؤهلهم للعمل السياسي عمليًّا ومعرفيا.
- تأثير اللحظة الأولى (الانفتاح السياسي وما جلبه من مأساة) جعلت الفرد الحمسي بشكل عام بعيدا عن المغامرة؛ ميالا للبيئات والمساحات الأكثر استقرارا وأمانا عكس ما تتطلبه اللحظات المفصلية من ديناميكية ومخاطرة.
- ضعف التشبيك والتعاون مع باقي مؤسسات المجتمع المدني وتنظيماته (كان الحراك فرصة -باعتبار تحرر الفضاء العام- لاستدراك ذلك)

4 - مواضيع المركز والهامش في الفضاءات الحركية

إنّ الإحاطة بطبيعة التنظيمات الأولى من حيث أنها حركات اجتماعية فاعلة، تتصل بالفعل والحركة، وتحتكم أول ما تحتكم للمعايير التي تحصي حركاتها

ضمن بيئتها وفق منطق تشغيلي كمي ..(نشاط، تظاهرة، حملة، مبادرة..)، يسهل علينا فهم الصعوبة التي تتلقاها بالالتفات في كل مرة لمنطق الفكر المسائل للخطوات والاختيارات، والمآلات والمنطلقات، والمناهج والأدوات. هذه الصعوبة لا تتعلق فقط بقدرة طبقتها القيادية على الاستماع والتجاوب، أوقدرة قواعدها على الفهم والإدراك وإدارة الحوار والنقاش بقدر ما تتعلق بطبيعتها التنظيمية

كما سبق وأشرنا في أول محور أن الحركة تتميز بدمج عضوي بين بنيتها التربوية الفكرية وبنيتها التنظيمية المؤسسية، هذا ما يجعل أي مسارات للاشتغال الفكري والنقدي من داخل الحركة يفهم بكونه حيازة لمساحات سلطوية داخلية أوبالتعبير السائد (احداثا لجيوب وانشقاقات) وربما هذا ما يبرر لنا القبول الكبير لأي أفكار نقدية تأتي من أعلى الهرم التنظيمي، (كتابات ومراجعات القيادات نموذجا).

هذا **الدمج العضوي** بين هاتين الوظيفتين يجعلنا أمام **آلية ذاتية** فردية وجماعية تفصل بين مواضيع المركز ومواضيع الهامش.. لا من حيث مضامينها فقط، بل من حيث مصادرها وقائليها. وهوما يجعل التفكير في نقل أي فكرة من مساحات النقاشات المعرفية العملية لتكون ضمن مساحات التداول المعرفي بين أفراد الحركة وضمن فضاءاتها متعلقا **بالدور الوظيفي** الذي ينبغي الوصول إليه أوالإستناد عليه

5 - واقع المشاريع الفكرية ضمن نطاق حركة مجتمع السلم

نحاول في هذا المحور أن نتعرض لواقع المشاريع والمؤسسات الفكرية في نطاق حركة مجتمع السلم، محاولين أن نحصي بشكل عام أهمّها وأكثرها تأثيرا واتصالا بفضاءات الحركة

في الجدول الملحق بهذا المحور، أوردنا ثمانية (مؤسسات/ مشاريع) أنشأتها الحركة (نشأت بداخلها أونشأت بالقرب منها)، وحاولنا أن نعرّف

بهـا وبمنتجاتهـا، هـذا عـدا أننـا تناولنـا الشـخصيات التـي توالـت علـى رئاسـة الحركـة مـن حيـن تأسيسـها لليـوم **كمرجعيـات** لهـا تأثيرهـا الفكـري الواسـع علـى أبنـاء الحركـة وشـبابها، ويبقـى أنّـه لابـد مـن الإشـارة إلـى أنّ هنـاك روافـد ومشـاريع أخـرى عالميـة وإقليميـة ووطنيـة مؤثـرة فـي العقـل الحركـي فضلنـا عـدم تناولهـا هنـا اختصـار للدراسـة وتركيـزا علـى مـا يتعلـق بالنمـوذج الـذي اخترنـاه

هذه الدراسـة لا تختص بدراسـة هذه (مؤسسـات/ مشـاريع) عرضا وتفصيلا، بقـدر مـا تحـاول أن تقيـم الفـروض علـى طبيعـة ناشـأة هـذه المؤسسـات وتأثيرها ودورهـا فـي التنشـئة الفكريـة لأبنـاء الحركة وشـبابها بشـكل خاص:

1- بالتركيـز علـى المشـاريع التـي نشـأت مـن داخـل الحركة بشـكل مؤسسـي، لا تلـك التـي تنتمـي لأصحابهـا بشـكل تام مـن قبيل مركـز البصيرة(عبـد الرزاق مقـري) أوالمشـروع الجزائـري للتفكيـر والسياسـات (عبـد المجيـد مناصـرة) فإنّنـا يمكـن أن نثبـت ملاحظـة كنـا أسـلفنا الحديـث عنهـا بخصـوص الاشـتباك بيـن البنيـة التنظيميـة والبنيـة المعرفيـة التربويـة ومـا يمثلـه أي مشـروع فكـري داخـل الحركـة مـن **سـلطة مزدوجـة** ومهـددة فـي اعتبـار الحـس التنظيمـي تجربـة **المجلـس السياسـي** كمركـز تفكيـر مـن داخـل الحركـة امتـد طيلـة ثلاث سـنوات كاملـة بشـكل دائـم ومسـتمر وواعـد بالنضـج والتوسـع والأثـر المضاعـف، انتهـى بشـكل قطعـي بعـد المؤتمـر الرابـع الـذي شـهد أول إنشـقاق داخـل صفـوف الحركـة، لاشـك أنّ ذلـك الانشـقاق مؤثـر بشـكل مباشـر علـى المـوارد البشـرية التـي كانـت تديـره والتـي أصبحـت منقسـمة بيـن فسـطاطين، غيـر أنّ أثـره المعرفـي كان مغريـا باستنسـاخ التجربـة وحفـظ دوامهـا، لكـن يظهـر أنّـه بعـد الاهتـزازات الكبيـرة فـي التنظيمـات يغيـب سـلطان المعرفـة ليحضـر سـلطان الحـذر والتوجـس ودرء مفاسـد التفكيـر العالـي

الأمـر لا يختلـف كثيـرا عـن ظـروف نشـأة أكاديميـة جيـل الترجيـح، بتجـاوز أهدافهـا المعرفيـة والتأهيليـة لتحاكـم بشـكل مسـتمر ودائـم مـن قبـل جهـات كثيـرة داخـل الحركـة بأنّهـا كيـان مرجـح سياسـيا لا غيـر لجهـة علـى حسـاب

جهات أخرى، وربما الأمر الذي مكنها من المواصلة قريبة لفضاءات الحركة إلى غاية اليوم، يرجع بالأساس لصعود مؤسسها لأعلى الهرم القيادي داخل الحزب كرئيس له لعقد من الزمن (عهدتين)

2- الملاحظة الثانية متعلقة بطبيعة هذه المؤسسات واشتغالاتها الفكرية، ويمكن القول أنّ أي مؤسسة تشتغل على تعزيز الجانب القيمي، وتعزيز أدبيات الحركة وتناول فكرها وروافده المختلفة شرحا ونشرا وتعليما، ستحظى بالقبول وستجد سبيلا للتمكن والانتشار والتناغم مع باقي هياكل هذه الحركة ومؤسساتها، الأمر الذي سيكون أصعب على أي مشروع يحاول أن يمارس النقد الذاتي والتعرض لمساحات فكرية وجدلية قد تخاصم الآلة التشغيلة، وتسائل المنطلقات والغايات، المناهج والأدوات

3- وبالحديث عن المؤسسات التي أنشئت خارج الحركة وكان للحركة علاقة بها، سواء أكان مؤسسوها من قياداتها، أوكلفوا برئاستها وإدارتها، فالملاحظ أنّها ظلت بعيدة عن أن تحدث التغيير الكبير والمؤثر في تناول الشأن الفكري داخل صفوف الحركة وأبنائها فيما عدا الفرص المتاحة لبعض القيادات بما فيهم القيادات الشبابية

المشروع - المؤسسة	تعريف مختصر لها	منتجاتها
1.رؤساء الحركة باعتبارهم مرجعية فكرية لها	محفوظ نحناح	- المؤسسات جمعية الإرشاد والإصلاح حركة مجتمع السلم - أرشيف المحاضرات المرئية (المسجدية- الحركية- سلسلة الفهم) -الكتب: - «الجزائر المنشودة.. المعادلة المفقودة: الإسلام.. الوطنية.. الديمقراطية». - معا نحوالهدف - مجلة النبأ
	أبوجرة سلطاني	المؤسسات: المنتدى العالمي للوسطية الكتب: - بقرة اليتامى - الطريق إلى الله - سلسلة «أوراق إسلامية» - قشور الصراع في الجزائر - جذور الصراع في الجزائر - الجزائر الجديدة – الزحف نحوالديمقراطية من جزءين - أنظمة في وجه الإعصار، ثورة تونس نموذجا. - حركة القرآن المجيد: في النفس والمجتمع والتاريخ - أرشيف المحاضرات- المقالات (عند أمانة الإعلام بالحركة)

	عبد الرزاق مقري	المؤسسات: البصيرة – مركز البصيرة للأبحاث والدراسات والاستشارات أكاديمية جيل الترجيح للتأهيل القيادي منتدى كوالالمبور للفكر والحضارة: عن المنتدى (الأمانة العامة) برامج معرفية: برنامج تحدي العبور برنامج القرآن والسياسة مراجعات مع عزام التميمي الكتب: – صدام الحضارات: محاولة للفهم. – الحكم الصالح وآليات مكافحة الفساد. – درب المقاومة: جهاد الشعب الجزائري ضد الاحتلال (1830– 1962). – مدخل لفهم العلاقات الدولية. – المشكلات العالمية الكبرى والعلاقات الدولية (دراسة مقارنة بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي حول مشكلات التنمية والبيئة في العالم). – الانتقال الديمقراطي في الجزائر: رؤية ميدانية. – الجزائر وفلسطين: الموقف والمشاركة. – المشروع الإسلامي: هويته، أهدافه، أدواته، مصادر قوته. – الإسلام والديموقراطية: نحومواطنة فاعلة (تأليف جماعي). – البيت الحمسي: مسارات التجديد الوظيفي في العمل الإسلامي. – الحركة الإسلامية في الجزائر (الماضي، والرؤية المستقبلية).

		– الدولة المدنية.. رؤية إسلامية. – البيت الحمسي2 (رؤى، مفاهيم، ومشاريع تطويرية)، صدر في مايو2018. – أفكار وسياسات: وهومجموعة من النصوص الفكرية والسياسية التي عرضت في مؤسسات حركة مجتمع السلم، صدر في مايو2018. – مبادرات حل الأزمات (السياقات، الفواعل والنصوص)، صدر في أكتوبر 2019. – فكرنا السياسي، صدر في أكتوبر 2019. – قبل الحراك (عن التيه الحكومي وفي البدائل المنشودة)، صدر في أكتوبر 2019. _ الاستنهاض الحضاري وتحدي العبور، صدر في 2023
	عبد المجيد مناصرة	المؤسسات: المجلس السياسي (مجلة المختار) المنتدى الإسلامي العالمي للبرلمانيين (رئيس) المشروع الجزائري للتفكير والسياسات الكتب: - دروس في العمل السياسي الإسلامي. - مستقبل الحركة: معالم التغيير ومسالك التطوير. - مقالات في الأزمة. - الإصلاح السياسي: أولوية غير قابلة للتأجيل. - خطوات على الطريق: الحركة نحوالتأصيل والتجديد -أرشيف المحاضرات- المقالات (عند أمانة الإعلام بالحركة- التغيير)

2.المجلس السياسي	المجلس السياسي فضاء أسس سنة 2005 ، أشرف عليه نائب الحركة المكلف بالشؤون السياسية وقتها (عبد المجيد مناصرة) « تمكين للحركة بمناقشة الواقع والتفاعل معه، وتقييم الماضي والتعلم منه، واستشراف المستقبل والتطلع إلى المشاركة في تشكيله. كما يمثل فضاء النقاش العقلاني والموضوعي الهادئ المستوعب لمختلف القضايا السياسية وطنيا وعربيا وإسلاميا ودوليا للوصول إلى قراءات تحقق حاجة الحركة وأبنائها في الفهم والتفاعل والفعل والمبادرة» استمر لثلاث سنوات لغاية مؤتمر الحركة الرابع 2008..	33 دورة درس فيهما ملفات مختلفة: - ملفات وطنية - ملفات عربية إسلامية - ملفات العلاقة بين العالم الإسلامي والغربي - ملفات دولية دورات تكوين سياسي سنوية (1500 فرد) خلال الثلاث سنوات - مجلة المختار (24 عدد)
3.أكاديمية جيل الترجيح «مؤسسة تعنى بالتكوين القيادي الشبابي وذلك من خلال برامج متكاملة عبر أربع محاور هي: العلوم والمعارف،السلوك، المهارات، الفاعلية. تأسست سنة 2008»	محور (العلوم والمعارف) أحد محاور الأكاديمية الأربع، ويعتمد على تكوين الطالب في الأكاديمية وتثقيفه عبر جملة من المقررات والمعارف الدينية والإنسانية.	

	مشروع رشد للتأهيل الدعوي تاسس سنة 2014 المساهمة في نشر وترشيد العمل الدَّعوي الشبابي في الجزائر	- تدريب الدعاة وتكوينهم - مشاريع دعوية
	مشروع بناة للتكوين الفكري تأسس سنة 2017 مشروع للتكوين والإنتاج الفكري	- ختام المرحلة الأولى (تخرج الأعضاء بمشاريع بحثية فردية وجماعية) - المنتدى الفكري الشبابي - مجلة بناة الفكرية (قيد النشر)
4.جمعية المعالي للعلوم والتربية	جمعية المعالي للعلوم والتربية، هي جمعية وطنية تربوية دعوية، تأسست في سنة 2015، تهتم بالشأن التربوي والدعوي عبر التراب الوطني وفي الجالية، لتنمية المعارف ونشر المفاهيم الصحيحة وبناء القيم الوطنية والحضارية السامية.	المشاريع: - مركز الرواد للتدريب التربوي - أكاديمية إصعد - أطفال القيم - شباب القيم مؤتمر المعالي (أربع طبعات)
5.معهد التدريب والتأهيل السياسي	معهد غير ربحي للتدريب والتأهيل السياسي بالجزائر	- تخريج دفعتين
6.مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية	مركز بحثي استشاري، يعمل في مجال البحث العلمي، تأسس عام 1996 ومقره الرئيسي في مدينة الجزائر العاصمة.	9 دوريات محكمة (دراسات أرطفونيا- اجتماعية - أدبية - استراتيجية - اقتصادية - تاريخية - قانونية - نفسية - إسلامية) ندوات وملتقيات

7.منتدى كوالالمبور للفكر والحضارة	إقامة حوار دائم في القضايا الفكرية والحضارية حول واقع الأمة وخياراتها المستقبلية، يستند إلى مرجعية الإسلام، وبقراءة معاصرة شاملة لتوضيح الطريق للعاملين وتوجيههم نحوتحقيق القيم العليا للإسلام ونهضة الأمة وسيادتها.	- شبكة الباحثين - المؤتمرات الفكرية (سادس طبعة)

خاتمة

لقد حاولنا في هذه الورقة أن نجيب عن الإشكالية العامة التي يشتغل عليها ملتقى مجالس في عزوف الشباب الجزائري عن الشأن العام، واخترنا ضمن نطاق بحثنا المتعلق بالحركات الإسلامية (شباب حمس نموذجا) أن نبحث عن وجه هذا العزوف في بيئة لها حواضنها وبرامجها المعرفية الملزمة، ولها غاياتها وأهدافها المحركة، وتمتلك إلى جانب ذلك كله هويتها الخاصة التي تجعل منها في منزلة أقدر على مقاومة تداعيات المشروع الحداثي بمختلف تمثلاته السياسية والثقافية والإقتصادية

لذلك قدمنا سؤال الكيف عن سؤال السبب، وحاولنا أن نفهم طريقة تعامل الشباب الحمسي مع الشأن العام من خلال فهم البنية التنظيمية التي يعمل من خلالها ويصطبغ بهويتها، وأثرها في الأخير عليه في تعامله مع الشأن الفكري، وكيف يؤطر منطق هذه الحركات العملي والحركي طريقة اختياراته للمواضيع الفكرية، وطريقة تعامله معها قبولا أورفضا، اهتماما أوانصرافا، دون أن نهمل التغيرات الحاصلة في هذه العقد الأخير، والتي حدّت من هذا التأثير فاتحة ثغرات كثيرة، وأسئلة معلقة، وارباكا لسير هذه الحركات إن هي أرادت السير على ذات عهدها الأول، وعن التناقض الحاصل بين رؤاها وغاياتها العامة وبين الاضطراب وغياب اليقين واتساع دائرة المساءلات في أوساط الكثير من شبابها

ولعلّنا هنا حاولنا فقط فتح نافذة للبحث والنقاش عن موضوع جدير بالاهتمام، ولازلنا لم نمتلك بعد الإحاطة بكل منافذه وسبله من بيانات ودراسات، واقتراب من هذه الشريحة بوسائل أكثر موضوعية

ولكن لابأس أن نختم هذه البدايات ببعض الخلاصات والنتائج العامة، التي قد تساعد من يحاول البناء على هذه الدراسة والتوسع في التعاطي معها والبحث فيها وتساعد كذلك أي مشتغل بالشأن الفكري من داخل هذه الحركات خصوصا أومن خارجها:

- الفضاء العام اليوم يختلف عن الفضاء العام الذي نشأت فيه هذه الحركات، والتعامل معه بتوصيف الأمس وأدواته سبيل لانكفاء هذه الحركات واندثارها، بالأخص في هذا الزمن الذي بدأت تتشكل فيه ظاهرة «اللاحركات» الموسوم بعهد انتهاء الإيديولوجيا.
- العمل من داخل المجتمع، وبمعايير التنافسية الموضوعية لا التنظيمية، خيار لابد أن تقترب منه الحركات الإسلامية أكثر حتى لا تتحول أهدافها لأماني، ومشاريعها لأوهام.
- بسط الحرية في التربية الثقافية والفكرية، والتفكير في حلول تنظيمية عبقرية تستوعب الوظائف الفكرية، وفتح منافذ وفضاءات للنقد الذاتي أمر لابد منه للاستمرارية والفاعلية.
- الانفتاح والتشبيك والتعاون وإدارة الحوار والنقاش مع كافة تشكيلات المجتمع الفكرية والثقافية، خيار لابد أن يعزز على المستوى الفردي والجماعي، بحثا عن حلول مشتركة في وطن واحد وأمّة واحدة، لاسيما في حركة يعرف عن مؤسسها عبارته الأثيرة (الجزائر حررها الجميع ..ويبنيها الجميع).
- الفهم الموضوعي لواقع التنظيمات والحركات، أمر بالغ الأهمية لكل مشتغل بالشأن الفكري، سواء كان من داخل هذه الحركات أومن خارجها.

- طبيعة الفضاءات وطريقة هندستها وإختيار أنماط إدارتها، كل ذلك له تأثيره البالغ على الفكر وطريقة تناوله وتداوله.
- الكثير من المواضيع الراهنة هي مواضيع هامشية عند الحركات الإسلامية، غير مفكر فيها، أوغير مرغوب بالتفكير فيها.
- نقد الحركات والتنظيمات لا يعني بالضرورة إعلان فشلها أوعدم جدوى وجودها، فالأفكار لا تنشأ وتفعل في الفراغ، وهي بحاجة دائما لروافع وأسانيد تحملها وترعاها وتتداولها وتنقلها من عقول أصحابها لتجسدها ماديا في هذه الأرض وتعمرها، كما أنّ هذه التنظيمات لا تستطيع أن تستغني عن عالم الأفكار وسلطان المعرفة، فهي إذ ذاك تؤذن باندثارها وتعلن نهايتها، وإن استمرت هياكلها ومؤسساتها..

تعقيبات الجلسة الثانية:
الشأن الفكري والتقاليد الثقافية

افتتح الدكتور عمار جيدل تعقيبه حول إشكالية المجتمعات الشفوية بالإشارة إلى اعتراضه على ما فهمه من الفرضية التي قامت عليها الإشكالية: أن شعب يقرأ هو شعب لاخوف عليه كون التحدي هو محتوى القراءة لا القراءة في حد ذاتها، كما أشار إلى أهمّية المعاني الشفوية المأخوذة من الآباء والأجداد لأنّها بلاغ بالحال والبلاغ بالحال أوقع في النفس من المقال باعتبار الحال ليس كتابة بل حالة شفوية.. مع الإشارة إلى أهمية الكتابة وخطأ إهمالها ولكنها يجب أن تكون مسبوقة بالسلوك الذي يتمثّلها: «من أراد أن يقنع بفكرة مكتوبة فليتصرف مثلها»

وبين الحديث عن الشفوية والكتابة ذكّرنا الدكتور عمار جيدل أنّ الهدف هو الفعالية الاجتماعية المتحققة بالفكرة الأصيلة التي لايكفي أن تكون أصيلة فقط بل يجب أن تكون مُنطبعة في النفس ولابد من خطة موضوعة تراعي إحداثية الزمن والمكان وحامل المشروع

وفي تعقيبه على إشكالية النخبة شدد على أن النخبة ليست رتبة بل وظيفة لا تتعلق بالشهادات فكم من فرد مؤثر يلحق بالنخبة لأنه يعيش آلام وآمال مجتمعه.. مع استبعاد أصحاب الخماسة الفكرية من النخبة «وظيفيًا» وإن نسبوا إليها في سلم الرتب والشهادات.. كما أشار إلى مفهوم النخبة الصامدة التي تمثل مبدأ حركية العمل بالاسلام وهم العاملون للإسلام أو«النخب الفعّالة» الموجودة في كل مفصل مجتمعي

وفي حديثه عن إشكالية الحركات الإسلامية تحدث عن واقع عدم وجود فعل سياسي واقعي بل فعل سياسي شبيه، والشبيه غير واقعي ولا يمكن من حل المشاكل.. إذ أصبح ما يحكم الأحزاب هو الواقع السياسي وليس الهوية التي تمتاز بها الحركة من رؤية للوجود والحياة. ونتائج الخلط بين الأمرين، فالسياسة موقف تمليه حركية الواقع، لكن المقيمين على صناعة الفكر يجب أن يكونوا في منأى عن المناصب التنفيذية والقيادة لكي لا يصبحوا طرفا في النزاع ولا يقع الخلط بين مقامي السياسي المناضل لتجسيد البرامج والمتفكر الذي يعمل على صياغة البرامج

بينما كانت تعقيبات الدكتور بن يغزر عبارة عن إشارات إلى صفات الخطاب الشفوي الذي يجد قبولا جماهريا ويحقق تأثيرا واقعيا إذ ركز على نوعية الخطاب الغير المتطلب لجهد فكري كبير لفهمه وتحدّث عن أهمية المثقف الذي يخاطب الجماهير «شفهيا» بما تفهمه وتعقله فيجد عندها صدى واستجابة اذ لا يجب في رأيه أن يكون خطاب المغني اليوم أكثر تأثيرا من خطاب المثقف

في الإشكالية الثانية تحدث الأستاذ بن يغزر عن انقسام النخب وأثار التساؤل حول طبيعة الانقسام هل هو انقسام لغوي محض أم اجتماعي كذلك، كما شدد على ظاهرة ممارسة الإعجاب بأفكار مالك بن نبي دون الوصول للفهم ومن ثم الفاعلية وهذا من أخطاء النخبة الغير قادرة على تمثّل ما تقول

الإنسان الهامشي
كمنتج للرأسمالية المعاصرة

نبيل دردار

مقدمة

لـم تكـن الحـرب العالميـة الثانيـة فـي حقيقتهـا إلا صـراع هيمنـة لنمـاذج اقتصاديـة وسياسـية معينـة حيـث تطـور صـراع الهيمنـة ليصـل إلـى الصـراع الوجـودي، وبعـد انتهـاء الحـرب وفـوز الحلـف الغربـي المتمثـل فـي الـو.م.أ ومعظـم دول أوروبـا الغربيـة، كان لا بـد للـو.م.أ مـن بسـط نفوذهـا علـى بقيـة الـدول الغربيـة مـن خلال نموذجهـا الاقتصـادي الرأسـمالي والسياسـي الليبيرالـي، وقـد تمثـل هـذا فـي مشـروع مارشـال لإعـادة بنـاء اقتصـادات الـدول الأوروبيـة التـي دمرتهـا الحـرب. كان يهـدف إلـى تعزيـز الاسـتقرار الاقتصـادي والسياسـي فـي أوروبـا ومنـع انتشـار الشـيوعية

مـن نـواحٍ عديـدة، يجـادل كثير مـن الباحثين بأنـه يمكن اعتبار خطة مارشـال بمثابـة مقدمـة للعولمـة، التـي يعتبرونهـا بالدرجـة الأولـى عمليـة أمركـة للعالـم بـدأت بأوروبـا لتشـمل بقيـة دول العالـم، حيـث لـم يقتصـر النمـوذج الرأسـمالي علـى الجانـب الاقتصـادي فحسـب بـل تعـداه للجانـب الثقافـي والاجتماعـي الـذي بـدوره يؤثـر علـى الفـرد بشـكل مباشـر مـن خلال خلـق عوامـل نفسـية خاصـة ونسـق قيمـي معيـن يتماشـى مـع المتطلبـات الاسـتهلاكية للرأسـمالية الجديـدة

وقـد لاحظنـا أن المجتمـع الجزائـري لـم يسـلم مـن هـذه التغيـرات فـي الشـبكات الاجتماعيـة والأنسـاق القيميـة والثقافيـة والنفسـية الفرديـة والجماعيـة التـي صاحبـت عمليـة الانفتـاح الاقتصـادي وموجـة العولمـة التـي طالتـه، والتـي كمـا ذكرنـا كان لهـا أثـر فـي إعـادة هيكلـة تركيبـة الفـرد الجزائـري والتـي نزعم بأنهـا سـاهمت فـي تشـكيل الوسـائط التـي قامـت بخلـق الفـرد الهامشـي المعتـزل طواعيـة للشـأن الفكـري العـام

الإشكالية

ومنه نحاول في هذه الورقة الإجابة عن الأسئلة التالية:

كيف تساهم الرأسمالية في خلق الانسان الهامشي؟ وماهي الوسائط المستخدمة من طرف الرأسمالية في تلك العملية؟ وماهي مراحل هذه العملية؟

المنهجية

وهذا من خلال رسم الخطوط العريضة لأنثروبولوجيا الحداثة التي نهدف من خلالها للكشف عن النوايا الخفية للثقافة والقيم الرأسمالية في سياق النيوليبيرالية التي طالت المجتمع الجزائري من خلال عملية العولمة، كما سنعمل على تحليلها وتفكيكها بأساليبها الخاصة

بالإضافة إلى الكشف عن علاقة الرأسمالية بمبدأ اللذة والمتعة وعملية الإغواء كوسيلة للسيطرة على الأفراد وجعلهم مستهلكين متوافقين مع متطلبات السوق

وأساليب الرأسمالية في تعزيز نزعة الفردية والتحرر الأخلاقي، وتشكيل رغبات وأفعال الفرد خلال مراحل نشأته التي تنتهي بكونه هامشيا

المناقشة

حصان طروادة

بعد الحرب العالمية الثانية، برزت الولايات المتحدة كواحدة من القوتين العظيمتين في العالم، إلى جانب الاتحاد السوفيتي. خلال هذه الفترة، لعبت الولايات المتحدة دورًا محوريًا في إعادة بناء أوروبا واليابان من خلال خطة مارشال وبرامج المساعدة الاقتصادية الأخرى. كما أنشأت الولايات المتحدة وأثرت على المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة والبنك الدولي

وصندوق النقد الدولي، مما ساعد على وضع الأساس للنظام الاقتصادي العالمي بعد الحرب. [1]

وقد كانت خطة مارشال، المعروفة أيضًا باسم برنامج التعافي الأوروبي، مبادرة أمريكية أطلقت في عام 1948 للمساعدة في إعادة بناء اقتصادات أوروبا الغربية التي دمرتها الحرب العالمية الثانية، وهي كذلك الإعلان الرسمي لبداية عصر جديد عصر العولمة والرأسمالية الجديدة المتحدة، أوكما يطلق عليها «فريدمان» عملية أمركة العالم، حيث تهدف الخطة إلى تقديم مساعدات مالية وفنية للدول الأوروبية لتعزيز الانتعاش الاقتصادي والاستقرار السياسي ونشر القيم الديمقراطية في أوروبا ومن ثم العالم. على مدى أربع سنوات، قدمت الولايات المتحدة ما يقرب من 13 مليار دولار (ما يعادل أكثر من 130 مليار دولار اليوم) لمساعدة دول أوروبا الغربية، مما ساعد على تحفيز النموالاقتصادي، وتقوية المؤسسات الديمقراطية، ومواجهة انتشار الشيوعية، خاصة خلال فترة الحرب الباردة [2]، لم يكن كل هذا بدون مقابل، فقد كانت خطة مارشال بمثابة حصان طروادة وأول تسليم اقتصادي ثم ثقافي وجمالي وفلسفي لأوروبا ومن ثم العالم إلى الو.م.أ، فالخطة في حقيقتها عبارة عن خلق منظومة لإنتاج المستهلكين من أجل بيع فائض الإنتاج الأمريكي مع ضمان استمرارية تلك المنظومة، حيث جمعت الخطة بين الاقتصادي والثقافي

طقوس التنشئة الرأسمالية

تتسم الرأسمالية الجديدة بخمس سمات رئيسية: «تسليع الإنسان» حيث يكون المنتج والمستهلك واحدا حيث يلتف الجسد على نفسه، «تفقد القيم الإنسانية مكانتها»، «تلاشي المعنى»، « فقدان الوعي الطبقي» حيث يتم إعادة هيكلة المجتمعات وإعادة ترتيب طبقاتها، وأخيراً «تحريم البدائل» حيث يتم منع وتحريم وجود بدائل لهذا النظام.

وهكذا لم تعد الرأسمالية مجرد نظام تشغيل، إنما واضع لمعايير الوجود[3] وذلك بفرض قيم مجتمع السوق باعتبارها الكود الثقافي الوحيد.

وقد لاحظ العديد من الباحثين بأن الرأسمالية لها خاصية ذاتية تتسم بها تركيبتها ألا وهي تدمير الاقتصادات التقليدية، ومع اختفاء هذه الأخيرة، تنهار كل الهياكل الاجتماعية السابقة، هناك تناقض بين الرأسمالية والاقتصادات التقليدية، فإنها تُدخل اللامحدود في التكوينات الاجتماعية المنظمة حول الحد كمفهوم وإجراء واقعي، فهي تجلب علاقة مختلفة تمامًا للعالم.[4] حيث يتم تفكيك المؤسسات والهويات التقليدية واستبدالها بمنطق السوق، فيصبح وعلى حد تعبير باومن ما يميز العالم هوالسيولة وعدم اليقين

ولفهم الديناميكيات المعقدة للرأسمالية المعاصرة وتأثيرها على الرغبات الفردية والعواطف والممارسات الثقافية، يقدم لنا الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي «ميشيل كلوسكار» رؤى مهمة حول الطرق التي يتلاعب بها النظام الرأسمالي ويستغل بها الطبيعة البشرية، مما يساهم في نهاية المطاف بإدامة الهيمنة الرأسمالية وتفاقم عواقب ثقافة الاستهلاك

محور تحليله هوفكرة أن الرأسمالية نجحت في تحويل الرغبة إلى سلعة، وخلق شهية لا تشبع للاستهلاك، حيث تؤدي هذه العملية إلى حالة دائمة من عدم الرضا، حيث يبحث الفرد باستمرار عن سلع جديدة لتحقيق رغباته التي لن تتحقق، كما يوفر تحليله إطارًا واقعيا جيدا لفهم العوامل التي تساهم في تآكل المعايير الثقافية وظهور الرداءة في المجتمعات المعاصرة، من خلال دراسة طرق تسليع الرأسمالية للرغبة وتعزيز ثقافة المتعة والفردانية وكيف يتم تحويل العلم إلى أداة تخريبية تضمن استمرارية المنظومة. حيث تصبح الثقافة منتجًا يجب استهلاكه، بدلاً من مجموعة مشتركة من القيم والمعتقدات والممارسات التي تربط المجتمعات معًا، تميل عملية التسليع هذه إلى إعطاء الأولوية لما يطلبه الجمهور، على حساب الابتكار الفني والعمق والنقد الاجتماعي

يـؤدي التركيـز علـى الربحيـة إلـى انتشـار منتجـات ثقافيـة ذات تركيبـة سـطحية وسـهلة الهضـم، يمكـن ملاحظـة هـذه الظاهـرة فـي مجـالات مختلفـة مـن الثقافـة الشـعبية، بمـا فـي ذلـك السـينما والتلفزيـون والموسـيقى والأدب، حيـث غالبًـا مـا يتـم التضحيـة بالأصالـة والتعقيـد لصالـح التسـويق وقيمة الترفيه.[5]

وذلـك مـن أجـل خلـق مجتمـع اسـتهلاكي جديـد يحـل محـل المجتمـع التقليـدي، بحيـث يفقـد فيـه المسـتهلك فكـرة الإنتـاج وجديـة العمـل والمجتمـع الصناعـي مقابـل سـعيه الحثيـث للوصـول إلـى مـا يسـميه الفيلسـوف الكنـدي آلان دونوبنظـام التفاهـة

بحسـب أطروحـة كلوسـكار إذا أردنـا أن نفهـم إسـتراتيجية عمليـة الأمركـة/ العولمـة التـي قامـت بهـا الليبراليـة الجديدة علينا أن نقوم باسـتقصاء أنثروبولوجي لعمليـة التحديـث للرأسـمالية داخـل المجتمـع للكشـف عـن المظاهـر والرمـوز والطقـوس والاسـتخدامات السـارية فـي المجتمعـات الرأسـمالية الحديثـة، ثـم أركيولوجيـا الأدوات لرفـع الغطـاء عـن الطبقـات السـطحية التـي تغلـف الأدوات التـي تسـتعملها الرأسـمالية داخـل المجتمـع والكشـف عـن دورهـا الحقيقـي فـي العمليـة خاصـة تلـك الأشـياء الصغيـرة والتافهـة التـي لا أهميـة لهـا لدرجـة أنهـا تتجـاوز كل شـك ويتـم إغفالهـا غيـر أنهـا فـي حقيقتهـا هـي أدوات لطقـوس بدايـة الحضـارة الرأسـمالية

تقـوم الإسـتراتيجية علـى عمليـة التنشـئة الدنيويـة le mondain وعلـى عمليـة خلـق نظـام حيـاة شـامل، عـن طريـق ثلاث مراحـل رئيسـية.[6]

الممتع

تتـم فيـه عمليـة التنشـئة عـن طريـق الاسـتهلاك اللطيـف، وهـي موجهـة للإنسـان فـي مرحلـة طفولتـه الأولـى، بحيـث يتـم تنشـئته وتحضيـره للمنظومـة الاسـتهلاكية الكبـرى، صحيـح أنـه قـد يعـارض الطفل بطبيعتـه العفويـة المجتمع

الاستهلاكي، لكن في الواقع نجده يتخلى عن نفسه له، حيث أن الرأسمالية الجديدة أدركت سبل ادماجه بسلاسة

من المفترض أن يخضع التعليم واكتساب الخبرات لمبدأ الواقع لا لمبدأ المتعة، لكن في النظام الاستهلاكي الجديد نشهد القدرة المطلقة لمبدأ المتعة، من خلال مجموعة الألعاب المقدمة له يستفيد الطفل من التقدم دون بذل أي جهد، في جهل تام بالعمل الضروري لإنتاج البضاعة التي يستهلكها، وبالتالي بداية فصله عن الواقع من خلال خلق الفجوة بين المصنع والمستهلك، هذا هوالمنطق الذي سيسعى النظام إلى تجاوزه إلى ما بعد الطفولة، فالرأسمالية الاستهلاكية تريدنا أن نظل أطفالا عالقين في هذا الجهل، بيداغوجيا التدريس في هذا النظام تمجد هذه المجانية، فاستراتيجيتها تقتضي بفصلنا عن منطق الإنتاج لحساب منطق الاستهلاك

يمكننا إيجاد «الرمز الأنثروبولوجي» للنظام الحالي في الألعاب الالكترونية المعاصرة، فعن طريق رفع الطبقات السطحية التي تغلفها نكشف عن الحقائق التي تخفيها، حيث نجد أن الطفل يرتبط بها من خلال استخدامه المتواصل لها فهي تخلق الاستخدام والحاجة بدل توفير الحاجة، يبرمج بحسب المنطق الذي بنيت عليه، جهاز يستخدم دون معرفة طبيعة عمله، من لا شيء، بدون أي جهد، برغبة واحدة، بإيماءة واحدة، ينشأ الاستهلاك المثالي، فالأمر برمته لا يتطلب سوى الضغط على زر، منطق اللعبة مبني على عدم كسب أي شيء، باستثناء الرضا اللامحدود المتحقق من خلال إعادة عرض البداية من جديد أي أن المكافأة هي إعادة الاستهلاك اللامحدود ومحاولة اشباع الرغبة، فالمجانية وسهولة الاستهلاك هي الجوهر الأساسي للعبة، على عكس العمل الواقعي الذي يتطلب الجدية والعلم والجهد للقيام به، فبدل أن يصنع الطفل لعبته لحاجته إليها تقوم اللعبة بخلق الاستخدام الذي يخلق الحاجة ومن ثم الدخول في سلسلة الاستهلاك اللامحدود.

هذا بالإضافة إلى أهم وسيلة استهلاك تساهم في العزل عن الواقع، أي التلفزيون وبدائله المرئية، باعتبارها مكونا من مكونات حياتنا المعاصرة وهذا ما جعل محتوياتها تشكل أحد أهم المحركات الأساسية في عملية انتاج القيم، فالطفل أصبح يتعرض لتنشأة واسعة النطاق بعد أن كانت محدودة، وهذا ما جعله يفقد الكثير الضروري لتكوين الرؤية السليمة لكل ما يحيط به من مواقف وقيم ومعايير، فالتلفزيون وبدائله أصبح يشكل بيئة الطفل الفعلية، وذهنيته وشخصيته وإرادته، من خلال ما تقدمه من نماذج قدوة، فلم يعد يستمد قدوته من الواقع المحيط به بل من خلال البطل الرياضي، الممثل المشهور، وبالخصوص البطل الخيالي، وعملية العرض تلك تسعى إلى تحقيق علاقة مع الطفل تبنى بطريقة يدركها الطفل على أنها حية، ولهذ أغلب المضامين تقدم القيم كمحفزات تضع الطفل في حالة قراءة، اكتشاف، إجابة عن أسئلة تظهره بأنه ذكي، وذلك من خلال تنشيط خيال وفضول الطفل، فهي تشعره بكثير من المتعة والمرح المفرطين، وبذلك يسهل على الطفل تقبلها بشكل سريع ويصعب مجاراتها بغير طرقها، فهي تعتمد في تنشئتها للصغار على الإثارة، المتعة، سهولة الوصول للهدف، التسلية، تقديم مواقف مركبة ممزوجة بالخيال كنماذج للحياة. فعلى سبيل المثال تقدم قيمة الفردانية وهي مدمرة للفرد والمجتمع من خلال التركيز على فرد واحد وتمييزه عن أقرانه وعن الجميع ككل، كاظهار خلفية من الجمهور المنبهر بإنجاز الفرد ذي القوة الخارقة (التي ليس لها وجود واقعي)، أواظهار الأسرة في وضع مختلف عن وضعها الواقعي، التي تساهم في تقبل فكرة الإنسان الوحيد الذي يستطيع العيش بمفرده مستقلا عن غيره غير مهتم بشؤونهم.[7]

وقد تم إجراء دراسة ميدانية على عينة واسعة من المجتمع الجزائري سنة 2008 تشمل الأطفال والنساء الأمهات باعتبارهن الحلقة الأكبر فيما يفترض في نقل القيم للطفل، حيث سجلت الدراسة أن معدل مشاهدة التلفزيون بالنسبة للنساء 06 ساعات يوميا و05 سا ونصف بالنسبة للأطفال فباقتطاع ساعات الدراسة والنوم والحاجات الضرورية التي يقوم

بها الطفل نجد الرقم مهولا، فقد سجلت دراسة موازية للمجتمع الفرنسي 02 سا ونصف كمشاهدة يومية للأطفال ما دفع بالمراقبين لدق ناقوس الخطر، كما قيمت 90 بالمئة من الأمهات درجة رغبتهن في الاستهلاك بالكبيرة، و71.66 بالمئة من الأطفال سجلوا رغبة كبيرة في الحصول على المنتجات المعروضة في الاشهارات، بالإضافة إلى المساهمة الكبيرة ل 35 بالمئة من الأطفال في قرارات الاستهلاك

من خلال هذه المرحلة يتم عزل الطفل تدريجيا عن الواقع الحقيقي ويتم برمجته للدخول في المرحلة الثانية

الشهواني

هومرحلة ما بعد الطفولة، مرحلة المراهقة والشباب، من خلال الاستثمار في الرغبات الطبيعية للإنسان وتحويلها إلى رغبات متوحشة تستهلك بدون أن تشبع، رغبة الجنس والشهرة والمال والترف، من خلال هوليود والعروض السينمائية والأنماط الموسيقية والغنائية الجديدة الموجهة للطبقة العامة بالخصوص، فالعروض السينمائية التي في مجملها تتسم بالسطحية والتفاهة والسهولة وعدم التعقيد لكنها تعرض في قالب المتعة والمرح ويعمل على تحفيز الخيال والعواطف التي يتم استهلاكها والتي تعمل على فصله عن الواقع الحقيقي الجدية المطلوبة للحياة، بالإضافة إلى أنماط الموسيقى ذات الطابع غير الاعتيادي والخارج عن المألوف وسريع الاستهلاك من حيث المدة والبعيد عن تعقيد الآلات المستخدمة والكلمات، والمضاد للطابع التقليدي، فهوطابع ثوري في نظر مستهلكيه إلا أنه في الحقيقة ما هوإلا جزء من المنظومة يتم من خلاله تلبية رغبات المراهقة الميالة للخروج عن المألوف، بالإضافة إلى اقترانها المباشر وغير المباشر مع استهلاك المخدرات، وتتحول فيه العواطف الطبيعية إلى مادة استهلاكية، وقد أبرزت الدراسات المتعلقة بالمجتمع الجزائري التحولات التي تشهدها فئة الشباب خاصة بعد فترة التسعينات التي كانت بمثابة الإعلان الرسمي

عن الانفتاح الاقتصادي والثقافي للمجتمع الجزائري، إذ تبين تلك الدراسات انسحاب الشباب من النشاطات العامة لصالح ممارسات أخرى، كاستعارة الأشرطة السمعية البصرية، والأقراص المغنطة واستعمال الانترنت، كما تشير إلى أن هذه البرامج تضع المجتمع أمام تحديات، أقلها أن معظم البرامج التي تقترحها الفضاءات الوطنية كالبرامج التلفزيونية لا تستجيب لمقتضيات النسق القيمي الذي يحتكم إليه المجتمع.[8]

تلك الأنماط تخلق النموذج الذي يجب أن يحتذى به، النموذج التافه، من خلال إعادة ترتيب الطبقات الاجتماعية وصناعة نموذج جديد للبرجوازية، برجوازية تتربع في أعلى هرم الطبقات الاجتماعية، الممثل والمغني واللاعب أصبحوا برجوازيين، أولئك الذين خرجوا من أوساط الطبقة العامة، حيث يتم تصوير هذا النموذج على أنه النموذج الناجح وعلى جميع المراهقين الاقتداء به، فهونموذج ممكن ومتاح للجميع، فكل شخص يمكنه أن يحقق ما حققه ذاك اللاعب أوالممثل أوالمغني، فالأمر سهل لا يحتاج إلى كبير عناء، يعتمد على الموهبة والحظ، في حين أن الحقيقة عكس ذلك، فالنموذج هوكذلك للاستهلاك، يمكن تسميته بالممكن المستحيل

خلال هذه المرحلة يتم البحث عن إشباع الرغبات والشهوات عن طريق المتعة، إلا أنه لا يصل إلى مرحلة الإشباع أبدا، وبالتالي يدخل في دوامة استهلاك المتعة بدون غاية الإنتاج

الهامشي

وفي آخر المطاف يكون الإنسان ضمن المنظومة الرأسمالية الجديدة هامشيا يعيش على هامش الواقع الحقيقي، فردانيا غير مهتم بالشأن العام، مجرد طفل يجهل ما يحيط به، مجرد مستهلك لتفاهة العصر، منساقا خلف نموذج الأمركة الليبرالية التحررية الجديدة

المراجع

1. Hogan، M. J. (1987). The Marshall Plan: America، Britain، and the Reconstruction of Western Europe1947-1952 ،. Cambridge University Press
2. DeLong، J. B.، & Eichengreen، B. (1991). The Marshall Plan: History's most successful structural adjustment program
3. Sève، L. (2012). Aliénation et émancipation. Précédé de" Urgence de communisme"، Suivi de" Karl Marx: 82 textes du" Capital" sur l'aliénation". Dispute (La)
4. Aramini، Aurélien، and Florian Gulli. «DU CONCEPT DE «DÉCIVILISATION».» Philosophique 19 (2016) Bauman، Z. (2000). Liquid Modernity. Polity Press.
5. Horkheimer، M.، Adorno، T. W.، & Noeri، G. (2002). Dialectic of enlightenment. Stanford University Press
6. (الهامشي، marginale الشهواني. libidinal المسلي/ الممتع)ludique Clouscard، M. (1982). Le capitalisme de la séduction: Critique de la social-démocratie libertaire. Ed. sociales

7. سطوطاح سميرة، دور وسائل الإعلام في تشكيل القيم التربوية داخل الأسرة الجزائرية، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية،2009، ع6،ر1، ص 338-299
8. هارون فتيحة، العولمة وتجلياتها الثقافية والاجتماعية المجتمع الجزائري نموذجا، 2019، مجلة الأسرة والمجتمع، مجلد7، ع2، ص18-42

الاهتمام بالشأن الفكري والصناعة الإعلامية

مقاربة حول الإعلام الرقمي وهندسة الجمهور

أنس شمس الدين حميود

مقدمة

" العامة أغبياء جدًا لفهم الأشياء. فإن حاولوا إدارة شؤونهم الخاصة فسيسببون المتاعب. لذلك من غير الأخلاقي ولا المناسب السماح لهم بفعل ذلك. إذ يجب علينا ترويض القطيع التائه، وعدم السماح لهم بالغضب وسحق الأشياء وتدميرها."

-نعوم تشومسكي-

بات السؤال عن المنظومات الإعلامية وأفكارها وهوامش تأثيرها إضافة إلى البناء الاجتماعي والثقافي الذي تشيّده ثم تخلّفه أحد الأسئلة المتعارف على طرحها والتفكر فيها في الزمن المعاصر

هذا السؤال شغل حيزا كبيرا من تفكير الباحثين عن فك شفرة الأثر والتأثير بين المرسل والمستقبل، وملأ فضاء الدراسات المواكبة لتطور السوق الإعلامي وارتباطاته المتشعبة

ولأن مناهج البحث العلمي في العلوم الإجتماعية تدرجت وتبلورت تبعا لتحديات النماذج الفكرية السائدة بدءً من النموذج الوضعي الذي نشأت في كنفه العلوم الاجتماعية والإعلامية في القرن التاسع عشر ووصولا إلى الأحوال التي انتهت إليها في زمن ما بعد الحداثة وما بعد الحقيقة اللذان يمثلان مستويات معقدة من طغيان الرقمنة وتشضي التواصل

يأتي موضوع هذه المداخلة البحثية حول الاهتمام بالشأن الفكري والصناعة الإعلامية لرصد علاقة الإعلام المعاصر بهندسة الجمهور وذلك من خلال زاوية التحليل المعرفي للأنساق الكامنة خلف الممارسات الإعلامية المعاصرة بدءً بتشكل الأجهزة الإعلامية في دول ما بعد الاستعمار وما أتبع ذلك من تأسيس معرفي وفلسفي لهذه المنظومة، جر

عليها التزاما متماهيا مع أسس السوق ومتطلبات الرأسماليات المتتالية، الأمر الذي مهّد لانفصال ممنهج عن القيمة والأخلاقيات الحاكمة

وفي نفس الوقت أرسى دعائم نظام يخفي بنيته القهرية وراء الحريات المشاعة لآحاد الناس، إذ يخفى على هؤلاء تحولهم إلى ذات مستعبدة في طريق السعي لتحقيق ذواتهم، خاصة مع استبدال "يجب" ب" تستطيع" في خضوع لحتميّة أنّنا قادرون على فعل شيء ما

إذا اعتبرنا تأثيرات وسائل الاتصال الجماهيري تنحصر في خلق اتجاهات جديدة أودعم اتجاهات سائدة وموجودة أصلا، أوتغيير اتجاهات موجودة فإن من نافلة القول التأكيد على أن البيئة الإعلامية الجديدة التي تتشكّل من خلالها المعاني والبنى المعرفية تختلف اختلافًا جذريًّا مع البيئة التقليدية من حيث الجمهور والمضمون والشكل... فقد رأينا كيف لعب الاتصال دورا محوريا في مَصائِر المجتمعات والسيطرة على الشعوب، بتحكمه التوجيهي في المجتمع فكلَ حشد هنا كما يرى السوسيولوجي الإيطالي سيبيوسيغل يتكون من «موجِهون وموجَهون» و«منوِّمون ومنوَّمون» و«محرِّكون ومحرَّكون».

هذا التوجيه والتنظيم هوما يطلق عليه المختصون براديغم الرقابة الذي يؤكد على أهمية البنية والنظام التراتيبي الذي يبسط يد النخب القائدة على الجهاز الثقافي لوسائل الإعلام، مما يؤدي إلى التشكل الأحادي للأيديولوجيا المهيمنة

وشاهد القول هنا أن هذا التوجيه والهيمنة للإعلام المعاصر لم يكتف بإماتة الحقيقة واختزال المعرفة فحسب بل تعدى ذلك إلى قلب العمق الأخلاقي للإنسان فتركه عاجزا عن التمييز بين محمود الرسائل والمحتوى ومذمومها، كما حمل لواء امتصاص المعنى وإفراغ الرسالة من مضامينها الحضارية ودلالة ذلك «أن كل مضامين المعنى يتم امتصاصها في الشكل الوحيد المهيمن للميديا، فالميديا وحدها هي التي تصير حدثًا، وذلك

مهما كانت محتوياتها، مطابقة أومخرّبة.. فبعد أن تكون المضامين كلّها قد ألغيت، ربما تبقى الميديا بحد ذاتها بمثابة قيمة استعمارية ثورية وتدميرية» -جون بودريار-

خلال السنوات الأخيرة شهدت الوسائط الإعلامية ظواهر ما يعرف بالمؤثرين وصناع المحتوى الذين يقدمون الكثير مما يعد أجنبيا عن حاجتنا وبعيدا عن المعنى والاحترافية فانتقل الواقع الإعلامي والمادة المصنّعة من افتراض صناعة الثقافة إلى تكريس التفاهة ما جعل التساؤل مشروعا حول الفواعل المؤثرة في هذا التحول والنماذج التفسيرية المساعدة على رصد هذه الظاهرة وتحليلها بشكل معقول إلى حد ما

في التعاطي مع فكرة التفاهة لا ينبغي القفز على حقيقة كون صحافة الإثارة والصحافة الصفراء، هي نوع من الصحافة ضارب في القدم نشأ حتى قبل بداية الصحافة المعاصرة، واعتمد على التداول الشفهي للأخبار وتناقل أخبار الفضائح وكل ما يدخل حيز الأخبار السلبية

كما أنه حظي بمعدل وصول وانتشار أعلى من الصحافة الهادفة أوالإيجابية، واستمر هذا وبلغ ذروته في عصر الإنترنت

الأنساق المعرفية الكامنة خلف الممارسات الإعلامية المعاصرة

مع هذا الحضور القوي والمؤثر للإمبريالية والكولونيالية في الماضي والحاضر الخاص بدول ما بعد الاستعمار فإن الفهم النقدي للتجربة والإرث الكولونيالي بأقسامه المختلفة شرط أساسي من أجل التحرر والتخلص من الآثار السلبية لهذا الإرث على مجالات الحياة المعاصرة وما يؤثر فيها

الأجهزة الإعلامية في دول ما بعد الاستعمار

الاستعمار ظاهرة متعددة الأبعاد والدلالات مما يصم كل محاولات تعريفه بالاختزال وذلك راجع لاختلاف التكوينات الاستعمارية وسياساتها

لكن قد يتفق الباحث والناظر على دلالات رئيسية تحضر في الاستعمار الحديث أهمها : «الهيمنة، والفرض الثقافي، والاستغلال.» -ملاك الجهني-

دول ما بعد الاستعمار دول مصطنعة من دون استثناء. لقد رسمت الدول الاستعمارية الحدود من دون استشارة للشعوب، واستخدمت البحث لإسقاط ادعاءاتها على المجتمعات المستعمَرة بما يشكل تصور هذه الشعوب عن أنفسها وفق ما ينسجم مع مفهوم الغرب عنهم.

وبالتالي أثرت تأثيرا حاسما على صانع القرار السياسي والثقافي والإعلامي.. هذا الأخير يتولى السعي لنقل هذه المجتمعات من التقليدي إلى التحديثي.. ما يعني في الحقيقة تقديم المجتمعات الغربية الصناعية المتقدمة لنظرياتها المعرفية وشبكاتها المالية وأنماطها الاستهلاكية إلينا كنموذج وحيد يجب الاحتذاء به، مع إشاعة التفكير الذي يرى أن هذه الواردات وسائل طبيعية يمكن استخدامها في كل المجتمعات وفي ظل كل النظم، هذه الفكرة يعبر عنها من باب التمثيل على المستوى الإعلامي في فكرة التدفق الحر للمعلومة ما يعني حق كل امرئ في المشاركة في هذا التدفق، غير أن واقع الحال يثبت أن التدفق يمارس في اتجاه رأسي أحادي الجانب من الشمال إلى الجنوب، من الوصي إلى القاصر.

البنى الاستعمارية في الدول العربية وأدواتها التي يتقدمها الإعلام أعادت إنتاج المواطن الجديد على شرط الواقع المتخيل الذي تريده، وحيلة السلطة السياسية كانت في إعادة إنتاج مواطنيها وتذويتهم (إعادة إنتاج ذواتهم بتعبير وائل حلاق)، وقمع ومعاقبة من يرفض هذا التذويت وإعادة الإنتاج بسيف القانون، ذلك أن المناهج الحديثة في ممارسة السلطة قائمة على المَعْيَرَة وإنتاج الذوات الخاضعة (تشكل الذات المطيعة بتعبير فوكو)..

عمليات التحويل التي مست المواطن عبر وسائل القمع والإنتاج حولت هذا الأخير لا إلى مواطن مطيع فقط بل إلى مدافع شرس عن المنتج الجديد.

المؤكد في كل ما سبق ذكره أن ما حدث كان في غيابنا ولم نستشر يوم احتل الغربي موقع السيادة وطلب منا استيفاء شروط العضوية في نادي الدولة الحديثة بمعاييره حصرا

أسس المنظومة الإعلامية معرفيا وفلسفيا.. هل الحداثة في قفص الاتهام؟

لا شك أن الرؤية المعرفية التي ينطلق منها النظام الإعلامي هي رؤية حداثية بامتياز، يبصر الناظر أثر هذه الرؤية من خلال المنتجات الإعلامية من برامج ومسلسلات وأفلام وقبل ذلك تتجلى في الخط التحريري المتبع

هذه الحداثة التي عبرت عنها مراحل الفكر الغربي التي مرّ بها من «الإصلاح إلى الإحياء إلى النهضة إلى الأنوار، كانت لتأسيس العقل المستقل عن الدين وتجذير الانفصال عنه، فلما اكتمل ذلك التأسيس عاد الفكر الغربي في مرحلة الحداثة إلى التراث الماضي لتجذير القطيعة معه وليس مجرد الانفصال عنه، ولإعادة صياغة قراءته ضمن مناهجها وأدواتها للسيطرة عليه وإدخاله في سياقها؛ ليتم إنزاله عن منزلة الندّية بعد أن تم إنزاله عن منزلة الهيمنة التي كان عليها قبل أزمنة (النهضة)» موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام، د. محمد حجر القرني

لقد ارتكزت فلسفة المنظومة الإعلامية في الزمن المعاصر في تكوينها وبنائها إلى مرتكزات وأُسس «حداثية علمانية منبتة عن الوحي، وهذه الأسس هي المحرّك الفعلي لأرباب الصناعة الإعلامية، والمنطلقات التي تسير وفقها كل المخرجات الإعلامية المتنوعة». الصورة المائلة، عبد الرحمن العصيمي

إن هـذه الأسـس التـي بُنيـت عليهـا هـذه الفلسـفة هـي النمـوذج التفسـيري لكسـر المقدسـات الدينيـة، والملاحـظ أن أيّ منظومـة تتبنـى هـذه الفلسـفة سـتؤول بطبيعتهـا لنتائجهـا، وهومـا رأينـاه فـي الرؤيـة الإعلاميـة وعلاقتهـا بنـزع القداسـة وتسـلّط المدنـس حتـى فـي الأشـهر المقدسـة

المفهـوم الليبرالـي لنسـق الآلـة الإعلاميـة حضـر منـذ فتـرة مبكّـرة حيـث «تقـوم طبيعـة الملكيـة فـي النظـام الليبرالـي لوسـائل الإعلام علـى أسـاس مـن الملكيـة الفرديـة، وهـي تفتـرض أن تكـون ملكيـة وسـائل الإعلام متاحـة للجميع، علـى أسـاس أن حريـة الـرأي حـق طبيعـي، وبمـا أن وسـائل الإعلام منبـر مـن منابـر التعبيـر وحريـة الـرأي، فإنـه ليـس هنـاك مـا يمنـع مـن أن يسـتخدم النـاس هـذه المنابـر لتحقيـق هـذا الحـق، فضـلا عـن أن الملكيـة الخاصـة لوسـائل الإعلام باعتبارهـا مشـاريع اقتصاديـة أمـر تعـده النظريـة مـن أهـم الحقـوق الطبيعيـة للأفـراد» ملكيـة وسـائل الإعلام وعلاقتهـا بالوظائـف الإعلاميـة فـي ضـوء الإسلام، د. محمـد الخرعـان

هـذه الرؤيـة الليبراليـة التـي تجعـل مجـال السـوق الإعلامـي حـرًّا؛ يجعلنـا نفهـم طبيعـة عمـل هـذه الآلـة الإعلاميـة ونفهـم بوضـوح طبيعـة المخرجـات، فـإن هـذه الحريـة المنفلتـة مـن كل قيـد؛ سـيكون لهـا أثر علـى المخـرج الإعلامي ولا شـك، بـل وحتـى طبيعـة الملكيـة الفرديـة فـي هـذه الفلسـفة الليبراليـة والتـي تتيـح حريـة التملـك التـام بلا قيـد

السوق الإعلامي.. والرأسمالية الهجينة

فـي عالـم يتقلـل ويتخفـف مـن أي مرجعيـة متجـاوزة ويدفـع باتجـاه النسـبية نتسـاءل عـن المـدى الـذي مـن الممكـن أن نصـل إليـه مـن جهـة ضيـاع الخصوصيـة وتغييـب المرجعيـة والتماهـي مـع النمـط الاسـتهلاكي العالمـي الـذي يعتمـد علـى تشـييء وتسـليع الإنسـان فلا معياريـة ولا محـددات ولا قيـم كونيـة ومـا يتبقـى هوقواعـد السـوق وأخلاق السـوق وإعلام السـوق

«قطاعا الإعلام واللذّة في المجتمع، هما قطاعان ضخمان رهيبان يصلان إلى الرجال والنساء والأطفال في كل زمان ومكان... وتتدخل في أخصّ خصوصيات حياة الإنسان، وضمن ذلك حياته الجنسية وعلاقة الآباء بأطفالهم وتصوغ صورة الإنسان لنفسه» العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري

لقد نبّه المسيري في حواراته مع سوزان حرفي إلى عمل الأجهزة الإعلامية بفضائياتها على تعميق الاستهلاك في عقول وقلوب المتلقين لها، لارتباط الاستهلاك في العصر الحديث بالآلة الإعلامية، فالهدف الأكبر أن يُحوّل كل البشر إلى مادة استعمالية إنتاجية استهلاكية، هذا يتم عن طريق الإعلانات، عن طريق الفيديو، عن طريق إنشاء مدن الاستهلاك واللذّة، وهي رؤية في ظاهرها مركّبة، حيث يمكن للإنسان المستهلك أن يقيم الصلاة في مواقيتها ويحافظ على الشعائر الدينية بالمعنى الأداتي الوظيفي، غير أن أحلامه وغاياته وسلوكه تستوعب تماماً ضمن النظام الاستهلاكي العالمي

ولا نبالغ إذا قلنا أن الصراع الحقيقي في ظلّ هذه المنظومة كما يقول المسيري ليس صراعاً بين حضارات، وإنما صراع حضاري بين من يرون أن الاستهلاك هوالهدف من الوجود وأن من حق القوي أن يستهلك على حساب الآخرين من جهة، ومن جهة أخرى هؤلاء الذين يرون أن الجنس البشري بأسره يجب أن يتكاتف ويتعاون حتى يمكننا أن نعيش في هذه الكرة الأرضية بمصادرها المحدودة

هذه المنظومة أرست دعائمها وحوّلت الإنسان المعاصر إلى إنسان لا يعرف لنفسه معنىً إلا من خلال الاستهلاك للأشياء، وإن كانت هي سبب شقائه وسبب خضوعه

الإعلام الرقمي والقيم.. انفصال ممنهج

كما سبقت الإشارة، عرف ميدان الإعلام خلال السنوات الأخيرة تحديات كبيرة، وذلك ضمن سياقات اتّسمت بتغلغل الرقميات الى كل مفاصل الصناعات الإعلامية، تحديات على مستوى العلاقة مع السلط الأخرى ومنها السياسية وأيضا على مستوى كون النظم والأخلاقيات الإعلامية حاكمة أم مجرد أبنية لفظية في كتيبات المواثيق.

لو أعملنا النظر جيدا لرأينا استخدام الأخبار كدعاية قد أضحى ممارسة شائعة جدا في عمل المؤسسات الإعلامية العربية (بل تكاد تكون الممارسة المهيمنة)، هذا الأمر يعيد طرح عديد الإشكاليات على الصعيد النظري والمفاهيمي في مجال الفصل بين مفهوم الإعلام الذي ينتمي إلى حقل الوقائع والقيم، ومفهوم الدعاية التي تنتمي إلى حقل العلاقات والمشاعر.

هذا الأمر يجدد التساؤل حول إمكانية الفصل بين المضمون الإعلامي والمضمون الدعائي في ما تقدمه وسائل الإعلام وما تنشره من مضامين وأخبار؟ وإلى أي مدى يمكن إخضاع هذه الممارسة وتقييمها نظريا ومنهجيا بالرجوع إلى معايير وأخلاقيات الإعلام؟

قد يرى البعض هذه التساؤلات إلى جانب سؤال الأخلاق مصادرة وتوجيها رغبويا، لكن الأخير حقيقة يكاد يكون محور قيام الإعلام وميزان اعتباره، والمرحلة الحالية تجاوزت المسؤولية الاجتماعية نحو الإعلام الأخلاقي (Ethical media) وليس أخلاقيات الإعلام (Media ethics) حتى، فالعبرة لم تعد بالقاعدة المعلنة نظريا ولا بالموقف والموقفين، إنما تواطؤ المواقف الصادرة عن موجه واحد وهوما يجلي القاعدة المتبناة فعليا من قبل هذه المؤسسات الإعلامية

وما محاولة البعض تحليل إشكاليات الإعلام المعاصر بمعزل عن ثلاثية المركزية الغربية وسلطة المال والسياسة والمرجعية المجتمعية سوى تبديد للجهود وبعد عن المنشود

والصراحة أنه كلما غابت المرجعية القيمية في العمل الإعلامي كان أبعد عن الأخلاقية والرسالية هذه المرجعية القيمية تجعل في الحقيقة من الوازع الداخلي أعمق وأغور من ما سواه من المؤثرات فيكون المقصد الشرعي متضمنا في الوظيفة والوسيلة ما يشعر الإعلامي بالمسؤولية التي تجعله أمينا على الحقيقة من أجل الناس

إن الإعلام المعاصر المنفصل عن القيم انعكس سلبيا على الأخلاقيات وضاعف من اغترابها لمخالفته للفطرة الهادية شمولا وثباتا، ثم في اختزال الإنسان في بعد واحد

الاهتمام الفكري.. حاجة أم ترف؟

الفكر والحاجة إليه يشابه باقي الحاجات، هذه الحاجة محدودة بالشبع، ومحدودة بأفق الالتجاء إليها.. وفي جويضيّق مسارات الاشتغال وبيئة تنزع حرية الاختيار فالإنسان حتما يتماهى مع حالته ويرى في عدم الاهتمام الفكري نتيجة لغياب تأثيره في وجوده.. فلا شيء يستحق الإنتباه سوى ما كان مهددا.

لقد كان دافع الإنسان نحوتعقل المعارف ومساءلة الظواهر دوما ما يخدم مصلحة دنياه ويلبي رغبات الاستقرار النفسي والاقتصادي والمدني.. وإلا فيا ويحه من تمثل قول الجاحظ : «إنّ المعاني ملقاة على قوارع الطرق، وإنما يتميز الناس بالألفاظ»

من صناعة الثقافة إلى تكريس التفاهة

إن وجود تأثير متبادل بين الثقافة في بعديها المعنوي والواقعي المعيش من جهة، وبين وسائل الاتصال كعالم رمزي من جهة أخرى، للعلاقة الوثيقة بين الإعلام -بوسائله المختلفة- والثقافة كما يقول عبد الرحمن عزي يجعل من تأثير وسائل الإعلام والاتصال على ثقافة المجتمع أمرا حتميا سواء كان تأثيرا إيجابيا أوسلبيا:" إن التأثير يكون إيجابيا إذا كانت

محتويات وسائل الإعلام وثيقة الصلة بالقيمة، وكلما كانت الوثائق أشدّ كان التأثير إيجابياً. وبالمقابل، يكون التأثير سلبياً إذا كانت محتويات وسائل الإعلام لا تتقيد بأية قيمة أوتتناقض مع القيمة، وكلما كان الابتعاد عن القيمة أكبر كان التأثير السلبي أكبر. (عزي ع.، 2009، صفحة 112)

وعليه فإن الآفة الأخلاقية التي حلت بوسائل الإعلام والاتصال حقيقة بتأمل ودراسة توضح صفاتها ومظاهرها وأسبابها ومفاسدها والمؤثرين فيها، لأجل هذا كان التوجه نحودراسة أثر المحتوى الرقمي بأشكاله المختلفة ومعرفة أسباب تكريس التفاهة وعزوف الشباب عن الشأن الفكري، هل هي من خلال المؤثرات الخارجية المتسارعة أم في الخلفية الإبستيمولوجية للنظريات الإعلامية

نحوإعادة النظر في نظريات التأثير

موضوع التأثير ليس مجرد مفهوم يبسط ويعرض باختزال وإنما هوإشكالية علمية قائمة بحد ذاتها والبحث في تأثير الظواهر الإنسانية والاجتماعية عموما معقد على خلاف تأثير الظواهر الطبيعية، نظرا لصعوبة قياس الأثر وضبط حدود التأثير وطبائعه وأشكاله في الإنسان تحديدا باعتباره كائنا متلقيا يتميز بالإرادة على خلاف غيره

وقد نشأ البحث في موضوع التأثير في سياق عام هوالبحث في أنماط الإعلام الجماهيري منذ عشرينات القرن الماضي من أجل الوصول إلى شرائح واسعة من الجمهور عبر الصحافة المطبوعة والإذاعة والسينما، الأمر الذي جعل الاهتمام بوسائل الإعلام يتزايد مع الوقت

في هذا السياق لم يقف الاهتمام بالإعلام الجماهيري على حجم الجمهور وحسب بل تعداه الى كيفية التلقي وآثاره ومن ثمة إلى أساليب التأثير في الجمهور المتلقي بأشكال مباشرة وغير مباشرة وقد نشأت عدة نظريات

في هذا السياق لدراسة تأثير الإعلام منها : نظرية حارس البوابة، نظرية تحديد الأجندة، نظرية الاستخدامات والاشباعات، نظرية دوامة الصمت.

هذه النظريات كلها تحاول أن تفهم هذه العلاقة بين الباث والمتلقي وتصل إلى حدود التأثير ونوعيته وطبائعه

وبشكل عام تعتمد دراسات التأثير على النموذج التقليدي لوسائل الإعلام الجماهيرية حيث كانت تختزل العملية التواصلية في علاقة ثنائية بين الطرفين هما الباث والمتلقي وتستبطن هذه العلاقة نمطا محددا من التأثير يسير في اتجاه واحد من الطرف الأول إلى الطرف الثاني عبر محتوى الرسالة الإعلامية

فيكون التأثير هوحاصل العملية ويمكن رصده من خلال التغيير الملحوظ على مستوى ادراكات المتلقي أوالمستهلك للمعلومة وللمعرفة وعلى مستوى انفعالاته وسلوكه ومواقفه وقيمه..هاهنا يقع رصد مستوى التأثير لذلك كان التركيز في دراسات التأثير ينصب أساسا على عملية التلقي وتحديدا على الجهة المتلقية (الجمهور أوالرأي العام) وما يطرأ عليها من تغيرات

ومع التطورات التي حدثت في مجال تكنولوجيا الاتصال وخاصة شبكات التواصل الاجتماعي وما خلفته من تغيير جوهري في بنية التواصل ووظائفها بدأ الاهتمام يتزحزح عن عملية التلقي فأصبح يشمل المحتوى الإعلامي أيضا، لم يعد المتلقي ذلك الوعاء السلبي الذي تصب فيه الرسالة الإعلامية وفق أجندات سياسية أوثقافية أوتسويقية محددة بشكل مسبق، بل أصبح شريكا في صناعة المحتوى يفرض شروطه على المؤسسة الإعلامية ويتدخل في توجيه أجندتها مباشرة أوبشكل غير مباشر، فأخذ التأثير شكلا جديدا بالتدريج، الديناميكية التي تميز هذه العلاقة انعكست بالتدريج في تغيير طبيعة التواصل أوطبيعة الاتصال بين المتلقي ووسيلة الإعلام فإذا كان الباث في النمط التقليدي للإعلام يتعامل مع المتلقي باعتباره مجالا مسطحا للتأثير وموضوعا للحيازة، فإن المتلقي الجديد بات

فاعلا وأحيانا يتصرف مع الإعلام باعتباره مالكا وموجها له وفي أدنى الحالات هوشريك في عملية التأثير

هذا التطور في العلاقة التواصلية بين الباث والمتلقي لم ييسر عملية البحث لذلك يظل البحث في التأثير على سبيل المقاربة التأويلية أكثر منه قياسا علميا دقيقا كما يدعي البعض إلا في نطاقات محددة يمكن أن يكون فيها للإحصاء وتحليل البيانات نتائج موثوقة

الهندسة الجماهرية : كيف يشكّل الإعلام العقول؟

القارئ لنتاج الدكتور عبد الوهاب المسيري لا تخفى عليه تحليلات تفكيك الإنسان وإعادة صياغته في المنظومة الحداثية، الأمر الذي يغري لتعميم بعض هذه النماذج التفسيرية على الكثير من الظواهر الأخرى التي جدّت على المجتمع، مثل تعميم فكرة التفكيكية الواضحة في وسائل الإعلام، على مختلف ظواهر الإنسان، إذ أن الأخيرة تقوم بوعي منها أوبدونه بتفكيك الإنسان، دافعة إياه لينتقل من سياق «الواحدية» والإيمان بالله، إلى السيولة والنسبية المتذبذبة، لتصل به ختامًا إلى ضياع المركزية

لقد جرت العادة على مراجعة مصفوفة العمل عند صاحب الرسالة غير أن واقع الحال يشير إلى أننا في عصر إغراق المحتوى وما يهم الناس يتغير بسرعة فما ضابط العلاقة بينهما وهل من سلطان للثاني على الأول؟

يستجيب الجمهور للواقع وفقًا لأفكاره وقناعاته ورصيده الروحي. ومن كانت هذه حاله اضطر الإعلام للتفكير في كيفية تشكيل عقله وهندسة أفكاره. إما توظيفا عن طريق تحليل فهم الجمهور، وصياغة الرسالة الإعلامية بعد ذلك بحيث تتناسب معه، لتكون أكثر تأثيرًا ولتحقق مستوى مرتفعا من الاستجابة، أوتغييرا في طريقة فهم الجمهور، من خلال ترسيخ

بعض ما تراه وتحويله إلى حقائق، بإغراق الجمهور بمعلومات تجبره على تغيير تصوّره عن الواقع، ليستبدله بصورة أخرى مصطنعة. وقد يكون تعامل هذا الإعلام عبر "التنميط وتشكيل طريقة الإدراك" ، لأفراد الجمهور بما تتضمنه من ثقافات وقناعات وقِيَم وعادات بغرض الوصول إلى مجتمع متشابه التصورات

صناعة الثقافة والصالح العام.. آخر الاهتمامات

يشير مصطلح صناعة الثقافة بصفة عامة وفقًا لتعريف مدرسة فرانكفورت (ابتدعه المنظر النقدي ثيودور أدورنوو وماكس هوركهايمر) إلى «عملية تصنيع ثقافة الإنتاج الواسع والقواعد التجارية التي تحرك النظام، حيث يصبح للصناعات الثقافية مهمة محددة، وهي منح الشرعية الأيديولوجية للمجتمعات الرأسمالية القائمة ودمج الأفراد في طريقة حياتها، وذلك عن طريق عناصر الصناعات الثقافية المتمثلة في الإذاعة وعالم الأزياء والإعلان والسينما والأشكال الأخرى لثقافة الإعلام». (دوغلاس كيلنر، الماركسية الغربية)

ولقد ميز «أدورنو» في ثنايا حديثه عن فكرة صناعة الثقافة بين صناعة الثقافة والثقافة الجماهيرية، التي تفترض أن الجماهير تتحمل بعض المسؤولية عن الثقافة التي يستهلكونها وهذا يتحدد من خلال تفضيلات الجماهير أنفسهم وقد ذهب أدورنو إلى أكثر مما ذهب إليه منظرو الثقافة الجماهيرية، حيث اعتبر هذه الثقافة شيئًا فُرِضَ على الجماهير فرضًا، مما هيأهم للترحيب بها، دون أن يدركوا أنها مفروضة عليهم قسرا. أوبمعنى آخر وفقًا لرؤية أدورنو أن هناك ثقافة تُصنع من أجل الجماهير من خلال منظومة عالمية لها أهداف واضحة تحتكر جميع قنوات نشر الثقافة خاصة الإعلامية منها.

ومن ثم جاز القول بأن الإنتاج الصحفي عامة وبشكل أكثر تحديدا على المنصات الرقمية لا يراعي بالضرورة ما يهم الصالح العام، وجلّ

النظريات الكلاسيكية في الحقل الإعلامي تجمع على اعتبار ثلاث وظائف رئيسيّة كبرى لوسائل الإعلام، وهي الإخبار بدرجة أولى والتثقيف في مرتبة ثانية ثم الترفيه ثالثا.. يبدو أنّ السنوات الأخيرة شهدت انقلابا في الأولوليات حيث لم يعد للوظيفتين الأولى والثانية أهمية بالغة في ظل هيمنة النمط الترفيهي الذي طغى على أغلب المحتوى المقدم.. ولم يعد من السهل التمييز بينه وبين الإسفاف والابتذال المرسخ للتفاهة

وأنت تطوّف بصرك ستلحظ تلاشي هذه الوظائف ولوعلى حالة الانقلاب، وانتقال وسائل الإعلام في المجتمعات الرأسمالية إلى أداء ثلاث وظائف أخرى تنحصر فيما يلي:

أولا: التخفيف من حدة الصراع الاجتماعي داخل المجتمع والتقليل من أعراض الاغتراب

ثانيا : التقليل من شأن النظم الاجتماعية والاقتصادية البديلة للنظام الرأسمالي

ثالثا: تحقيق أكبر قدر من الأرباح على أساس أن الصناعات الثقافية والإعلامية تخضع للعقلانية الاقتصادية ووسائل الإعلام مشروعات تجارية أيضا «قضايا التبعية الإعلامية والثقافية»، د.عواطف عبدالرحمن

الأرقام.. ودهشة الترند

«الوظيفة المعنية بكشف الأشياء الموجودة في الظلام تُسمى الانتباه»

بهذه الكلمات عبر الفيلسوف الفرنسي موريس ميرلوبونتي، في كتابه «ظواهرية الإدراك phenomenology of perception» عن مسلمة صحفية ملخصها : لفت الانتباه لما يجب على العامة أن ينتبهوا إليه خدمة لمصالحهم. لكن السؤال الذي يبرز هنا، أي ظلام سيدركه الضوء؟ وهل يصح كشف ماكان مهما كان؟

مـن أكثـر المفاهيـم التـي أثبتـت الأيـام بطلانهـا دعـوى «الإعلام سـلطة رابعـة» مـع مـا فـي هـذا الإدعـاء مـن تضخـم الـذات، ذلـك أن الصـواب فـي كونـه جـزءً مـن السـلط الأخـرى السياسـية التنفيذيـة ومصـادر ومراكـز القـوى المهيمنـة، وخضوعـه يكـون لثلاثـي السياسـة أوالمـال أوالإيديولوجيـا...

الخضـوع لضغـط الأرقـام والوصـول مـن جهـة وضغوطـات الممـول المهتـم بأرقـام تفسـر لـه حجـم التأثيـر مـن جهـة أخـرى جعـل المحتـوى الإعلامـي أسـير الوصـول لأكبـر عـدد مـن المتابعيـن والمشـاهدين علـى حسـاب الدقـة والجـودة والقيمـة.. ففـي الأخيـر كل رقـم محقـق يمكـن عرضـه لاحقـاً علـى المعلنيـن لجذبهـم

هـذا السـعي وراء الأرقـام الـذي يتجسـد أحيانـا فـي تتبـع الترنـد أتبعـه انـقلاب بيّـن فـي النظريـة الكلاسـيكية حـول أولويـات الإعلام فتحولـت معـه الميديـا مـن دورهـا كمحـدد لأولويـات القضايـا التـي ينبغـي التركيـز عليهـا إلـى ميديـا تنقـاد لأولويـات الجمهور

مـا يؤشـر علـى أن مـا نـراه مـن تركيـز منصـات صحفيـة رقميـة علـى الإثـارة وجـذب التفاعـل وتجاهـل القواعـد الأخلاقيـة والمهنيـة نذيـر ودليـل علـى ارتـداء ثـوب الصحافـة الصفـراء فـي حلتـه الجديـدة

الخوارزميات.. رئيس التحرير الجديد

يـدور فـي الدوائـر الصحفيـة حديـث عـن فرضيـة تسـمى فقاعـات الترشـيح تفتـرض أن الخوارزميـات تختـار وتنتقـي المعلومـات التـي تعرضهـا للمسـتخدم بنـاءً علـى عمليـات البحـث والتفاعـل السـابقة، مـا يُنتـج حالـة مـن العزلـة المعلوماتيـة للمسـتخدم.. عمليـة توجيـه المحتـوى هـذه خلقـت مـا اصطلـح عليـه بـ «غـرف الصـدى Echo Chambers »

عمـل الخوارزميـات سـمح ببنـاء نمـوذج للقـرار التحريـري بعيـدا عـن اختيـارات الصحفييـن...لأن تفضيلاتهـم أدخلتهـم فـي فقاعـة الترشـيح

وهذا ما يحيل إلى إشكالية تحول التقنية إلى حارس بوابة جديد يتجلى عبر التحكم في كم ونوعية المعلومات أولا والجمهور ثانيا.. ليكون محصل ذلك تحكم في المحتويات التي ستنتجها المؤسسات الإعلامية

ما أثر هذا التحكم؟ :

- التعامل مع الإنتشار كمعيار للنجاح
- التدخل في عملية إنتاج المحتوى الصحفي
- التحكم في المعلومة المرسلة للجمهور

خاتمة

لطالما كان يردد مارشال ماكلوهان أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أويضطر إلى استخدامها، تحدد طبيعة هذا المجتمع والطريقة والكيفية التي يفكر ويعمل بها، ومن دون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه وسائل الإعلام، لن نستطيع أن نفهم التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمعات وعليه فإن النظرة الاستطلاعية لموضوع الاهتمام بالشأن الفكري والصناعة الإعلامية تحاول الإشارة إلى :

- الفلسفة الإعلامية تنبثق عموما عن التصور الكلي للكون والطبيعة والحياة وما يعنينا هاهنا هواليد الطولى التي كانت تتركز على الأجهزة الإعلامية في دولنا، والطريقة التي وفدت بها، وكيفية تشكل الارتباط الوثيق بين الرؤية الحداثية العلمانية والرؤية الإعلامية التي نشأت متبنية رؤى مفارقة للرؤى الخاصة بمجتمعاتنا.
- تقوم الصناعة الثقافية المعاصرة بتغيير ملامح المجتمع الذي نعيش فيه، بدءاً بإفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى وتحويل العالم وأفراد المجتمعات إلى تابعين ومستهلكين للسلع والصور والمعلومات التي تفرض عليهم، فيصار مع ذلك إلى انتماء جديد ومعيار محدث

قوامه الفضاء المعلوماتي الذي تصنعه شبكات الإعلام ورغباتها.

- هيمنت الإمبريالية النفسية على الإنسان وهمّشت القضايا السياسية الكبرى في وجدانه، وأغرقته في دوامة الاستهلاكية، حتى أصبح شعاره (as long as there is a chicken on the table) فإن العالم لا يهم.
- في كتابه «الوسيلة هي الرسالة» يرى ماكلوهان أن التبعات الاجتماعية التي تخلقها أية وسيلة إعلامية إنما هي عبارة عن نتيجة للامتدادات التي أدخلناها إلى حياتنا ولما أحدثته أية وسيلة تكنولوجية جديدة.
- أهمية الفاعل التقني في التأثير على نمط السلوك البشري بما يتواءم مع حاجياته واستعداده الفكري؛ ولهذا فإن العامل التكنولوجي يُعد عنصرًا جوهريًّا في تفسير السلوك الإنساني.
- ما يحدد القيمة الخبرية للأحداث في العصر الرقمي هوقابليتها للانتشار، وإثارة الجدل، وتسيد «الترند».

يتضح مما سبق أن هناك أكثر من عامل ساعد وأنتج هذا العزوف عن الشأن الفكري في الجزائر ومحاولة حصر العوامل في سياق واحد تؤول إلى استنتاجات مبتورة ذلك أن كلا من الخلفية المعرفية والفلسفية لوسائل الإعلام إضافة إلى تحديات الزمن الرقمي الحديث المتمثلة في الخضوع لضغط الأرقام والوصول من جهة وضغوطات الممول من جهة أخرى إضافة إلى سطوة الخوارزميات يصنعان مادة إعلامية متماهية مع رغبات الجمهور السائلة.

الإدمان وتأثيراته
على القدرات الذهنية للفرد

-مواقع التواصل الاجتماعي والإباحية نموذجا-

عبد المجيد الشيخ يلحاج

مقدمة

شـهدت العقـود الأخيـرة تطـورا سـريعا ومتسـارعا فـي التكنولوجيـات الرقميـة. كانـت بدايـة الطريـق باختـراع الكمبيوتـر فـي منتصـف القـرن الماضـي، ثـم انتشـار الأنترنـت فـي تسـعينيات نفـس القـرن، ومـا تلاهمـا مـن ظهـور للبريـد الإلكترونـي ونمووتطـور لـم يتوقـف لمحـركات البحـث وفعاليتهـا وأدائهـا.

ظهـور مواقـع التواصـل الاجتماعـي بالشـكل الـذي نعرفـه اليـوم سـبّب نقلـة نوعيـة فـي علاقـة الإنسـان بالأنترنـت، وكذلـك فعـل اختـراع الهواتـف الذكيـة. لـم يكـن جهـاز «آيفـون» أول هاتـف ذكـي، لكـن مـا جـاءت بـه أول نسـخة منـه غيّـرت طريقـة الوصـول إلـى المعلومـات للأبـد. عندمـا اعتلـى سـتيف جوبـز منصّـة الإعلان فـي جـوان 2007 وصـف الجهـاز الـذي بيـن يديـه بأنـه «هاتـف محمـول ثـوري»، و"جهـاز اتصـال غيـر مسـبوق بالإنترنـت".

فـي بدايـة سـنة 2024 بلـغ عـدد مسـتخدمي الأنترنـت فـي الجزائـر 33.49 مليـون مسـتخدم، بواقـع انتشـار 72.9 بالمائـة، حسـب الموقـع المختـص DataReportal. كمـا بلـغ عـدد مسـتخدمي مواقـع التواصـل الاجتماعـي فـي الجزائـر شـهر جانفـي مـن هـذه السـنة 24.85 مليـون مسـتخدم، مـا يقابلـه أكثـر مـن نصـف إجمالـي عـدد السـكان (54.1 بالمائـة)

قدمـت الأنترنـت ومـا جـاء معهـا مـن مواقـع التواصـل الاجتماعـي فوائـد عظيمـة جـدا، وسـهلت حيـاة الإنسـان بشـكل جـذري. وكانـت أعظـم الهدايـا التـي جـاءت بهـا هـي سـهولة الاتصـال، فتضاعفـت حركـة السـلع، وأصبـح النّـاس أكثـر قـدرة علـى الوصـول للقريـب والبعيـد، ووفّـرت قـدرة أكبـر للوصـول للأخبـار، وفتحـت فرصـا لا تحصـى للتكويـن والتحصيـل.

لكـن هـذه المزايـا وغيرهـا لـم تـأت بلا ثمـن،" فبعـد مرحلـة طوباويـة البدايـات، فـي تسـعينات القـرن العشـرين، التـي ميـزت الآبـاء المؤسسـين

لتقنيات الاتصال هذه، حيث كان الأمل كبيرا في إقامة منظومات تواصل كوني تصل إلى الجميع ويستفيد منها الجميع في مناخ من حرية التبادل والتشارك في نشر المعرفة، ووصولا إلى تأسيس نهضة بشرية فعلية من الشّراكة الإنسانية والذّكاء الجمعي، بعد هذه الطموحات بدأت تتجلى شيئا فشيئا سلبيّات هيمنة تقنيات الاتصال والتواصل على حياتنا» .

بدأ هذا التحول عندما بدأت هذه التقنيات في تحويل مستخدميها شيئا فشيئا رهائن لها، دافعة للكثير منهم نحوالإدمان، مستغلة المعرفة الإنسانية العميقة بدماغ الإنسان، وسبل بناء سلوك الإنسان. تحولت النظرة الطوباوية الأولى نحوهم وحيد للشركات الكبرى المتحكّمة في العالم التقني اليوم، هم وحيد يمكن تلخيصه في سؤال: كيف نستحوذ على انتباه مستخدمينا أطول وقت ممكن؟ كان هذا هوالسؤال الأهم، وعليه بُنيت خطط أعمالهم، وعليه صُمِّمت منتجاتهم وغُيِّرت وعُدِّلت باستمرار، وفي سبيله أُجيزت كل الممارسات والعمليات بعيدا عن أي أخلاقيات كان يجب أن تحكم عالم التقنية وتحكم علاقة المستخدم بموفّر تلك الخدمات، تقودهم في كل ذلك رغبة في جني المزيد والمزيد من الأرباح

فبالنسبة لأولئك فاستمرار وجود الشخص داخل منصتك يتطلب منك جهدا لا ينقطع في جذب انتباهه، ذلك الانتباه الذي تقلص مداه بمرور السنين بسبب تلك الممارسات نفسها، ما يجعل الشركات الرقمية الكبرى في مواجهة مباشرة مع آثار ونتائج تقنياتهم على المستخدمين، ذلك الوجود المستمر هوفرص متزايدة للتعرض لإعلانات أكثر، وبوابات تشتيت أكثر، تزيد من فرصهم في زيادة الأرباح. لا يفرح مقدموهذه الخدمات التقنية من مغادرة مستخدميهم لمنصاتهم، إلا إن كان سبيل المغادرة إحدى أبواب التشتيت المثبتة بعناية في تصميم فضاء تلك المنصات

يصف الصحفي الفرنسي، برونوباتينو، عميد مدرسة الصحافة في كلية العلوم السياسية في باريس، ما آلت إليه الأمور، بعد تلك الآمال الأولى، بفضاء يجتمع فيه البشر، ليكونوا عقلا ينتج أكثر مما لوكانوا متفرقين:

«وبعد عقدين يثبت الأمر بشكل لا راد له: فالجمهرة موجودة هنا. إلا أن الحكمة ليست حاضرة. فنحن بصدد اعتمادٍ على الشاشات، وتدهور للسجال العام، واستقطاب للمجال العام، وصدارة الاستجابات المنعكسة على التفكير المتعمق"

ويضيف قائلا: «طوباوية البداية هي بصدد موتها، إذ إنها تتعرض للقتل بسبب الوحوش الذين ولدتهم. لقد تجاهل أنصار الحرية المطلقة قوتين انتشرتا في غياب أي ضوابط، وهما: الانحراف الجمعي الناتج عن الأهواء الفردية، والقوة الاقتصادية الناتجة عن التراكم. ولا يعدو إدماننا على الشاشات سوى كونه نتاج الصلة القائمة ما بين الأهواء والقوة الاقتصادية، إضافة إلى البنية الاقتصادية الفوقية التي تجعلهما يغذيان بعضهما بعضا، ويعززان بعضهما بعضا على حساب حريتنا"

صناعة الإباحية وتصوير العلاقات الجنسية لم يكونا بمنأًى عن كل هذا النمو للعالم الرقمي. فقد حاولت الجهات الكبرى الصانعة والمنتجة للإباحية في العالم استغلال الفضاءات الواسعة التي تفتحت أمامها، والفرص التي توفرت عندها، لتغرق العالم الرقمي بكم هائل من المقاطع والصور الإباحية، مستغلة الشهوة الجنسية المفطورة داخل الإنسان، مع ما توصل إليه علم النفس السلوكي في فهم سلوك الإنسان ومنابعه، وسبل الدفع نحو سلوك ما بعينه، وطرق الاستحواذ على انتباه الإنسان أطول قدر ممكن.

أدى كل ذلك، مصحوبا بخصائص الإباحية المرئية في العالم الرقمي، لارتفاع استهلاك الإباحية حول العالم، أوصل العديد من المشاهدين لمراحل متقدمة من إدمانها، مع ما يصاحب ذلك من آثار نفسية وفكرية عميقة لا تخطئها عين مراقب على حياة مستهلك الإباحية.

إدمان مواقع التواصل الاجتماعي وإدمان الإباحية، بعض الأشكال فقط من مشكلة أكبر وأوسع. فالإدمان اليوم لم يعد مشكلة أفراد متفرقين، كما

كان عليه قبل عقود ماضية، بل أصبح مشكلة أمم، وأصبح المهتمون بشأن المجتمعات ونموها ونقدها وتوجيهها وتصويبها في مواجهة حالة أشبه بالوباء، فقد أصبحوا أمام شعوب مدمنة

وهذا الانتشار الواسع لم يكن ذا فاتورة هينة. فقد أصاب المجتمعات والأمم في مناجم كنوزها، في عقول أفرادها، وأدمغة شبابها، في محركات الفكر والثقافة فيها. نتج عن الوباء نقص حاد في الانتباه، وضحالة في المعرفة المتداولة وسطحيتها، وحالة عامة من التشتت وفقدان القدرة على التركيز. ألقى كل هذا بظلاله على الوضع الفكري والثقافي في عالم اليوم.

الإدمان وأنواعه

منذ الثمانينات أخذ اهتمام البحث في موضوع الإدمان يتوسع شيئا فشيئا ليضم الآن دوائر جديدة من السلوكات الإدمانية، وهوما يسمى اليوم بالإدمان السلوكي، والذي يتجاوز الإدمان الكلاسيكي على المواد ذات التأثير النفساني، المسمى بالإدمان الكيميائي. تعتبر الإدمانات السلوكية مشابهة لحد بعيد لإدمان المواد.

المصطلحات الأكثر شيوعا، والمستخدمة في مجال الإدمان على التقنيات الحديثة هي تلك الخاصة بالإدمان التكنولوجي أوالإدمان الرقمي. ويمكن اعتبار إدمان الأنترنت (أو«الاستخدام القهري للأنترنت» أو«الاستعمال المرضي للأنترنت») نوعا من أنواع الإدمان الرقمي. لينـدرج تحت مفهوم إدمان الأنترنت أقسام مختلفة منها إدمان مواقع التواصل الاجتماعي، وإدمان الجنس الرقمي (أوالإباحية الرقمية).

نشرت البروفيسور كيمبرلي يونغ، وهي عالمة نفس أمريكية، سنة 1996، بمؤتمر الجمعية الأمريكية لعلم النفس أول دراسة في موضوع إدمان الأنترنت/ الكمبيوتر. وصفت في تقريرها آنذاك إدمان الأنترنت كونه «اضطرابا في السيطرة على الانفعالات، والذي لا يتطلب مواد مسكرة».

خلصت خلال دراستها أن أفراد العينة من مستخدمي الأنترنت كانوا يعانون من الأعراض ذاتها المصاحبة للّعب المَرضي للقمار

سنة 2008، اقترح الباحث الصيني تاوران تعريف إدمان الأنترنت على أنه: «الإفراط في استخدام الفرد للأنترنت بسبب اضطراب عقلي وسلوكي، أين تقود العودة لاستخدام الأنترنت رغبة قوية في تخفيف أوتجنب أعراض الانسحاب من الأنترنت، وقد يترافق مع أعراض عقلية وجسدية». ويعرف يانغ هونغماي إدمان الأنترنت بأنه «حالة هوس مزمنة أودورية ناتجة عن الاستخدام المتكرر للإنترنت، تخلق رغبة لا تقاوم في إعادة الاستخدام، وتخلق في الوقت نفسه حالة من التسامح تزيد من الوقت الذي يقضيه الشخص على الأنترنت، تنطوي على الاعتماد الجسدي والنفسي. ونتيجة لهذا السلوك المفرط غير المعقول في الاستخدام، يمكن أن يؤدي إدمان الأنترنت في النهاية إلى أضرار اجتماعية ونفسية فردية، مصحوبة بأعراض جسدية». قدم هذان التعريفان وصفان شاملان لإدمان الأنترنت وقد تم استخدامهما على نطاق واسع

كيف يحدث الإدمان عند الإنسان؟

يعد ب. ف. سكينر، الباحث في علم النفس بجامعة هارفرد، أحد أشهر علماء النفس في القرن الماضي. كانت لأبحاثه في مجال علم النفس السلوكي ونتائجها الأثر البالغ على صناعات لاحقة مثل القمار، ثم تصاميم منتجات العالم الرقمي بعد ذلك. فالمبادئ السلوكية التي رسمها وأسسها تنطبق بدقة متناهية على تصميم الخبرات الرقمية في القرن الواحد والعشرين.

خلال حياته المهنية الطويلة أجرى سكينر العديد من التجارب في محاولة لاختبار حدود كيفية تأثير التعزيز والعقاب على السلوك. صندوق سكينر أوغرفة التكييف الفعال، جهاز ابتكره سكينر واستعمله في العديد من تجاربه على سلوك الحيوان. بشكل بسيط هوغرفة يوضع فيها موضوع

الاختبار، جرذا كان أوحمامة، تصمم الغرفة بالشكل الذي يقود موضوع الاختبار لتعلم السلوك المطلوب من خلال التجربة والخطأ.

في بعض السيناريوهات التي صممها سكينر، يحصل الحمام داخل الصندوق على الطعام كلما نقر على زر مخصص لذلك. يفعل الحمام ذلك صدفة بادئ الأمر، ثم يكتسب السلوك بالتكرار المستمر. وفي إعدادات أخرى غير سكينر المدد الزمنية بين كل مكافأتين، فبعد حصول الحمام على الطعام يتوقف النظام عن توفير الوجبات مدة دقيقة تقريبا، ليحصل الحمام على المكافأة مرة أخرى إن هوقام بالنقر بعد مرور تلك الدقيقة، لم يستطع الحمام ضبط التوقيت تماما لكنه اقترب من ذلك.

وفي مستوى أعلى من العشوائية والمكافآت غير المنتظمة، قام سكينر بتعطيل نظام المكافآت في مدد متغيرة باستمرار، فمرة يستمر التعطيل دقيقة واحدة، ومرة أخرى 5 ثوان، أو50 ثانية، أوعشر دقائق مثلا، في حالة من العشوائية لا يستطيع فيها الحمام موضع التجربة توقعها ولا التنبؤ بالمرة القادمة التي يلي فيها نقرها الزر توفيرا للطعام.

وفي ظل هذا الوضع من العشوائية دخل الحمام حالة من السلوك القهري، إذ ينقر باستمرار بلا هوادة، بغض النظر عن توفير الطعام من عدمه في بعض الأحيان. أحد الطيور قام بالنقر ما معدله 2.5 نقرة في الثانية الواحدة، لمدة 16 ساعة متواصلة. وقام طائر آخر بالنقر 87.000 مرة على مدار 14 ساعة، حاصلا على المكافأة في أقل من 1 في المائة من تلك النقرات

ما أشبه العالم الرقمي اليوم بصندوق سكينر. في مواقع التواصل الاجتماعي كما في الإباحية، المكافآت منثورة في كل مكان، لكن المستخدم ليس على ثقة تامة بموعد المكافأة القادمة. تأتي المكافآت على أشكال متعددة، قد تكون إعجابا أوتنبيها عن تعليق من صديق أومقطع فيديوطريف نلتقي به صدفة أثناء التمرير اللانهائي. أما الإباحية فهي تَعِد مستخدمها

بشكل لا شك فيه أنه سيجد عندها ما يبحث عنه وما يروق توجهاته الجنسية مهما شذّت، ففي غمرة الوفرة اللامتناهية لما تقدمه من محتوى مرئي، هناك مكافأة قادمة لا محالة. هذه الحالة من مطاردة المكافآت، بغض النظر عن المكافآت السابقة أوالآنية، تدفع بالمستخدم للوقوع في أسر سلوك قهري، في دائرة محكمة الإغلاق، صعبٌ الانفلات منها

الدوبامين ودائرة المكافأة

يعد الدوبامين أحد الهرمونات الأساسية في الدماغ المتدخلة في عملية بناء السلوك والعادات والإدمان بعد ذلك. ليس الهرمون الوحيد المسؤول عن هذا، لكنه أساسي بالقدر الذي يقود العديد من الباحثين والعلماء لتحديد إمكانية الوقوع في إدمان أي سلوك بمدى قدرة هذا السلوك على إفراز الدوبامين في الدماغ.

الدوبامين مادة كيميائية يفرزها الدماغ، مسؤول عن الحافز والرغبة والدافع نحوالسلوكيات التي يُتَوقع الحصول على متعة من وراء القيام بها. يتعلق مقدار إفرازه بعاملين أساسيين، أولهما مقدار الجهد المطلوب للحصول على المكافأة، وثانيهما مدى سرعة الحصول على تلك المكافأة.

بالنظر للعالم الرقمي اليوم، ولأكبر تجلياته وأشكاله الممثلة في مواقع التواصل الاجتماعي، والمواقع الإباحية، فإمكانية الحصول على الدفعة القادمة من المكافأة تبعد مقدار نقرة واحدة من كل مستخدم، فلا يتطلب ذلك أي جهد. متكئا على الأريكة أومستلقيا على الفراش، هناك دائما نقرة واحدة تفصله عن النشوة التالية. بشكل أسرع ما يمكن. مكافأة أسرع بأقل جهد ممكن يعني مقدارا أكبر من الدوبامين. ومقدار أكبر من الدوبامين يعني قدرة أكبر لذاك السلوك للتحول لفعل قهري وسلوك إدماني.

بالمقابل من ذلك كله فإن فعل القراءة وفعل التفكير وفعل التحليل وفعل الكتابة، وكل ما يخص الشأن الفكري تناولا ومعالجة وإنتاجا، يحتاج

جهدا ذهنيا واستثمارا فكريا، وانتباها مستمرا ويقظة ذهنية، وبعد ذلك كله ذاكرة سليمة قادرة على الاحتفاظ بالفكرة والمعنى قصد استعماله الأنسب في المكان الأنسب. فأما المكافأة المحصلة من كل هذه الأفعال فهي أبعد من أن تكون على المدى القريب. فهي تأتي على شكل فهم أعمق بعد قراءات متعددة، أونتيجة بعد تحليل مستمر. ما يعني إفرازا قليلا للدوبامين داخل الدماغ أثناء القيام بكل هذه الأفعال. لكنه إفراز كاف جدا للقيام بها، كما كان كافيا لإنسان ما قبل عصر المشتتات

إحدى أهم النتائج التي تحصل بعد إغراق الدماغ بالدوبامين أثناء تصفح مواقع التواصل الاجتماعي أواستهلاك المحتوى الإباحي، هوتقليل حاد لحساسية مستقبلات الدوبامين في الدماغ، كآلية دفاعية وميل طبيعي للعضوية نحوالتوازن، من أجل خفض الرسائل العصبية الناتجة عن إفراز هرمون الدوبامين. هذا الانخفاض في حساسية المستقبلات ينتج عنه انغماس أكثر في السلوك الإدماني، رغبة وبحثا في الحصول على مقدار المتعة الأولى، في ظاهرة نفسية تسمى بالتسامح (Tolérance) تقود الشخص نحوالتصعيد وزيادة الاستهلاك.

أما النتيجة الأخرى لانخفاض حساسية مستقبلات الدوبامين هوحالة من الملل العام تعتري الشخص، تقوده إلى فقدان الرغبة في الحياة ومهامها، تلك الحياة التي تتطلب جهدا عاليا لاجتياز اختباراتها، وقدرة ذهنية كبيرة لترك الأثر فيها. هنا نجد أن الأثر مضاعف، فمهام الحياة العلمية والعملية الفكرية لا يتفاعل معها الدماغ بإفراز كبير للدوبامين، مضافا إليه تلك الحساسية المنخفضة لمستقبلاته في الدماغ، تقود الفرد إلى حالة هوان فكرية وعملية، لا تستثيره إلا المتع العابرة بلا أثر

تنتشر الإشارات والمحفزات التي تدعوإلى مواقع التواصل من أجل التحقق والمراجعة في كل مكان. تلك المحفزات قد تكون إشارات محسوسة، مثل تنبيهات الهاتف، وقد تكون حالة نفسية مثل الملل أومواجهة صعوبة فكرية ما، مثل الوصول لنقطة جوهرية في كتابة مقال ما وتحريره،

أوأثنـاء العمـل علـى مشـكلة مـا والوصـول لنقطـة الاسـتنتاج النهائيـة، كل هـذه المواقـف قـد تكـون محفـزات ودوافـع نفسـية تقـود بالفـرد للتوجـه نحومواقـع التواصـل بـدل مواجهـة الصعوبـة القائمـة أمامـه. الأمـر مماثـل أيضـا بخصـوص الإباحيـة، فـكل الإشـارات المذكـورة سـابقا قـد تقـود إليهـا أيضـا، فكمـا قـد يكـون الهاتـف نفسـه إشـارة تدعوإلـى ممارسـة الإدمـان وتكـراره، قـد تكـون البيئـة المحيطـة بالفـرد دافعـا أيضـا.

حسـب النمـوذج الـذي اقترحـه جيمـس كليـر فـي كتابـه « عـادات ذريـة»، والـذي يتكـون مـن أربـع مكونـات، الإشـارة أوالدافـع أوالمحفـز، والتـوق أوالرغبـة، ثـم الاسـتجابة لتختتـم الدائـرة بالمكافـأة، فـإن تكـرار السـلوك بعـد المحفـز، مـع مـا ينتـج عنـه مـن مكافـأة مجزيـة للدمـاغ، يجعـل الدوبامين فيـه يعـزز تلـك الدائـرة باسـتمرار، لترتبـط تلـك المحفـزات بشـكل عميـق بنفـس الأفعـال والسـلوكات، لتكـوّن دائـرة مغلقـة، تشـكل العـادة ثـم الإدمـان بعـد ذلـك، تجعـل مـن الصعـب جـدا كسـرها والخـروج منهـا.

لماذا نقع في إدمان مواقع التواصل الاجتماعي؟

أحـد الأسـباب الأساسـية للانتشـار الواسـع لاسـتخدام مواقـع التواصـل الاجتماعـي، وارتفـاع معـدلات سـوء الاسـتخدام والوقـوع فـي إدمانهـا هـي أنهـا مصممـة بالفعـل مـن أجـل أن يُدمَـن عليهـا. فنمـوذج أعمـال الشـركات التقنيـة الكبـرى التـي تسـتحوذ علـى القـدر الأكبـر مـن البيانـات علـى شـبكة الأنترنـت قائـم علـى محاولـة جـذب الانتبـاه والبقـاء علـى منصاتهـا أكبـر قـدر ممكـن مـن الوقـت. كلمـا وقـع عـدد أكبـر مـن المسـتخدمين فـي مصائدهـا لأطـول مـدة ممكنـة، كلمـا زادت الفرصـة أمـام خوارزمياتهـا لتجمـع معلومـات أكثـر وباسـتمرار، بشـكل شَـرِه لا ينقطـع. وبيانـاتٌ أكثـر تقابلهـا عوائـد أكبـر، إمـا بيعـا مباشـرا لتلـك البيانـات، أواسـتغلالا لهـا مـن أجـل تقديـم خدمـات إشـهار مغريـة لأصحـاب الشـركات والأمـوال.

يذكر تقرير المالية الخاص بشركة فيسبوك لعام 2020 بشكل صريح: «إذا فشلنا في الاحتفاظ على المستعملين الحاليين، أوفشلنا في جلب مستعملين جدد، أوحتى إذا انخفضت مستويات تفاعل المستعملين لمنصاتنا، عائداتنا ونتائجنا المالية قد تتضرر بشكل كبير".

أحد الميزات الأساسية أيضا، والتي تجعل مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي يقضون أوقاتا غير محدودة عليها، هي خاصية التمرير اللانهائي. تلك الخاصية التي ابتكرها رازا راسكين Aza Raskin سنة 2006 بهدف تحسين واجهات المستخدم حينها، وتمكين المستخدمين من الاطلاع على مقالات المدونات والمواقع الإخبارية التي يرتادونها بأقل عدد من النقرات. كان نموذجا ثوريا جديدا حينها في مواجهة نموذج تقسيم المحتوى إلى صفحات، قبل أن تعتمده جل مواقع التواصل الاجتماعي التي نستخدمها في يومنا هذا.

يقول رازا راسكين: «إن البشرية اليوم تقضي من الأوقات ما يساوي 200.000 حياة إنسان كل يوم بسبب التمرير اللانهائي»، كما يقول أيضا في تغريدة رسمية له، واقفا أمام ما خلفته تقنيته على البشرية وأجيالها القادمة:" إن الدرس الذي تعلمته من التمرير اللانهائي يقضي بأن تحسينك الشيء لتسهيل استخدامه لا يعني بالضرورة أنك قد قدمت الأفضل للبشرية".

إن ما يدفع مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي إلى إدمان التمرير اللانهائي هورغبة فطرية عميقة في إتمام الوحدة، وهوما يسمى بالتحيز نحوالوحدة، وهونفسه الدافع الذي يدعوك عميقا لعدم مغادرة الكتاب قبل إتمام الفصل، كما يشعرك أنك لم تشبع بعد ما لم تكمل الصحن الذي بين يديك. لكن الفارق الأساسي هنا أن الوحدة في مواقع التواصل الاجتماعي التي تعتمد تصميم البساط اللانهائي هواللانهاية. وحدة لا تنتهي مهما طاردها المستخدم بدافع نفسي داخلي بإنهائها، ما ينتج عنه ساعات وساعات متواصلة من استهلاك اللاشيء.

وأما الدافع الآخر فهوالفضول وغياب انتظام المكافآت، فلا يمكن بأي أساس توقع المحتوى القادم أثناء اختبار التمرير المستمر، هل سيكون مقطعا كوميديا مضحكا، أم صورة قطة طريفة، أم منشورا يتناول موضوعا مستفزا، أم شيئا غير ذلك تماما، مجرد محتوى بلا معنى؟ هذا بالضبط التعزيز العشوائي الذي توصل إليه سكينر، واختبره بكونه أحسن استراتيجية لجعل شخص ما يقوم بسلوك معين بشكل قهري.

إضافة لكل الأسباب السابقة تأتي أسباب أخرى من قبيل أن هذه المواقع تقدم تجربة اجتماعية وفرصة لإرضاء رغبات اجتماعية داخلية في نفس الإنسان، كما توفر محفزات ومكافآت متنوعة لا تنضب، من الإعجابات إلى التعليقات والمشاركات، كما توفر فرصة لمستخدميها من أجل ممارسة المشاركة في بناء المحتوى، وتقييم ما يكتبه وينشره الآخرون، وهذا ما يسميه نير إيال Nir Eyal بالاستثمار، في النموذج الذي يقدمه في كتابه « مدمن (Hooked ،2014)» الذي يعلم مصممي الويب كيف يخلقون الشغف لدى مستخدميهم

كيف تؤثر مواقع التواصل الاجتماعي على مستخدميها؟

إن التواجد المستمر على منصات مواقع التواصل الاجتماعي، مع الاستهلاك المتواصل للمحتوى المعروض فيها، يؤدي إلى حالة من الضحالة المعرفية، فما يستهلكه المستخدم لتلك المواقع لا يعدوكونه فتاتا من كل موضوع، ومن المؤسف أن غالب ذلك الفتات لا يتأسس على علم صلب. هذه الضحالة وذاك الانتقال المستمر والقفز اللا منتهي قد يصيب صاحبه بالوهم المعرفي، الذي ينكشف زيفه أمام أول اختبار معرفي حقيقي. كما تجعل صاحبها في موقع ضعف وهوان تتلاطمه الأفكار والتوجهات الفكرية المعروضة بمختلف الأشكال والصيغ، قد ينتهي به الأمر كائنا فكريا مشوها، خليطا من كل شيء، يعتقد بما لا ينطق، وينطق بما لا يعتقد.

ولأن التواجد في العالم الرقمي يقدم مكافآت ومتعا رخيصة، بأقل الجهد الممكن، فقد يصبح في أي لحظة مهربا من مواجهة الأسئلة المحيرة لعقل الإنسان. مهربا من لحظات التفكر والتأمل، ومواجهة النفس بأسئلتها وحيرتها. هروب مستمر يجعل من الأفراد المنغمسين في مواقع التواصل الاجتماعي أشخاصا يسعون بلا هدى، تأخذ بهم الرياح أينما ارتحلت.

إن تعويد النفس على الحصول على المتعة دون أي جهد، وبتركيز مضاعف عن أي متعة طبيعية قد يحصلها الفرد من الجهد الفكري والمعرفي، يقتل الحافز داخل الإنسان، ويصل به لحالة الاستنزاف، لوضع يميل فيه الفرد بشكل مستمر نحوالمتع الرخيصة على حساب أي جهد ذا أهمية وأثر

كما أن التتابع السريع للصور والمنشورات والمواضيع، وهي الاستراتيجية المثلى للجذب المستمر لانتباه المستخدم، يخلق حالة من التشتت ينقلها المستهلك لها إلى حياته الواقعية، فلا ينطلق في عمل أومشروع إلا وقد مل منه قافزا إلى عمل آخر بحثا عن متعة مستمرة لا تخبو. هذا القفز المستمر جعل من قدرة التركيز لجيل الألفية تنخفض إلى مستويات متدنية، قدرتها إحدى الأبحاث بتسع ثوان.

كما أن هذا الإغراق المستمر بالمدخلات، من معلومات وأخبار وصور لا تنقطع، يفقد الإنسان قدرته على التحليل والفهم، فلا يحصل تحت ذلك السيل العارم على أي فرصة للتوقف واستدعاء الملكات الفكرية وتشغيلها

إحدى الظواهر التي أعلتها مواقع التواصل الاجتماعي أيضا هي ثقافة الترند، أوالأحداث الأكثر تفاعلا، هذه الثقافة التي تنقل الحمى للجميع، ليصبح الحدث الواحد حديث الكل، مع رغبة عميقة لإبداء الآراء دون اعتبار للدقة ولا المصدرية ولا احتكام لمصادر المعرفة الرصينة. مواقع التواصل الاجتماعي تتيح اليوم لمستخدمها ما لم تتحه له من قبل وسائل الإعلام التقليدية: الفورية والتفاعلية. يصف «إبراهيم السكران» هذا الوضع

قائلا: « فالمتابع بمجرد أن يسمع الخبر سواء كان عالميا أم محليا تجده يسارع لفتح شبكات التواصل، لا ليبحث عن تحليل متخصص، بل ليرى تعليقات الناس وردود أفعالهم، وقد ينخرط فيها، فتثير التعليقات ردودا، وردودا على الردود، في متتالية تعليقية متناسلة لا تتوقف".

يرى مارك بوستر أن تكنولوجيا الواقع الافتراضي قد حملت إشكاليتين رئيستين لمتابعيها وروادها: إشكالية الحقيقة، وإشكالية الذات. أما إشكالية الحقيقة فهي بسبب تعدد صور الحقائق والمصادر، ما يؤدي إلى ضياع الحقيقة أوجزء منها. بينما تتجلى إشكالية الذات في إشباع حاجات الفرد فقط من الأخبار والصور، ليفتقد الناس خطاب التنشئة الاجتماعية التي يرعاها المنزل والمدرسة ودور العبادة بخطابات كبرى تقدم إجابات عن أسئلة أساسية في حياة الفرد، أما إنسان الترند فلا خطاب له ولا مجيب، فأسئلته لم تعد تأسيسية ولم تعد كبرى، وانحصر اهتمامه على اللهث وراء الأحداث.

كما أن السطحية والتفاهة أضحت علامة مميزة لتلك العوالم الرقمية، لأن للجميع الحق في إبداء الرأي في أي موضوع كان، الشرط الوحيد هوأن تمتلك حسابا إلكترونيا عليها، لتعطي لك كامل الحرية في التعليق على ما تريد، مهما كانت خلفيتك المعرفية. قالت الدكتورة «مشاعل عبد العزيز الهاجري»، في تقديمها لكتاب «نظام التفاهة»، واصفة هذه الظاهرة: إن «الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل (مثل تويتر وفيسبوك وإنستغرام) هي مجرد مواقع للقاء الافتراضي وتبادل الآراء لا أكثر، فيها يتكوّن عقل جمعي من خلال المنشورات المتتابعة. هذا الفكر التراكمي السريع الذي يبلور بسرعة وبدقة موضوعا محددا نجح في اختصار مسيرة طويلة كان تبادل الفكر فيها يتطلب أجيالا من التفاعل (المناظرات والخطابات والمراسلات والكتب والنشر والتوزيع والقراءة والنقد ونقد النقد). ورغم كل هذه الفرص؛ فقد نجحت هذه المواقع في ترميز التافهين، كما يُقال، أي تحويلهم إلى رموز، ما يجعل من كثير من تافهي مشاهير منصات

التواصل الاجتماعي والفاشينيستات يظهرون لنا بمظهر النجاح".

علاوة على هذا، فالتواجد المستمر على مواقع التواصل الاجتماعي قد يكون له آثار نفسية واجتماعية واضحة. إحدى الدراسات التي أجريت سنة 2017 على شباب من عمر التاسعة عشر إلى الثانية والثلاثين، وجدت أن الأشخاص الذين يستعملون مواقع التواصل الاجتماعي بشكل مرتفع هم أكثر عرضة للشعور بالعزلة الاجتماعية بثلاثة أضعاف مقارنة بأقرانهم الذين لا يستعملون مواقع التواصل الاجتماعي. كما أن إحدى المراجعات الدورية سنة 2016 وجدت أن الأشخاص الذين لديهم تفاعلات اجتماعية سلبية عبر الأنترنت وكانوا أكثر عرضة للمقارنة الاجتماعية، عانوا من مستويات عالية من الاكتئاب والقلق.

كما أن العديد من الدراسات التي اعتمدت تصوير الدماغ، أظهرت انكماشا في المادة الرمادية للدماغ في حالات إدمان الأنترنت. وكان الفص الجبهي أحد أهم المناطق المتأثرة بهذا الانكماش، وهي المنطقة من الدماغ المسؤولة عن الوظائف التنفيذية والتخطيط وترتيب الأولويات والتنظيم والتحكم في الدوافع. كما أظهرت دراسات أخرى تأثرا أيضا لسلامة المادة البيضاء، والمسؤولة عن الاتصال والترابط بين مختلف مناطق الدماغ.

إدمان الإباحية الرقمية

يعود تاريخ الإباحية إلى وقت طويل جدا، فقد قام الرومان والإغريق بتوثيق عدد كبير جدا من عمليات الجنس. وكانت أكبر مجموعة قديمة من التوثيقات الإباحية تلك التي عثر عليها في المدينة القديمة مومباي. حيث تم العثور على المئات من الصور الإباحية والمنحوتات الجنسية واللوحات الجدارية التي تغطي الحمامات وبيوت الدعارة هناك.

كانت الإباحية موجودة دائما عبر العصور، واستفادت من كل ما اخترعه البشر عبر السنين. فكان اختراع الكتابة فرصة لظهور القصص

الجنسية المكتوبة، والطابعة حدثا جعل المجلات الإباحية تغزوالبيوت بعد ذلك. سنة 1896 كان أول مشهد لقبلة يتم عرضه في السينما في فلم لتوماس أديسون.

في بداية القرن العشرين انطلقت أولى محاولات تصوير الأفلام الإباحية ونشرها. وفي سنة 1950 تم تأسيس مجلة بلاي بوي Playboy أحد أشهر المجلات الإباحية في العالم من طرف هيوهيفنر. وعندما دخلت الأنترنت أبواب الناس عام 1991 توسع مفهوم الإباحية، حيث تم إطلاق أول موقع إباحي عام 1994. وتطورت معها صناعة الإباحية أكثر فأكثر، لتصبح هناك شركات متخصصة لإنتاج الأفلام والصور الإباحية وممثلين وستوديوهات تصوير. صناعة كاملة بكل أركانها تدر مدخولا خياليا للاقتصاد الأمريكي، قائم على استغلال الرغبة الجنسية داخل الإنسان.

لم تبق الإباحية ومشاهدها محصورة على تلك الأفلام، ولم تبق حبيسة بعض المواقع، بل تعدت ذلك وانتشرت حتى في وسائط الإعلام العامة. كتب د. نورمان دويج في كتابه «الدماغ الذي يغير نفسه» يقول: «ثلاثون عاما مضت وصانعوالإباحية ينشرون كل ما هوفاضح وحقير، وانتشرت الصور الشهوانية وأصبحت الآن تظهر حتى في وسائل الإعلام السائدة طوال اليوم، في كل شيء، بما في ذلك مقدمات البرامج التلفزيونية، وأشرطة الفيديو، والمسلسلات التلفزيونية والإعلانات، وهلم جرا".

ومع ظهور وانتشار مواقع التواصل الاجتماعي عرفت المقاطع الإباحية انتشارا واسعا، وزادت مشاهداتها، ووقعت أعداد كبيرة من الناس في إدمانها. انتشرت صور العري والتجرد والخلع في تلك المواقع، وحاول صناعها تطبيع تلك المشاهد بالسماح لها، ومحاولة تقزيم وحصر مفهوم الإباحية في المشاهد التي تصور العلاقة الجنسية الصريحة.

ترد الإباحة في القواميس العربية بمعنى الإعلان والكشف والإظهار. والإباحية: التحلل من القوانين والأخلاق. كما تعرف الإباحية على أنها:

الأفلام والصور والمجلات وغيرها، التي تظهر أوتصف أشخاصا عراة أوالجنس بطريقة مفتوحة جدا ومباشرة من أجل الإثارة الجنسية.

أرقام عن واقع صناعة الإباحية

إحدى الإحصائيات تخبرنا أن هنالك في كل 39 دقيقة مقطعا إباحيا جديدا ينتج في أمريكا، وتذكر إحدى أكبر المواقع الإباحية أن عدد المشاهدات في منصتها يبلغ 2.5 مليار مشاهدة شهريا، حيث بلغ مجموعها سنة 2019 بأكملها 42 مليار زيارة، بمعدل 115 مليون زيارة يوميًا.

يقول الباحث الأمريكي « إيريك شلوسر» إن "صناعة الجنس صارت تمثل جزءا حيويا من أمريكا، ودورها الاقتصادي يفوق دور شركات كبرى مثل مايكروسوفت وجينيرال موتورز، ونفوذ هذه الصناعة في توجيه اقتصاديات العالم صار أكبر نفوذا من هذه الشركات مجتمعة"

في عام 2006 مثلا، كان دخل هذه الصناعة 97 مليار دولار، أي أكثر من مدخول شركات مايكروسوفت وغوغل وأمازون وإيبي وياهووأبل ونتفلكس مجتمعة. الأرقام التي تعرضها الإحصائيات اليوم عن مشاهدات الإباحية وصناعتها مهولة جدا، رغم الكم الهائل من الأبحاث العلمية الرصينة التي تظهر مدى فداحة الآثار السلبية للإباحية وإدمانها على دماغ الفرد، وصحته النفسية والاجتماعية.

هذا الانتشار الواسع للإباحية واستهلاكها لم يكن بمعزل عن مجتمع السوق والاستهلاك الذي قامت آلته التي لا ترحم بتحويل كل شيء إلى سلع معروضة في رفوف السوق. فلم تسلم منه العلاقة الحميمة التي اعتبرها الإنسان لعصور طويلة أمرا محفوظا ضمن النطاق الخاص. لكن ولأنها تثير غريزة مغروسة في عمق الإنسان وبإمكانها تحقيق عوائد مالية فلكية، فقد استوفت شروط عرضها للاستهلاك العام. ففي مجتمع

العرض عند بيونغ تشول هان فالشيء أيا كان لا يتضمن قيمته إلا إذا تم عرضه. ما جعل مجتمع الإيجابية يحول كل شيء إلى سلع لتكتسب صفة الوجود

كيف انتشرت الإباحية الرقمية؟

يقوم الانتشار السرطاني للصور الإباحية في عالم اليوم على ثلاث أسس، تتغذى صناعة الإباحية اليوم وتتقوى بها: الوفرة، والمجانية وسهولة الوصول

ففي الأزمنة السابقة كان المحتوى الإباحي محدودا جدا. حتى إن حصل أحدهم على مجلة إباحية أومقطع فيديوقد يكون من الصعب عليه الحصول على نسخة أخرى. محدودا بالقدر الذي قد تنتقل فيه مجلة واحدة بين عشرات الأشخاص. لكن إباحية اليوم تفتح ذراعيها لمستهلكها واعدة إياه بتوفير ما تشتهيه نفسه، حتى إن مل من نمط معين كانت أنماط أخرى من الجنس على الرفوف هناك تنتظره. فالتصعيد سمة ثابتة في طريق إدمان الإباحية. مقاطع بأعداد لا نهائية، من كل نوع وباختلاف الجودات

ومن السمات التي صبغت الإباحية وصناعتها على مر القرون أن على مستهلكها أن يدفع مقابل الوصول إليها. لكن المحتوى الإباحي المجاني اليوم يطغى بشكل تام على المحتوى المدفوع، حيث تبلغ نسبة المواقع الإباحية المجانية ما بين 70 إلى 80 بالمائة من المواقع الإباحية، ما يساهم بشكل أكبر في سهولة الوصول إليها

أما السمة الأخيرة فهي سهولة الوصول، يكون المستخدم دائما، في أي مكان في العالم، وفي أي وضع كان على بعد نقرة واحدة من سوق ضخمة مملوءة رفوفها، لا يعلم أولها من آخرها. بينما كان الوصول إلى مثل ذلك المحتوى قديما يمر بمراحل عديدة، ويحتاج في كثير من الأحيان إعلان الرغبة من طرف الشخص، بينما تواجهك اليوم الصورة الخادشة

والإباحية الصريحة وتحاصرك أينما حللت وارتحلت في قاعات وغرف العالم الرقمي. حتى أدركت بعض الدراسات أن عمر التعرض الأول قد بلغ الآن سنّ السادسة!

كيف تؤثر مشاهدة الإباحية على مستهلكها؟

تحفز المشاهد الإباحية -كما المخدرات المسببة للإدمان- مركز المكافأة في الدماغ، ليقوم بإفراز الدوبامين بشكل مبالغ فيه، دافعا الإنسان إلى ممارسة سلوكه المتكرر، لتغمر عقله مشاعر السعادة والتعزيز الإيجابي. هذا الأمر يخلق حلقة مغلقة تقود نحوالتصعيد والبحث المستمر عن الطرق الأسهل لإعادة إثارة ذلك السيل من المواد الكيميائية التي تصنع النشوة والسعادة في دماغ الإنسان

إن التحفيز المستمر لدائرة المكافأة تلك بالتعرض للمشاهد الإباحية يسبب تشوهات مستمرة لتصور الفرد للعالم من حوله. لتصبح العديد من العناصر والمواقف اليومية، وربما الروائح والصور والأماكن، محفزات تؤدي إلى زيادة الرغبة. بإمكان الإباحية تحفيز مستهلكها لتكرار هذه الدائرة باستمرار إلى ما لا نهاية، لأنها متاحة مجانا وبوفرة على بعد نقرة واحدة

هذا التكرار المستمر يخلق مسارات داخل الدماغ تؤدي إلى الرغبة الشديدة، لتدفع هذه الرغبة باستمرار صاحبها للبحث لفترة أطول وانغماس أكبرعن النشوة الأولى.

إحدى الآثار المدمرة لإدمان الإباحية على الدماغ هي القصور الجبهي. قشرة الفص الجبهي للدماغ مسؤولة عن عمليات ذهنية أساسية، مثل كبح الرغبات والدوافع، التخطيط والتنظيم واتخاذ القرارات. يظهر هذا القصور جليا في انخفاض قدرة الشخص على اتخاذ القرارات السليمة، وضعف القدرة على تفضيل العمليات الذهنية المُتطَلِّبة، مثل أفعال القراءة والتحليل

والاستنتاج، على التوجه نحوالسلوك الإدماني، من أجل الحصول على المتعة الفورية

تخلق السلوكات الإدمانية حالة ذهنية خاصة، وتشوها مستمرا لتصور العالم، لتشكل حالة من التمركز حول المخدر، فيصرف مدمن الإباحية كل قدراته الذهنية في محاولة الحصول على نشوته القادمة. ليتأثر بشكل عميق وجلي أداءه وقدرته على القيام بالعمليات الذهنية. أجريت إحدى الأبحاث على مجموعة من طلبة الجامعات، وجدت علاقة مباشرة بين زيادة استهلاك طلاب الجامعات للمواد الإباحية، وانخفاض بذل الجهد في الواجبات والوظائف الدراسية

إضافة لكل تلك الآثار السلبية، فالانغماس في مشاهدة الإباحية يسبب صرفا مستمرا لأوقات طويلة، قد تكون ساعات مطولة بشكل يومي أوشبه يومي، مع ما قد يصاحبه من اضطراب في النوم، يلقي بظلاله على الحياة اليومية لمدمن الإباحية، بسبب انخفاض القدرة على الانتباه والتركيز

إن ما توفره المشاهد الإباحية من صور متتابعة متسارعة، تجعل الإنسان في تعرض مستمر للصور، غير قادر على الحصول على فرصة توقف من أجل محاولة الفهم.

خاتمة

يتطلب الاهتمام الأمثل بالشأن الفكري قدرات ذهنية ومعرفية، وسلامة نفسية واجتماعية للفرد، من انتباه وتركيز وذاكرة سليمة، إلى التزام مستمر وتفرغ، وقدرة عالية على ضبط النفس والتحكم فيها أمام كل ما يشتتها ويحول بينها وبين مرادها، مع علوفي الهمة، ورغبة عالية في إنجاز أمر ذي أثر، في عصر كثرت فيه المشتتات والملهيات، وضعفت فيه النفوس أمام كل جهد مهما بلغ قدره

ومن بين الظواهر التي نتجت عن الثورة الرقمية: إدمان الأنترنت، بأشكاله المتعددة، ومنها إدمان مواقع التواصل الاجتماعي والمواقع الإباحية. هذا الإدمان الذي ترتفع نسبه ووقعه على المجتمعات يوما بعد يوم، مدفوعا باستغلال الشركات الرقمية والشركات المنتجة للمحتوى الإباحي لمخرجات علم النفس السلوكي، كما فعلت شركات القمار قبلها، من أجل تجسيدها في منتجاتها، لتكون أقدر على جعل الإنسان الذي يتعرض لها يقع في إدمانها في أقصر وقت ممكن

يرى مايكل سكولسن Michael Schulson أنه من غير العدل تصميم أدوات من أجل إيقاع الناس في إدمانها، ثم يتم إلقاء كل اللوم على الأفراد. فمن الصعوبة بمكان الوثوق بالإرادة الفردية من أجل الوقوف أمام أدوات ذات جذب عال. فالملوم الأول هنا هي الشركات الرقمية التي تحاول تطبيق مبادئ التصميم بعناية من أجل خلق الإقناع والإدمان. «هناك فرقٌ بين ما نريده وما نحصل عليه. ندخل الإنترنت بحثًا عن التّرفيه والاتّصال والمعلومات، وعادةً، نريدُ أن نسهو، ويبدوأن الشّركات جيدة جدًا في تضخيم هذه الغاية: بأخذ ما نريدُ، ومنحنا شيئًا أكبر بقليل؛ إنّه الفرق بين الرّغبة في الاتّصال بالفايسبوك لمدة 10 دقائق والبقاء هناك لمدة 30 دقيقة!»

إلى حين تحقيق التيار النقدي لتقنيات الاتصال والتواصل الاجتماعي والصناعة الإباحية بعضا من نتائجه واقعا، تقف مسؤولية رفع الوعي بهذه التقنيات وآثارها السلبية على المثقفين والمتخصصين، مع التوجيه نحو السبل الأنسب لتحقيق الفائدة القصوى من التواجد الرقمي، واجتناب الوقوع في الإدمان.

"وكما في أي عقد، هناك توازن للقوة. فإذا كانت بنية الويب اليوم، عبارة عن أي إشارة، فإن هذا التوازن يميل نحو المصممين. الأمر يستحق أن نعير المزيد من الاهتمام لمن نعيرهم انتباهنا، إلا إذا أردنا أن نواصل النقر هنا وهناك كحمام سكينر.»

مراجع

كتب

- حضارة السمكة الحمراء، برونو باتينو، المركز الثقافي العربي 2021.
- عادات ذرية، جيمس كلير، منشورات الرمل 2019.
- الماجريات، إبراهيم السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع 2015.
- الدماغ وكيف يطور بنيته وأداءه، نورمان دويج ، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2009.
- دماغك تحت تأثير الإباحية، غاري ويلسون، كومون ويلث للطباعة والنشر، 2014.
- Hooked: How to Build Habit-Forming Products, Nir Eyal, 2013.

مقالات

- تقرير إحصائيات استخدام الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي في الجزائر لسنة-2024-
- من صندوق سكينر إلى تحديثات فيسبوك، فهد الحازمي، موقع ثمانية.
- حُمّى الترينداتِ.. كيف تقودنا التفاهة للصراع بدلا من المعرفة؟. سامح عودة.
- سُلوكُ المُستخدِم: التّطبيقاتُ والمواقعُ الإلكترونية مصمَّمةٌ لخلق اللاقدرة على المقاومة وحتّى الإدمان. مايكل سكولسن. موقع أثارة.
- Cognitive Biases — Unit Bias, Michael Gearon.

تعقيبات الجلسة الثالثة:
الشأن الفكري في المجتمعات الحديثة

افتتح التعقيب الدكتور عمار جيدل بالتأكيد على ضرورة تحديد نمط ونوعية الدراسة في المداخلات الثلاثة، هل هي دراسات نظرية، أم وصفية أم ميدانية أم دراسات عينة؟ وذلك لمعرفة زوايا التقييم، فطبيعة الدراسة داخلة ضمن معايير التقييم

ومعقبا على مداخلة الإدمان وتأثيره على قدرات الفرد، أشار الدكتور إلى ضرورة ضبط المصطلحات التي يكون عليها مدار الدراسة: ما المقصود بالقدرات، هل هي القدرات الإدراكية أم القدرات الفكرية للفرد؟ وذات الملاحظة بالنسبة لصاحب المداخلة الأولى: أي إنسان وأي هامش؟ الفردانية التي تكوِّن الإنسان بناء على حريته؟

وفي الحديث عن العولمة والتي وصفها بالجبرية الجديدة وذلك في مقال نشره في بغداد عام ٢٠٠٣ بعنوان «العولمة جبرية جديدة» ومحاولتها نمذجة العالم، تسائل عن الطور الذي نحن فيه الآن: هل هو طور مقاومة؟ أم طور تكيف؟ وإذا كان طور تكيف فماهي مقتضياته؟ وماهي مستوياته «مستوى مقاصدي أم وسائلي»؟ وكيف السبيل إلى الدخول في هاته السياقات التي يفرضها الغرب دون صدام معه ومع المحافظة على خصوصيتك ؟

تعقيبا على المداخلة الثانية «الاهتمام بالشأن الفكري والصناعة الإعلامية» أشار إلى أهمية الأخذ بسننية التغيير وفق الشروط الزمنية حتى لا نصطدم بجدار الواقع، فلا يمكن أن يطلب الإنسان الكل في وقت لايمكن أن يحقق فيه الكل، فبالحديث عن الإعلام والإكراهات الفكرية قال: «نحن نثمن الموجود ونطلب المفقود بتلطف» أي دون اِصطدام بالقوة المزاحمة وذلك ليس من باب الخوف ولكن حفاظا على الفعالية الاجتماعية وتحريرا لمساحة إضافية للفعل، حتى نحافظ على الفكرة حية في الضمير الجمعي «غرس فسيلة في الوقت الصحيح والمكان الصحيح»

أما الدكتور نور الدين بكيس فقد ركز في مداخلته على فكرة أن

المجتمعات ليست مسلوبة الإرادة وأنها حاضرة وتمارس انتقائية ونقداً على المنتوج الذي يعرض لها، حيث أننا نجد المجتمعات في المدن الكبرى في الجزائر هي مجتمعات محافظة الكثير منها لا يزال يحتفظ بثقافته التقليدية ولم ينصهر في النموذج الغربي الذي يطرح عليه. ما يضعنا اما مسؤولية القيام بمجموعة من المراجعات لتدعيم الذوق الاجتماعي الهادف الذي يصنع المحتوى وإعطائه قوة ووسائل من أجل المنافسة والتجاوب بدل ممارسة الوصاية على المجتمع الغائب عن ساحة الفعل

نبّه الدكتور، كذلك، إلى ضرورة التجرد من الذاتية لممارسة البحث «التخلص من قبعة المناضل العصامي الذي يريد الدفاع عن مشروعه»، فلا ينتقي الباحث الأفكار التي تثير إعجابه، أو ينطلق من النتائج المراد الوصول إليها للدخول في موضوع الدراسة وفقا لذلك، وإنّما على الباحث أن يتَّبِع منهجية معينة في البحث العلمي تنطلق من اكتشاف ومعرفة الواقع على حقيقته رغم صعوبة العملية وذلك لتضييق وتقليل مساحات الخطأ للوصول إلى جزء من الحقيقة وحتى لا تكون المساهمات الناتجة مجرد ردود أفعال للدفاع عن مقدسات لا مبادرات منظمة.

ختم الدكتور كلامه بمجموعة من التساؤلات حول العوامل التي جعلت المثقف الشبكي أقوى وأكثر تأثيرا من المثقف الأكاديمي؟ هل المشكل يتعلق فقط بالمتلقي وأنه يمتاز بهذا القدر من اللامبالاة؟ سمات الخطاب الحالي وقدرته على التأثير والتكيف مع التغيرات والتحولات؟

بعد أن أتَم الأساتذة الكِرام تعقيباتهم وإضافاتهم القيمة التي ساهمت في إثراء مسرى النقاش، حاول طالب الدكتوراه [نبيل دردار] الإجابة عن بعض التساؤلات التي طُرحت بما يخدم السياق العام للجلسة :

بدايةً، فيما يتعلق بالمصطلحات فإنّ المداخلين حاولوا استخدام مصطلحات دقيقة ذات دلالة معينة، فكما يذكر المناطقة في مبحث الحد، فالمصطلحات

المستخدمة هي عبارة عن مجموعة معارف ومعانٍ ذات حمولة دلالية، علمية خاصة نختصرها في مصطلح يجمع تلك المعاني ويمنع دخول غيرها فيها.. فهي للدقة والتمييز بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى أنّها ليست مصطلحات ذات مرجعية ذاتية بل هي مصطلحات مستخدمة ودارجة ضمن حقول دوائرها المعرفية

أما في ما يتعلق بتحديد نوع الدراسة ونمطها، فإنّ الطرح في المداخلة يختص إشكالية معينة متعلقة بظاهرة خاصة ونحاول الإجابة عنها من خلال تحليل تلك الظاهرة وتفكيكها ومحاولة الوصول والكشف عن أسبابها الحقيقية (الموضوعية) مستدلين في ذلك بالدراسات الميدانية التي تعضد طرحنا

كذلك أشار أنّه من الواجب محاولة إصلاح ما نراه انحرافا في المجتمع، فهذا ما تتطلبه المسؤولية الأخلاقية، فعلينا أن نفرق بين الوصاية كنوع من محاولة فرض آراء ووجهات نظر خاصة للسيطرة على المجتمع وبين المسؤولية الأخلاقية اتجاه المجتمع

ختاماً، وفي سياق الحديث عن العقلانية والوعي الذي يمتلكه الأفراد ضمن المجتمع... الطبيعي أنّ البشر يمتازون بعقل ووعي يسمح لهم بممارسة حياتهم بحسب ما تقتضيه مصالحهم (بغض النظر عن نوعية تلك المصالح)، ولكن هل تلك العقلانية وذلك الوعي كافيان أو هل هما ما سيسمحان لذلك المجتمع بإنتاج حركة حضارية؟ فالحديث ليس عن وجود عقلانية ووعي بقدر ما هو حديث عن نوعية تلك العقلانية وما تتطلبه لإنتاج حركية حضارية.. وكتساؤل ملخص عن المجتمع، أجمل طرحه بسؤال: هل المجتمع فعلا بخير؟ وهل المجتمع محافظ حقيقة على قيمه ومبادئه؟

كلمات عن
ملتقى مجالس

كلمة الأستاذ. مختار الأخضر الطيباوي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

كثير منا يرثى قلة اهتمام شبابنا اليوم بالتفكير المسهب لأننا في مجتمعات لا يوجد في وسطها العلمي سوق للمواقف البينة القائمة على مقدمات واضحة وعلى استدلال صارم، فغالب نقاشاتنا تدور على استراتيجيات خطابية تعاني من الضعف الاستدلالي، وغياب النقاش الواقعي بالتحقق الصادق والدقيق للمواقف المتعارضة حول مسألة ما

وعلى غير العادة المألوفة وجدنا شباب «مجالس» بحسب «ديباجة الملتقى» وأوراق بعض المشاركات لم يختر الأهداف السهلة على حساب نقاش معقد ومع ذلك كان الطرح راقيا فقد تبين من المشاركة أن التحديات التي تضمنتها «الديباجة» لم تكن مجرد ادعاءات سفسطائية

وإذا كان التفكير العلمي يستلزم حركة في الفكر تتقدم به، وتقود إلى تجلية الحقائق الشرعية أوالواقعية باحتجاج صارم فإن الساحة العلمية عندنا تعاني من الهذرمة وغمر الموقف المخالف بالانتشار بعيدا عن جوهر الموضوع، وبإغراق المقدمات البينة والحقائق البديهة الواضحة في سيل من الكلمات، فقلما يكون نقاش الأطروحات صادقا صارما

بالنسبة لي لقد احترم شباب **«ملتقى مجالس»** إلى حد ما تعقيدات الموضوع الفكرية والواقعية، وتحدياته، لم يهتموا بالجوانب التي تساعدهم فقط، ولا تعسفوا في تعميم الأسباب والعلل، والذي يسلب الموضوع مضمونه أويصوره بطريقة موجهة.

معلوم أن احترام الوقائع كما هي، واستعمال منطق أرجح الأدلة لا يخدم المصالح الشخصية وهذا ما لم نلمسه في هذه المبادرة التي تجاوزت هذا المرض الذي ينخر نخبنا المختلفة فنسال الله ان يجازي هؤلاء الشباب

على هذا العمل الرائع، وأن يعينهم على مواصلته بكل قوة

أرجوأن يكون لهذا الشباب المثقف استعداد لمراجعة جزء من مواقفهم إذا ما نبهوا بقوة تدليلية حقيقية، والتي أقدر أنها غابت عن أكثر النقاشات التي أعقبت مشاركات الأفاضل، فإن الحرص على النظر الجاد في أفضل الأدلة المضادة لموقفنا ليس فضيلة أخلاقية فحسب ولكنه أيضا فضيلة علمية تعني استعداد العقل الذي يصبوبفطرته إلى الحقيقة لقبولها.

وقد يظهر لنا الاتقان والصواب من خلال مستوى صياغة قناعاتنا وأحكامنا الصياغة اللغوية والتنضيد الفكري ونكون في الحقيقة معرضين للخطأ بالنظر إلى الحجج المقابلة عندما نصطدم بأدلة الغير حيث نكتشف أن وجهة نظرنا كانت محدودة وربما مغلوطة لأن طبع الإنسان هوأن يجتهد في الاحتجاج لقناعته أكثر من احتجاجه للنقد الذاتي

إن انفتاح العقل والتواضع العلمي ضرورة في حصول التوفيق لأنه متى منعتنا قناعتنا من إعادة فحصها فإننا نتخلى بالضرورة عن توسيع حدود فكرنا

ووحده هذا العقل المؤمن يقترح قضايا أصيلة تحمل المعاني الواضحة الهادية إلى سواء سبيل.

لقد دار الكلام عن موضوع «**عزوف الشباب عن الشأن الفكري وعلاقة ذلك بمستقبل النخبة ودور مراكز التفكير في استنهاض الأمة**»، وهي موضوعات مهمة بالغة الدلالة على واقع الحال لكنها في نظري ليست أسبابا بل نتائج لأسباب أخرى أعمق لا يسمح البراديم الفكري المعاصر، ولا في مقدوره الوقوف عليها فشبكة قراءة الواقع التي تزوده بها العلوم الإنسانية عمياء عن هذه الأسباب، وسقفها المعرفي لم يبلغها، غاية ما قد يقف عنده إذا وجد تحليلاته عقيمة رد الأمور إلى الحتمية!

لا شك أن أمتنا لا تعاني من عجز في عدد الأطباء والمهندسين في مختلف حقول العلوم الطبيعية ولا الأدبية أوالقانونية ولا في العلوم

الإنسانية، ومع ذلك تعاني على المستوى المادي ما يعني أنها تفتقد إلى عامل آخر كان دائما هوالسبب وراء قوتها وازدهارها ليس هوالنخبة الفكرية ولكنه نخبة العلم والإيمان، أهل العلم والإيمان الذين لا يفصلون بين العلم والعمل، بين العلم والايمان، فعلمهم غير مفصول على مستوى النظر العقلي عن الايمان، وغير مفصول على مستوى السلوك الفردي والمجتمعي عن العمل والأخلاق

هذا هوالفاصل الفرقاني بيننا وبين الغرب فنحن لا يصنع عندنا المفاهيم وينشئ التصورات ويؤصل الكليات المفكرون أوالمثقفون كما في الغرب حيث منذ تشبعوا بالعقلية الهيلينية فصلوا بين مصادر التلقي الدينية عندهم ـ وهي هشة قاصرة ـ وبين صناعة المفاهيم التي علمنت فغلب عليها التحليل المادي الذي يرد كل إشكال مجتمعي أواقتصادي إلى سبب حضاري، أوفكري أوسياسي مباشر

فهذا الطرح يعود إلى براديم مادي بدأ يتفتت فالنقل عن فلاسفة وعلماء اجتماع كتبوا عن الحضارة الغربية في زمن عزتها صار اليوم يتلاشى تحت وقع أزمة الماديات ونهاية فترة الوفرة المادية والرفاهية المادية وتغوُّل التحرر الفجوري

عندما يكون بلد ما مثلا الدول الأوربية يعيش في الوفرة الاقتصادية يعرف الاستقرار ونسبة مقبولة من العدالة الاجتماعية يمكن أن تقول: إن الفتات يصل الشعب بغض النظر عن نوع النظام السياسي الذي يحكمه حتى ولوكان شموليا وفيه استئثار بالمال العام، خاصة إذا كان في الحكم رجال فيهم بعض النزاهة

لكن عندما يضطرب ما يسميه الانجليز «خط الخبز» يعني في الأزمة الاقتصادية فإن الاضطراب يمس كل المجالات ويفشوالظلم وتظهر الفاشية والعنصرية والمناطقية

وكذلك بغض النظر عن نوع نظام الحكم لأن كل هذه النظم السياسية والمجتمعات قامت على رؤية مادية للحكم والسياسة، بعيدة عن أولوية المبدأ على المصلحة المادية.

وعندما تبنى السياسة على الرؤية المادية تصطبغ به يوميات الفرد والدولة على حد سواء فإن نهاية مطاف هذه الأنظمة: خصخصة موسعة، تآكل الهويات الاجتماعية، استياء ومجافاة ايديولوجية وسياسية، لا استقرار متسارع للشخصيات، اندثار المفكرين الحقيقيين

التحور التاريخي الناشط اليوم فينا هوتعظيم عالم الأشياء والصور والقيم الهيدونية (الشهوانية) وبسيكولوجيا مرتبطة بها ولدت تفسخا أوتناقضا سلوكيا وطفوا نظاميا لدائرة الخصوصية والفردانية

مع أهمية العلوم الطبيعية والتفكير في شروط الحضارة في الأحوال المادية للمجتمعات والامم إلا أن العلم الذي تكمل به النفس ويصلح به المجتمع والدولة والأمة هوالعلم الإلهي والعمل بموجبه

والأمة الإسلامية بدون تحقيق هذا العلم لا سبيل لها لأي ازدهار حقيقي لأنه العلم الذي تؤدي به وظيفتها فأي تحليل لا يأخذه في الحسبان هوتحليل علماني مادي لا يفعل سوى مضاعفة أمراض الأمة وزيادة هوانها

لا يجب أن يكون طلبنا للمعرفة المادية أعظم من طلبنا للعلم الإلهي، ولا أن يكون حرصنا على العمل لتحقيق نهضة مادية أعظم من عملنا لله تعالى، فنحن لسنا كبقية الأمم نخضع لنفس القوانين الكونية في كل شيء بل قد خصصنا بسنن كونية نظير تخصيصنا بوظيفة رسالية خاصة فكما في قوله صلى الله عليه وسلم:" أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا: الفتن والزلازل والقتل»

وهذا الحديث حسن عند السفاريني (شرح ثلاثيات المسند) وصحيح عند الألباني (صحيح أبي داود) وضعفه بعضهم واستشكله آخرون

وفسره القاري في «المرقاة» بان الأمة هنا امة الإجابة، والرحمة زائدة على سائر الأمم ونفي العذاب عنها في الآخرة المقصود منه نفي شدته لأن غالب عذابها في الدنيا بالمحن والبلايا

ولهذا الحديث علاقة بالحديث الآخر:" سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها» صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (2890)، (4 / 2216)

والمقصود أنها خصت بسنن دون غيرها في باب العقوبة والعذاب، وهي فعلا مرحومة في الآخرة، فهي أول من يحاسب فلا تمكث في المحشر مثل غيرها، وهي أول من يجاوز الصراط وأول من يدخل الجنة، وهي أكثر الأمم صفوفا يوم القيامة، وأكثر أهل الجنة، وخصت بأنواع من الشفاعة أعظمها شفاعة نبيها، فهي بدون شك مرحومة في الآخرة بالنظر إلى غيرها من الأمم.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم:" يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا" قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ:" أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ" . قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:" حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" وفي لفظ «كراهية القتال» أحمد وغيره بسند صحيح

هذا الحديث وغيره يفيد أن لغوس الأمة أي: المبدأ الذي تفسر به الوجود وكل ما يتفرع عنه هوحب الآخرة والعمل لأجلها بأداء الوظيفة الرسالية المتمثلة في تبليغ الإسلام والدفاع عنه

نفس المبدأ نجده في أحاديث البيعة، ما يفيد بانها خصت بأحكام كونية ربطت بوظيفتها الرسالية

جاء في الحديث الصحيح:" إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» أبوداود في السنن.

ومعلوم أنه لابد لكل الناس ولكل المؤمنين في أي زمان كانوا من اتباع أذناب البقر أي: من ثروة حيوانية من بقر وإبل وغنم وماعز وخيل وغيرها، ومن ثروة فلاحية، ومن تعاملات تجارية وبيوع واقتصاد، فحياتهم لا تقوم إلا بذلك فلزم أنه قصد بالعينة ترك الاحتكام إلى شريعة الله، وفشوالمعاملات المحرمة، وبالتالي أكل الحرام الذي هوالسبب في ظلمة الأمور على القلب والتيهان الفكري

واختيار «بيع العينة» ـ وهوربا كناية عن البيوع المحرمة ـ إشارة إلى تجارة هذا العصر الغالب عليها المتاجرة بالكلام اوكسب النقود من غير بضاعة عينية كما في البورصات والبنوك وغيرها حيث كسب المال من قرض المال، اومن مجرد إيداع المال، ومن بيع ما لا يملك، اوتملك البضاعة بدون نقود نسيئة وبيعها بنقود حاضرة وهكذا أمور صبغت هذا العصر في التفكير والتجارة والعلاقات الإنسانية بالدجل أي الكذب المموه

والإشارة إلى البقر والرضا بالزرع إشارة إلى الركون إليها يعني: إلى الركون إلى الدنيا ومحبتها فوق محبة الآخرة، ويمكن أن نفسره بالاصطلاح المعاصر فنقول: طغيان الرؤية المادية للدنيا وملذاتها مع ترك الوظيفة الرسالية التي يمثلها الجهاد، وهوذروة سنامها

والجهاد كلمة تشمل استخدام كل وسيلة مشروعة بالضوابط الشرعية والأخلاق الإسلامية للقيام برسالة الإسلام

فإذا تغير اللغوس من تقديم الآخرة على الدنيا إلى الرؤية المادية التي تقدم الدنيا على الاخرة وقع التغيير السلبي وسلبت الأمة عزتها لأنها فقدت شروط انبثاقها وعزتها

وقد حسم هذا النص بأنه لا سبيل للعودة للنهضة، للازدهار، للقوة حتى تعود الأمة إلى لغوسها الذي أعطيته بالوحي

وعليه فأي تحليل انثروبولوجي اجتماعي مجرد عن هذا المبدأ (اللغوس) لأسباب عزوف الشباب عن الفكر، أولمشاكلنا الحضارية أوالسياسية بآليات البراديم الغربي ليس إلا إضاعة للوقت وتفاقما لمشكلاتنا

وبخصوص القراءة فإنها وحدها ليست ما يشكل وعي الفرد إن لم تكن قراءة هادية لنفس سوية تستمد التوفيق والصواب، والإلهام الصادق من الله تعالى.

فكمال الأمم ليس في المعرفة المادية، ولا في السلطان والقدرة والتصرف في الطبيعة، وإنما كمال الإنسان في عبودية ربه كما أمره، فهذا الذي زكَّي نفسه وكمَّل القوة العلمية النظرية بالإرادة الصالحة والعمل الصالح كما قال تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} [ص] وصفهم سبحانه بالقوة في العمل والبصيرة في العلم، ولا بصيرة إلا بموجب العلم الإلهي النافع،وأصل قوة العمل قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر،فالعلم الإلهي النافع أصل الهدى، والعمل بالحق هوالرشاد، فقوة العلم والنظر والبصيرة من قوة العبادة، وقوة العمل لأجل الله في كل الحقول من قوة العبادة وقوة البصيرة

وعليه فنحن لا نحتاج إلى تحليلات علماء الاجتماع وغيرهم لأسباب انهيار حضارتنا ومشاكل دولنا ومجتمعاتنا إذا كان الوحي أخبرنا بها قبل أن تقع، ووصف لنا واقعنا المعاش الآن بدقة، ودلنا على المخرج الأمثل والحل الوحيد

لقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم حال المسلمين المتأخرين وذكر سبب اختلافهم عن المتقدمين كما جاء في قوله:" نجا أول هذه الأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ وَيَهْلِكُ آخِرُهَا بِالْبُخْلِ وَالأَمَلِ» (حسن) انظر حديث رقم: 6746 في صحيح الجامع قال في الصحيحة: وابن لهيعة ثقة، لكن قد

عرض له سوء الحفظ؛ فحديثه حسن على الأقل بما قبله، وقد أشار إلى ذلك الحافظ بسكوته عنه في «الفتح» (237/11)

وفي قوله الآخر عن عبد الله بن عمروبن العاص أنه قال :" إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى مَا يَعْلَمُهُ خَيْرًا لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ مَا يَعْلَمُهُ شَرًّا لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَتْ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَإِنَّ آخِرَهُمْ يُصِيبُهُمْ بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، ثُمَّ تَجِيءُ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وَهُوَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ» ابن ماجة ومسلم

وبهذا يتبين أن الفارق بين أول الأمة وآخرها هوقوة الديانة علما وعملا، ومن علم بهذه النصوص ونظر فيها بقلبه يستغرب ممن عرف نبيه وآمن به كيف يطلب فهما لأسباب خذلانه وضعفه وهوانه في غير أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يجعلها منطلقه وأساس نظره وبعد ذلك إذا نظر في أقوال من لا مكان للأنبياء في نظرهم وتفكيرهم لم يضره ذلك

عند نخبة العلم والإيمان ـ النخبة الحقيقية في أمتنا ـ فإن قطب رحى الدين يدور على التوحيد وقطب رحى المجتمع يدور على طاعة الله ورسوله، وكل تنظير أوتأصيل لا ينطلق من الرؤية الوجودية التي زودتنا بها الشريعة فإنه تأصيل غربي مادي يدور على نفسه، ولا يقود إلى تغيير حقيقي.

وعلى هذا فإن غياب التأصيل الشرعي للماجريات الكونية والوقائع الاجتماعية هونقص وتقصير منا مرده عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها من الإحاطة والفهم فلم تعد لذلك بالضرورة تغطي هذه المجالات فإن فهم الواقع فهما وصفيا ـ وهوما يمتاز به التفكير بالنمط الغربي إذ توفر العلوم

الإنسانية شبكة لقراءة الواقع قراءة علمية ـ غير كفيل بتغييره إن لم يقترن بفهم شرعي مطابق

وفي تقديري فإن المشاركات التي اطلعت عليها كانت ممتازة في وصف الواقع الفكري في أمتنا وتتبع أسبابه المباشرة، والتي ليست في حقيقتها إلى مظهرا جزئيا لمظهر كلي أوأكبر

ألم يتحدث القرآن والسنة عن أسباب عزة الأمم وذلتها، عن أسباب الرفاهية والمعاناة، عن رسالة أمة الإسلام، عن شروط انبثاقها الأول؟

والمقصود أن التحليل يمكن أن يذهب في اتجاه تعليل غياب الحضارة الإسلامية بغياب التفكير العلمي، والذي بدوره يكون بسبب غياب النخبة المفكرة الملتزمة، وغياب هذه الأخيرة سببه غياب الدولة الراشدة، وهكذا

والملاحظ ان كل هذه الأسباب أسباب فرعية وعلل ثانوية لسبب أعظم هومن خصائص هذه الأمة بحكم الرسالة التي كلفت بها حيث قرنت النصوص بين عزة الأمة وقيامها بواجب الرسالة وجعلت ذلك شرطا وجوديا ضروريا لعزة الأمة

قال النبي صلى الله عليه وسلم:" وجعل الذل والصغار على من خالف أمري" علقه البخاري، ويشهد له قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً} [فاطر]

قال ابن القيم: أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح

وقال بعض السلف:" الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله"

وقال الحسن:" وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه". إغاثة اللهفان.48.

وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه، ولا يذل من والاه الله، كما في دعاء القنوت: «إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} [المجادلة]

وقال: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف]

وأيضا: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة]

هناك مشاكل لا يمكن حلها بالمبادئ الديمقراطية فالديمقراطية لها ثمن إدراكي معرفي باهض يجعلها فكرة مستحيلة الانجاز، وأهم من ذلك ثمنها الأخلاقي (نزاهة المسؤول واستقامة المواطن والوعي بمسؤوليته)، والمصيبة أنه لا يوجد بديل عن الظلمة السياسية، ولا يمكن للأعمى أن يرمي عصاه التي يتلمس بها الطريق! انظر"الجمهور الشبح" والتر ليبمان

عندما يحاول الإنسان إصلاح أوضاعه دون أن يصلح نفسه أولا يراوح في مكانه بل كلما تحرك خطوة للأمام رجعة عشرة للخلف وقامر بالنزر اليسير الذي عنده {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}.

وأعظم مصيبة أن يظن الناس أن التديُّن الروتيني، والتعبُّد بالعادة ـ فضلا عن البدعي ـ سيُغيِّر أحوالهم، أويعصمهم من سنن التاريخ وعقوباته!

على قول ليبمان: عندما يعيش الناس في وهم سياسي [سببه غياب رؤية عقدية سوسيوانثروبولجية] فإنهم يجربون كل شيء، كل أشكال الأنظمة لكن بدون نتيجة ثم يهربون إلى الرجعية أوالثورية إلا مراجعة مقدمات فكرهم السياسي فإنهم لا يقومون به

هـذا الخطـاب الـذي يـرد تدهـور أوانحطـاط الأمـة ماديـا إلـى أسـباب حضاريـة، ومعرفيـة ماديـة وسياسـية متكـرر كثيـرا لـدى النخـب العلمانيـة والإسلاميـة كلا بلغتهـا ومصطلحاتهـا يقـوم علـى نقطتيـن:

الأولـى: مشـكلة الأمـة فـي غيـاب حضارتهـا وريادتهـا، وبالضـرورة مفهـوم الحضـارة هنـا يأخـذ بعـد القـوة الماديـة، وغيـاب المعرفـة التـي ينتجهـا الفكـر المؤسسـاتي الـذي يصنـع الحضـارة.

الثانيـة: مـرد عـدم تحضـر الأمـة، اوعـدم نخبـة رائـدة هوغيـاب الدولة المناسبة.

والحديـث عـن الأمـة هنـا باعتبارهـا كيانـا انتمـى إليـه، لا يوجـد إشـارة إلـى مقومـات الأمـة التـي منهـا نشـأت وبهـا تحضَّـرت، ومـدى بعدهـا عـن هـذه المقومـات والـذي هومربـط الفـرس

وهـذه الرؤيـة غربيـة محضـة، والتفكيـر غربـي، وبراديمـه غربـي، فقـط المتحـدث مسـلم الانتمـاء

لهـذا يكـون مـن الضـروري الحيـوي بالنسـبة لنـا الحـرص علـى مراجعـة منهجنـا المعرفـي وبراديمنـا فإنـه بـدون ذلـك سـتذهب جهودنـا هبـاء فـإن قـوة الإبصـار مـن أصالـة البراديـم وقـوة ارتباطـه بمـا بعـث بـه النبـي صلـى الله عليـه وسـلم، فبـدون البراديـم الإسلامـي الأصيـل أوبتعبيـر سـلفنا طريقـة الأنبياء ومنهجهـم حتـى النصـوص سـنقرأها قـراءة خاطئـة أولـن تعصمنـا مـن البدعـة والانحـراف والـضلال عـن سـواء السـبيل لأن البراديـم المحـرف سيسـلط عليهـا التأويـل والتعسـف

فيمـا يخـص لغـة «الديباجـة» وبعـض المشـاركات فهـي راجعـة لطبيعـة الشـباب الـذي فـي هـذه الفتـرة العمريـة ينبهـر باللغـة الفكريـة الفلسـفية ورونقهـا وتعقيداتهـا اللفظيـة، وتغلبـه ثقافتـه المعاصـرة مـع عـدم عنايـة كافيـة باللغـة العلميـة الإسلاميـة التـي امتـاز بهـا علمـاء الإسلام، والتـي اسـتمدوها مـن بلاغـة القـرآن وفصاحـة الأحاديـث النبويـة والتـي تسـتعمل الاصـطلاح الفقهـي

والأصولي الإسلامي، وهي ثمرة المطالعة والبحث في العلوم الإسلامية، فهذا امر يتحسن مع الأيام

لكن لا يجب أن نغفل عن حرب الكلمات فالمصطلحات ألوية الكتائب، واللغة الفلسفية والفكرية المعاصرة تطمس الهوية اللغوية، وهي ليست لغة معدة لتسهيل التواصل وتعميم المعرفة

ولا أجد مانعا من المزج بين اللغتين إذا كانت الأصول والكليات إسلامية.

كلمة الدكتور. محمد عبد النور

علـى هامـش منتـدى مجالـس.. جـدل المثـل الفكرية-الخلقيـة والهويـات الطبيعيـة فـي الجزائـر..

بدايـة، فليسمح لـي الإخـوة فـي «منتـدى مجالـس» مشـاركتهم البحـث فـي إشـكالية «عـزوف الشـباب الجزائـري عـن الشـأن الفكـري»، -التـي تعـذر علـيَّ تلبيـة الدعـوة للحضـور الفعلـي فـي ندوتهـا- مشـاركة افتراضيـة تكـون تعويضـا عـن الغيـاب، وكـذا -وهوالأهـم- إسـهاما فـي النقـاش وإثـراءً لـه، وهـذا مـن بـاب الواجـب الفكـري والأخلاقـي، ولأن فـي مبـادرة «مجالـس» مـا يبشـر بخيـر ثاوبيـن جنبـات المجتمـع فـي هـذا الوطـن الفسيح... لأدخـل فـي عـرض فكرتـي مباشـرة، مـن المهـم أن نسـأل بدايـة عـن المقصـود بالشـأن الفكـري؟ وهـل أن العـزوف عنـه أمـر حاصـل فـعلا لـدى الشـباب الجزائـري؟

مـن بيـن الـدلالات التـي قـد تشـير إليهـا عبـارة «الشـأن الفكـري» الانشـغال بقضايـا الشـأن العـام الواقعيـة والفكريـة، كالتـزام أخلاقـي ومحاولـة ارتفـاع إلـى مسـتوى الأفـكار، بـدل الانهمـاك فـي شـؤون الحيـاة الماديـة الفرديـة والانغمـاس فـي متـع الترفيـه التخديريـة وتناسـي المشـكلات الحقيقـة التـي تواجـه الإنسـان الجزائـري، ولهـذا أهميتـه فهـي تجعـل الإنسـان دائـم السـؤال والبحـث، وهـذا مـا يمنحـه أفقـا للرؤيـة وانفـكاكا عـن الماديـة الصرفـة والإخلاد التوثينـي للحاصـل مـن الوقائـع الماديـة والرمزيـة[1].

أمـا عـن معنـى ودلالـة الشـأن الفكـري لذاتـه فهوأقـرب إلـى كونـه اسـتجابة لنـداء الفطـرة أوالضميـر، بمـا هوصـوت خافـت يصـدر مـن أعمـاق الـذات

1. أيضا قد تشير دلالة الشأن الفكري بالبقاء في موقع المتابع الخارجي لمضمار المعرفة الإنسانية من دون تخصصية، حيث يمكن عد العلوم الإنسانية والاجتماعية هي المجال الأمثل للمتابعة الدقيقة، سواء ما تعلق بتحصيل الأبجديات أوبمتابعة التطورات والوقوف على ذرواتها، وهذا يجعل المهتم بالشأن الفكري شبه مختص، وقد يتصدى لتقديم الرأي والأحكام دون اكتمال التكوين، حيث الواجب هنا أن يتبين المرء منزلته في السلم المعرفي لالتزام متاحاته لئلا يجترئ على ما لا طاقة له به من الأفكار والأطروحات في المجال..

الإنسانية في مواجهة التحديات الزائفة التي تطرحها الحياة المادية، أوحتى تلك التي تطرحها المنظومة التاريخية ذات الأبعاد: الثقافية والاجتماعية والسياسية السائدة، أعني أن العناية بالشأن الفكري ذات شقين أساسيين هما:

- التمرد على متطلبات الحياة المادية، بما هوإنكار فطري للتعلق بها كأولوية حيوية، ودحرجتها إلى مرتبة أدنى في سلّم مقومات الوجود الإنساني.
- التمرد على متطلبات النظام التاريخي، بما هوإنكار فطري للاحتكام إلى نموذج تاريخي سائد، باعتباره مجرد معطى مؤقت لا يعبر عن جوهر الوجود الإنساني.

وعن العناية بالشأن الفكري تنشأ مختلف مظاهره المعبرة عنه والتي تختلف في عمقها من شخص إلى آخر، قد يكون منطلقها متابعة الشأن السياسي من أحداث ووقائع وتطوراتها، وقد تكون غايتها متابعة الشأن المعرفي من أفكار وأطاريح حول الواقع الوجودي المُعاش، وما بينهما مما يتخلله من انخراط في الواقع بما هوأنشطة ومشاركات في الفضاء العام الواقعي منه والافتراضي

لكن لابد من التنبه إلى تمييز مهم بين العناية بالشأن الفكري بوصفه حالة من الاشرئباب إلى معايشة عالم الأفكار وبين الهم النضالي بما هوحالة فوران شبه دائمة تستجيب للمحفزات الواقعية بشكل غريزي؛ فالواقع أن الحالتين قد تشتبهان خاصة لكونهما يلتقيان في التزام الانخراط في الواقع، ومحاولة التأثير عليه، لكن شتان بينهما، ذلك أن الهم النضالي مرتبط بتحقيق أهداف مباشرة لا تشترط استصحاب «عالم الأفكار» بالضرورة، رغم حيويته، فالمناضل الذي لا يملك عالم أفكار معياري في نفسه فإنه غالبا يسقط في الأهداف المباشرة التي لا تخرج عن نطاق المصلحة الفردية والجماعية المحدود بالإدراك الغريزي الطبيعي الذي لا يعي البعائد ولا يلتزم المبادئ

فالواضح أن الإنسان يجد نفسه في إطار طبيعي حده الأدنى المحيط الأسري القرابي، وحدّه الأعلى الوطن الجغرافي الذي يشكل هويته التاريخية-الطبيعية[2]، حيث الخصوصية الجزائرية هنا هي أن سعة الرقعة الجغرافية وانعدام سياسة وطنية شاملة، فضلا عن انعدام تيارات وحركات اجتماعية قاعدية مكينة، ولّد رد فعل شبه طبيعي عند الشباب وهوالانكفاء على المستويات الجهوية والإثنية كبديل عن فشل سياسة التحضر والتمدين الاجتماعية وفقدان الفاعلية الصناعية والاقتصادية، في ظل غياب لعناصر التوحيد السياسية، بل وحتى وجود سياسات مضادة للنماذج التي يمكن أن تحقق تجميعا على المستوى الوطني، وهذا أيضا ما جعل التمسك بنموذج فكري-أخلاقي وطني متعذرًا كتيار عام، إلا كجماعات مجهرية صغرى، رسمية وغير رسمية، لا تفتأ تنكفئ على ذاتها بعد انطلاق

وإذا رفعنا مستوى رؤية التحليل وجدنا أنفسنا أمام العنصر الضروري المفقود لإعادة بناء شبكة علاقات اجتماعية على أساس فكري-خلقي كفيل بالتأسيس -ولوالبطيء- لتيار وطني عام للنهوض، لذلك فإن هذا الواقع أنتج انقساما أساسيا بين:

- أصحاب الهم الفكري-الخلقي الذين تحولوا إلى شبه أقلية من حيث الفاعلية رغم كثرتهم المفترضة.
- أصحاب النضال الميداني على أساس طبيعي، حيث شكل الأخير القوة التي ما تزال فاعلة لما حازته من آليات التأثير والنفوذ، رغم كون أصحابه أقلية.

2. إذا اعتبرنا الأسرة والوطن الحدان المتطرفان للهوية الطبيعية الفردية، فإن الفرد والأمة هما الحدان المتطرفان للهوية الخلقية للإنسان، ذلك أن الفردانية تتحول كوعي وممارسة من حال الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل عند استعمال القدرات الفردية العقلية والنفسية والبدنية بالابتعاد عن التلقي السلبي للنمطية الفردية إلى العمل الإبداعي الفاعل، كذلك الأممية (الكونية) تتحول كوعي وممارسة من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل عند تحقيق القيم الدينية والثقافية والسياسية بالابتعاد عن التلقي السلبي للنمطية الجمعية إلى العمل الجماعي الفاعل؛ فتكون المعادلة: فرد+أسرة+جماعة وطنية+جماعة كونية، بحيث تستحيل الأسرة إلى مجال لتخريج الفرد الحر فكريا والسوي نفسيا، كما تستحيل الجماعة الوطنية إلى وحدة أولية في سبيل تحقيق الجماعة الكونية.

الأمر الذي أدى إلى انقسام الساحة الفكرية الشبابية إلى:

- نموذج الشاب الجزائري المنكفئ والراضي بالوضع العام والمدافع عنه، نموذج الشرعية الثورية مثلا، من قبيل الحزب الواحد وشرعية أبناء الشهداء والمجاهدين بل وحتى أبناء المجاهدين.
- نموذج الشاب الجزائري الساخط على الوضع الداعي إلى وضع أكثر طبيعية، نموذج التحيز الجهوي والإثني مثلا، التفاخر بالانتماء الجزئي وازدراء الانتماء الوطني مع بقية الإنتماءات، بل وحتى تفضيل الأجنبي على الأهلي.

بينما بقي النموذج العقلاني ذو المثل الفكرية والخلقية مقصى خارج حلبة التفاعل والتأثير، النموذج الذي يفترض به السعي للجسر بين المعطى التاريخي-الطبيعي وبين المثل الفكرية-الخلقية، حيث الفارق بين النموذج العقلاني الخلقي والنموذج الطبيعي الغريزي يكمن في كيفية تبني الموقف الفكري، فالموقف الثاني هومجرد تلق وتقليد أصم للواقع وقبول به بغض النظر عما إذا كان تلقيا إيجابيا بقبول الحاصل أوتلق سلبي بمعارضته بنموذج أدنى من الحاصل، بينما نتج الثاني عن بناء عقلي ومنطقي يمكن تحديد إحداثياته بمعيارين اثنين، سيعد العمل دونهما نكوصا تاريخيا وعقليا، ويمكن اعتبارهما قيمتان مؤسستان:

1- قيم العقلانية: وتجسيدها في التمدن الجامع بين المادي والثقافي المفضي إلى تركيز «الأخلاق المدنية» التي هي مأصولة في القيم الفطرية الثاوية في الدين الأصلي

2- قيم الفاعلية: وتجسيدها في المواطنة الجامعة بين الحق والواجب المفضية إلى تركيز «وطنية براغماتية» التي هي مأصولة في القيم الفطرية الثاوية في الحضارة الراهنة

بذلك، يكون الشأ ن الفكري المتأرجح بين الوجود والعدم في الجزائر قد عرف أهم معوقاته وتلمس طريق استئنافه، بوصفه الشرط الأساسي

الضـروري لتحقيـق اللحمـة الاجتماعيـة السياسـية بيـن الشـباب الجزائـري، وقبـل ذلـك التخلـص مـن الحـس الطبيعـي الغريـزي الـذي سـاهمت عقـود التيـه فـي ترسـيخه، إلـى أفـق الحـس الفكـري الخلقـي الـذي يجـب أن يسـتعاد كحـق مسـتلب، اسـتلب معـه الإنسـان الجزائـري، ولعـل هـذا شـرط شـروط النهضـة الجزائريـة المأمولـة كجـزء مـن كيـان أعلـى، وعلـى المنـوال يجـب أن يحذوالجميـع سـواء مـن المحيـط إلـى المحيـط، أومـن طنجـة إلـى جاكرتـا

فهرس المحتويات

الديباجة 1

المحاضرة الإفتتاحية للطبعة الأولى من ملتقى مجالس 9

الأوراق البحثية 13

النموذج الإصلاحي الحياتي: بين ضرورة الوجود وموانع التحقق 15

المراهقة كمرحلة مهملة، محاولة لفهم الخصوصية وظاهرة التسرب 47

الاعتزال الطوعي للمسؤولية عند الشباب الجزائري: مقاربة حول محفزات المزاج العبثي ومشاكل الواقع الجزائري..... 86

تعقيبات الجلسة الأولى: منطلقات الاهتمام بالشأن الفكري..... 104

المجتمعات الشفوية ودور الكتابة في الشأن الفكري 108

عزوف الشباب عن الشأن الفكري في ضوء إشكالية النخب 118

الحركات الإسلامية والشأن الفكري : مقاربة للجدل القائم بين منطق العمل ومنطق الفكرة..... 130

تعقيبات الجلسة الثانية: الشأن الفكري والتقاليد الثقافية..... 162

الإنسان الهامشي كمنتج للرأسمالية المعاصرة..... 166

الاهتمام بالشأن الفكري والصناعة الإعلامية : مقاربة حول الإعلام الرقمي وهندسة الجمهور..... 178

الإدمان وتأثيراته على القدرات الذهنية للفرد: مواقع التواصل الاجتماعي والإباحية نموذجا..... 196

تعقيبات الجلسة الثالثة: الشأن الفكري في المجتمعات الحديثة..... 220

كلمات عن ملتقى مجالس..... 224

كلمة الأستاذ. مختار الأخضر الطيباوي..... 225

كلمة الدكتور. محمد عبد النور 237